

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اَلْاِثْلَامِيَّةِ جَامِعَةِ

العدد الرابع والستون • السنة السادسة عشرة • شتاء سنة ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص.ب: (٨٩٤ = ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

www.ahlulbaytportal.com

Tahrir-thaqalayn@hotmail.com :

Bc@ahl-ul-bayt.org :

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

*

.....

□ من أريج القيادة الحكيمة:

*

...

:

□ في رحاب الأعياد وأسبوع الوحدة:

*

()

.....

*

.....

*

.....

*

:

□ دراسات فكرية:

*

.....

()

*

:



المشرف العام
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن
المعاونية الثقافية - إدارة المجالات

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير
الشيخ علي محسن

/

:

عيسى

*

()

*

*

□ حديث الروح:

*

□ وجهة نظر:

*

□ متابعات متنوعة:

*

*

*

هل بات الكذب سمة الإعلام

أم أن الإعلام سمة الكذابين؟!

تجسيد



قد لا نتفق فيما بيننا حول المنشأ التاريخي الذي دعا إلى إطلاق اسم «السلطة الرابعة» على وسائل الإعلام عموماً، أو على الصحافة على وجه الخصوص. فبين قائل بأنها «رابعة» في قبال أحزابٍ ثلاثة كانت تسيطر على الحكم في معظم أو في بعض بلدان العالم القديم، وهي: رجال الدين، والنبلاء، والعوام. وبين قائل بأنها ليست «رابعة» إلّا لأنها تقع إلى جانب السلطات الدستورية الثلاث المترتبة على سدة الحكم في الأنظمة الحديثة، أعني بها: السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية. قد نختلف بشأن ذلك كلّ، نعم.. غير أنّنا سرعان ما سنعود لتتفق - قولاً واحداً - على سلطوية الإعلام بمختلف أشكاله، من المقروء والمرئي والمسموع، بل وعلى أنّ نفوذ الإعلام وقدرته على التأثير - في عصرٍ يُشار إليه على أنّه عصر أفول الأنظمة الديكتاتورية، ولو في الشكل والظاهر - هو أكبر بكثيرٍ من سطوة وقوة ونفوذ سائر السلطات أو الأحزاب، ومن قدرتها على التأثير وإحداث الفرق في

- المجتمعات، بهذا المستوى من العموم والشمولية والانتشار.
- وما أكثر العوامل التي جعلت وتجعل النشاط الإعلامي يحتل هذا المستوى المرموق من التأثير.. ولعل من أبرزها وأهمها:
١. التطور الهائل والمتسارع الخطى على صعيد الإمكانيات المتاحة في مجال البث والتغطية الإعلامية والفضائية.
 ٢. القدرة على تغطية الخبر، والمتابعة الدقيقة والتفصيلية لمجريات الأحداث على الصعيد العالمي، فضلاً عن الإقليمي والمحلي.
 ٣. السرعة في تلقي المعلومة وإيصالها، حتى أن الحدث ليجري في أقصى الشرق، وتصل تفاصيله وأنبأؤه إلى أقصى الغرب في ثوان معدودة.
 ٤. ارتفاع وسائل الإعلام - في كثير من المواقع والأحيان - إلى رتبة من يصنع الخبر وينسج خيوطه ويحكم عقده، بعد أن كان دورها في السابق يقتصر على مجرد نقله وحكايته وإبلاغه. وإطالة سريعة على نشرات الأخبار في المحطات الفضائية المعروفة كفيلاً للتصديق بأن وسائل الإعلام - خصوصاً الخبرية منها - قد أضحت وسيلة للتلقين الذهني العام، وليس مجرد مراقب وناقل لما يجري حولنا من أحداث ومجريات. بل حتى الذي يمارس منها دور المراقبة والنقل يتدخل في ترتيب الأحداث بطريقة غائية وإيجائية.
 ٥. ممارسة الإعلام لدور الرقيب على عمل الساسة والمحاسب على أفعال المسؤولين، ما جعله المحامي الأول والأقوى والأشرس عن قضايا الناس وهمومهم، وهي حقيقة استطاع الإعلام أن يرسخها ويكرسها في الواقع العملي بوصفها حقيقة ثابتة لا يمكن تجاوزها، وتمكن من غرسها في الذهنية السياسية، في وعي الساسة ولاوعيهم على حد سواء، حتى بات الإعلام هو أكثر ما يخشاه المسؤولون، وهو الهاجس الذي

يؤرّق ليل أصحاب المناصب والكراسي، وكان ذلك سبباً في اشتها
المقولة القائلة: ما خاض شخص معركةً ضدّ الإعلام إلّا وكان هو
الخاسر الأكبر فيها!!

وبعد..

فإنّ أهميّة الإعلام، والمكانة التي تحتلّها الصحافة في حياة المجتمعات
الإنسانيّة، وبخاصّة: المعاصرة منها، ممّا لا يخفى على أحد. بل إنّ الإعلام - بحقّ
- هو أحد أهمّ الإنجازات والابتكارات التي استطاع إنسان هذا العصر أن
يلغها وأن يطورها ويستغلّها، بمنتهى علمه وطاقته، وبحصيلة مجهوده وسعيه.
يدلّنا على ذلك أمور عدّة، منها:

(١) تعدّد وسائل الإعلام، وكثرة عددها، مع ما هي عليه من الاختلاف في
التوجّهات والأهداف، وذلك تبعاً لوجهات النظر المتعدّدة والمتباينة - وفي كثيرٍ
من الأحيان: المتضادّة - في هذا العالم الكبير..

(٢) انشداد أنظار الأحزاب والقوى السياسيّة في العالم كلّ صوب الإعلام
ومؤسّساته، تأسيساً، وتبنيّاً، ودعمّاً ماليّاً، ومعنويّاً، وتقنيّاً.. وحرص كلّ
مجموعةٍ سياسيّةٍ على أن يكون لها وسيلة إعلاميّة تستطيع إيصال صوتها ورأيها
إلى مسامع الرأي العامّ؛ ذلك لأنّ الجميع وعى أنّ الإعلام هو سلاح من لا
سلاح له، وأنّه لن يُكتب البقاء والصمود لأيّ رأيٍ أو أطروحةٍ أو فكرةٍ ما لم
يقم أصحابها بالترويج لها ترويجاً إعلاميّاً مناسباً؛ وهذا تماماً كما أنّ البضائع
والمنتجات تكسّد، ولا تدخل سوق العرض والطلب، ما لم يتمّ التسويق لها
بعددٍ معتدّ به من الإعلانات التجاريّة المرغّبة.

(٣) الرساميل الضخمة التي تُرصد وتُنفق، والميزانيات الكبيرة التي يجري
تخصيصها سنوياً لخدمة العمل الإعلاميّ، في ميادينهِ المختلفة، الثقافيّة والفنيّة
والاجتماعيّة والسياسيّة والترفيهيّة..

٤) دخول الإعلام بثقله في كافة المعتركات الحضارية الحية، فهو في حدّ نفسه وجه من وجوه الحضارة؛ إذ هو المعبر والحاكمي، وبكلّ دقّة ووضوح، عن عقائد الدين ومذاهب السياسة واتجاهات الفكر وقضايا الثقافة وظروف المجتمعات ونُظم الاقتصاد وأعراف الناس وحاجات المواطنين، حتى إنّهُ ليُمكن القول: بأنّ صورة الإعلام مهما اختلفت باختلاف ظروف الزمان أو المكان أو أنظمة الحكم أو السياسة أو الاجتماع، إلّا أنّه لا يستطيع أيّ مجتمع إنسانيّ أن يحيا بدونه.

وعلى صعيد مجتمعاتنا الإسلامية:

أ. فحيث إنّهُ يفترض بهذه المجتمعات أن تحمل على عاتقها لواء الدعوة إلى الإسلام - هذه الدعوة التي عبّر عنها القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } [النحل: ١٢٥] -؛

ب. وحيث إنّهُ قد بات مستحيلاً - كما كان كذلك في السابق أيضاً - تصوّر الدعوة إلى سبيل الله من دون إعلام؛

ج. وفي ظلّ الصراع الدائر على الساحة والمحتدم حضارياً وثقافياً وإعلامياً بشكلٍ لم يسبق له مثيل، وبما لا يقلّ في حدّته عن الصراعات الاقتصادية والعسكرية (إن لم نقل بأنّه قد زاد عليها)؛

د. وحيث إنّ سياسة الاستهداف التي تمارسها قوى الاستكبار لا تطال أيّ دينٍ كما تطال ديننا الإسلاميّ، بالرغم من دعاوى وجوب عدم المسّ بالحرّيات الإنسانية والشخصيّة، التي منها: الدينيّة والمذهبيّة؛

هـ. وبما أنّ الاكتفاء بالوسائل التقليديّة (كالدعوة الفرديّة) وعدم الاعتماد على وسائل الاتّصال الحديثة، كالإنترنت والفضائيات وغيرها، لم يعد أمراً منطقياً ولا معقولاً؛

فقد كان لا بدّ لنا - بالنظر إلى جميع ذلك - من طرق أبواب الإعلام الحديث،

وكان من الضروريّ لنا أن نحوز على تقنيّاته المتطوّرة وأن نضمّها إلى ما نمتلكه - أصلاً - من رصيدٍ إعلاميّ لا يُستهان به، يتمثّل بالمساجد والمنابر والأقلام وغير ذلك..

وقد شهدنا في الفترة الأخيرة بروز عدد كبير من وسائل الإعلام التي تتوجّه بخطابها إلى الإنسان العربيّ المسلم، وقد استطاع بعض هذه الوسائل - فعلاً - وبخاصّةٍ: بعض قنوات الأخبار الفضائيّة العربيّة، استطاعت أن ترقى إلى مستوى أن تنافس سائر القنوات العالميّة، والغربيّة منها على وجه الخصوص، نظير قنوات: (CNN) و (BBC) و (FOX)، وغيرها.. بالرغم من أنّ بعض هذه القنوات قد مرّ عليه عقود وعقود من الزمن. وهذا - في الواقع - يشكّل مدعاة فرح وسرور واعتزاز وتفاؤل.

فهذه قناة (الجزيرة) - مثلاً - تبثّ لك الأخبار الساخنة من قلب الحدث، ومن أيّ مكانٍ في هذا العالم، وهذه قناة (العربيّة)، بما تتسم بها من الدقّة والشموليّة، تُشعرك بأنّك واحد من صنّاع الحدث والمشاركين فيه، وإن كان البحث عنه قد كلفها آلاف السنوات الضوئيّة!!

ولكن بالرغم من كلّ هذا التألّق الباهر، وبالرغم من أنّ جميع وسائل الإعلام تكاد تُجمع على أنّ رسالتها هي الموضوعيّة والدقّة والحياد، فإنّ عمل كثيرٍ من هذه القنوات في تناولها للأحداث لم يخلُ من الشوائب والنواقص والعيوب، في شكله كما في مضمونه، وفي سلوكه كما في نواياه، وهي - أعني: هذه الشوائب - تضع مصداقيّة الإعلام وحرفيّته على المحكّ، ما يستدعي من الجميع بذل جهودٍ مضنية في سبيل الإصلاح والتصويب، وهو ما يفتح المجال أمام طرح السؤال التالي، وهو:

هل حقّاً أصبح إعلامنا منافساً، وأصبحت قنواتنا سبّاقاً؟

وهل فعلاً وصل إعلامنا العربيّ والإسلاميّ إلى درجة القبول والرضا، ولو

في حدوده الدنيا؟

وهل هو حقاً يُرضي الطموحات ويجسد الآمال؟

ولسنا هنا بصدد تنزيه القنوات الغربية عن مثل هذه الشوائب، ولا نحن في مقام تلميع صورتها، كما أننا لا نريد لكلامنا هذا أن يُفهم على أنه دعوة لقنواتنا العربية والإسلامية إلى الاقتداء والاحتذاء بها في كل ما تقوم به، فإننا نعتقد بأن تلك القنوات - هي أيضاً - لم تسلم من الشوائب والعيوب، بل إن بعضها سلبي للغاية، وإن بعضها يجب التشكيك في نواياه، فضلاً عن أخباره، لعلمنا بأنه يدمن الكذب والاختلاق وقلب الحقائق وتزويرها..

أفليس من السذاجة - مثلاً - الركون إلى أخبار قناة ك (France ٢٤)، التي بلغ استخفافها بعقول الناس حدّاً استباححت معه أن تُلقِي على مسامعهم أنباء تفوح منها رائحة الكذب المقيتة، مثل قولها: إن الحكومة الإيرانية - لدى إحيائها مؤخراً لذكرى انتصار الثورة الإسلامية - لم تتمكن من جمع كل هذه الحشود إلا بعد أن وزّعت على كل واحدٍ من المشاركين شطيرة (ساندويشاً)؟! أفإلى هذا الحدّ يتصوّر هؤلاء أن بإمكانهم تضليل عقول شعوبنا واستغواءها؟!

إنّ ما نبتغيه هنا هو الارتقاء بواقع إعلامنا العربي والإسلامي المعاصر إلى مستوى التحديات، وما نريده له هو أن يكون الأفضل، لا أن يكون مجرد قادرٍ على منافسة الإعلام الغربي..

والذي نراه، أنّه لا يمكن لإعلامنا أن يحتلّ موقعه الريادي من منطلقات الإعلام الغربيّ أنفسها، بل لا بدّ له أن يكون إعلاماً ملتزماً بتعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه، فإنّ عودةً سريعةً إلى تاريخ أمتنا تكفي للتصديق بأنّ رصيدنا من المكتسبات الحقيقيّة لا يتجسّد سوى في هذا الإسلام الأصيل، وإنّ استعادة أمجاد المسلمين الأوائل لا تكون إلاّ بالاعتصام بحبل الله تعالى والالتزام التام بسنة رسوله الكريم 'وتعاليم العترة الطاهرة' ^.

وعلى هذا الأساس، فلا بدّ للفضائيّات العربيّة والإسلاميّة، ولا سيّما قنوات الخبر، أن تعي دورها ومسؤوليّاتها جيّداً، وأن تكون على مستوى الطموحات والآمال.

وفي هذا الإطار نلفت النظر إلى ما يلي:

١- ضرورة عدم استقاء الخبر إلّا من مصادر موثوقة، كما يدلّ عليه صراحةً قوله تعالى: {يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَتَدِمِينَ} [الحجرات: ٦]، علماً بأنّ أكثر منابع الخبر ومصادره في زماننا الحاليّ ليست كذلك؛ إذ كيف لنا أن نصدّق بأنّ وكالات الأنباء العالميّة لا تخضع لتدخلٍ وسيطرةٍ مباشرين، أو على الأقلّ: لمراقبةٍ عن كثب، من قبل أجهزة المخابرات الكبرى في هذا العالم؟! وهل نشكّ أصلاً في أنّ كثيراً من الأخبار التي تُصنع وتصل إلينا مغلفةً ومعلّبةً وجاهزةً للتقديم ما هي إلّا إشاعات مختلفة تهدف إلى صنع الفتنة وإضرار نيرانها في الشارع الإسلاميّ؟! أولاً يدعوننا ذلك للتروّي - على الأقلّ - ريثما نُجري تحريّاتنا الخاصّة للكشف عن صدقيّة الخبر وخلفيّاته؟!!

٢- لزوم أخذ الخبر من مصادره الأصليّة؛ إذ قد يكون المصدر المعتمد موثقاً في حدّ نفسه، ولكنّ عدم استلام الخبر وتلقّيه من مصدره الأصليّ كثيراً ما يؤدّي إلى ضياع بعض التفاصيل الضروريّة، أو خفاء بعض جوانب الحقيقة، أو عدم الدقّة في تصوير الواقعة.

٣- ضرورة الهدفيّة في نقل الخبر، والحرص على تجنّب الفوضى والغوغائيّة، وهو يستدعي تشذيب الأخبار وترتيبها على وفق الحساسيّة ودرجة الأهميّة، والعمل - بالدرجة الأولى - على ترشيد وتوعية الخطاب الإعلاميّ ليتمكّن من تحقيق أهدافٍ وغاياتٍ اجتماعيّة تكون مستوحاةً من حاجات المجتمع الأساسيّة ومصالحه الضروريّة.

٤- لزوم مواكبة التقنيّة الحديثة بمختلف أشكالها، والسعي نحو الفريدة والإبداع، والبحث عن أساليب عمل حديثة وفعّالة في مجال الإعلام لإسراع صوت العالم الإسلامي والدفاع عن مواقفه وقضاياها في المحافل والمجتمعات الدوليّة، وإبراز الصورة المشرقة والعصريّة للإسلام الأصيل، القائم على مبادئ وقيم ومفاهيم هي - بمجموعها - أرقى بكثير ممّا يمكن أن يتناهى إليه العقل البشريّ، من قبيل مبادئ: التوحيد والوحدة والوسطيّة والحوار والعقلانيّة والانفتاح والتسامح وحبّ الأوطان وحفظ النظام واحترام القوانين ونبد الغلوّ والتطرّف والجمود والانتهازيّة والتحجّر والتكفير ومحاربة الإباحيّة والخلاعة والسفور..

٥- ضرورة اعتماد الواقعيّة كأسلوبٍ أوحّد لمعالجة المسائل وتصويرها، بعيداً عن سياسة الكيل بمكيالين، وعن الانتقائيّة في إطلاق الأحكام والتوصيفات.

٦. ضرورة تجنب القنوات الإعلامية والمحطات الخبرية أن تكون وسيلةً تبثّ الخلافات الطائفية والمذهبية. وقد تلوّنت بعض المحطات العبرية (عفواً العربية) بلون مذهبي، وأصبح ذلك شغلها الشاغل، حتّى لو أدى ذلك إلى ممارسة الافتراء والكذب والتزوير، والاستفادة من أشخاصٍ أقلّ ما يُقال عنهم إنهم موالين للغرب، كلّ ذلك على طريقة «الغاية تبرّر الوسيلة».

إلى غير ذلك من التوجيهات والإرشادات الضروريّة التي لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار...

وفي الختام نقول:

إنّ الإسلام - كما أسلفنا - هو دين الدعوة إلى الله، وإلى سبيله، وهي دعوة نحن المسلمون مطالبون بتحمّلها واعتناقها والسعي لها والسير في ركاياها، ولا بدّ لنا في مسيرة الدعوة هذه من الاتّصاف بالوعي والبصيرة، كما قال عزّ من قائل في كتابه المحكم: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {يوسف: ١٠٨}، وإذا كان الإسلام أعظم دينٍ ورسالة، فلا بد أن تتم الدعوة إليه باستخدام أعظم الوسائل وأكثرها تأثيراً، وإنَّ أيَّ تقصيرٍ في رسم صورةٍ صادقةٍ مشرقةٍ لهذا الدين الحنيف، وفي عرضه كما أراد رسول الله ﷺ ومن بعده: خلفاؤه المعصومون من أهل بيته ^٨، بوصفه قيمةً إنسانيةً عالميةً توحيديةً عُلّيا، لا تتأطر بأفاقٍ من الجمودية الضيقة - كما يحلو لبعض الضالّين من السلفيّين أن يقوم به -، سيؤدّي لا محالة إلى ما لا تُحمد عقباه، وفي الدنيا، قبل الآخرة.. والله المستعان..

* * *

من
أريج القيادة الحكيمة
﴿﴾

ولادة الرسول الأعظم .. هتاف الوحدة

من كلام القائد الخامنئي دام ظلّه

□ إعداد: قسم الأرشفة

تقديم

بمناسبة المولد النبوي الشريف، وأسبوع الوحدة الإسلامية، ألقى وليّ أمر المسلمين الإمام القائد السيّد علي الحسيني الخامنئي دام ظلّه - وهو الحريص على وحدة المسلمين وألفتهم، بل وهو القائل: «أُملي أن تكون حياتي في سبيل وحدة المسلمين، ومماتي في سبيل وحدة المسلمين» - كلمة قيّمة بالمناسبة، جاء فيها:

لم تكن ولادة الرسول الأعظم ' مجرد حدث تاريخي، بل كانت حدثاً مصيرياً في مسار الإنسانية. فالظواهر التي وقعت تزامناً مع هذه الولادة الكبرى - كما يروي التاريخ - ما هي إلاّ إشارات بليغة لمعنى هذه الولادة وحقيقتها، حيث ينقل أنّ علامات ورموز الكفر والشرك في نقاط شتّى من العالم كانت قد تزلزلت واختلّت أثناء ولادة نبي الإسلام الكريم '.

:

كما تعرّض قصر جبابرة الإمبراطوريّة الإيرانيّة المشركين آنذاك لحادثٍ معروف، حيث انهارت شرفات قصر المدائن الأربع عشرة. وكانت هذه بدورها إشارةً رمزيّةً أخرى تفيد أنّ هذه الولادة الميمونة كانت مقدّمة وخلفيّة للكفاح ضدّ الطغيان وضدّ كلّ الطواغيت في العالم.

فمن جهة، كانت هذه الولادة تحمل في طيّاتها الجوانب المعنويّة العالية المتمثّلة في هداية البشر القلبيّة والفكريّة، ومن جانبٍ آخر، فهي تحمل في طيّاتها جانب الهداية الاجتماعيّة والعمليّة للبشريّة، من الكفاح ضدّ الظلم والطغيان وضدّ سيادة الظالمين الباطلة على الناس..

وللإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب × في نهج البلاغة العديد من العبارات في وصف الزمن الذي ظهر فيه الرسول الأكرم ' وطلع كالشمس المشرقة، ومن ذلك قوله ×: «والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور»^(١).

فالدنيا قبل الولادة كاسفة النور لما يشوبها من: ظلمات الجهل.. ظلمات الطغيان.. وظلمات الضلال. على حدّ قوله في دعاء الندبة: «وكان بعده هدىً من الضلال ونوراً من العمى»^(٢).

وهكذا كان، فلقد كانت البشريّة قبل ولادته ' عمياء، فتفتّحت عيونها، وكان العالم قبل ذلك مظلماً فتنوّر بنور وجوده '. هذا هو معنى هذه الولادة الكبرى، ومن ثمّ بعثة هذا الإنسان العظيم.

ولسنا نحن المسلمين فقط المدينين للمنة والنعمة الإلهيّة بسبب هذا الوجود المقدّس، بل إنّ الإنسانيّة كلّها مدينة لهذه النعمة.

:

إذا ما نظرنا في التاريخ بعد بعثة الرسول الأكرم ' وولادته، فسنلاحظ

أنَّ الإنسانية قد سارت نحو القِيم، وبدأت بالتعرّف على القِيم، وهذا ما نعتقد أنَّه سيستمرّ بالنموّ والانتشار تدريجيّاً، بل وستتضاعف شدّته يوماً بعد يوم، إلى أن {يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣]، إن شاء الله تعالى.. وهو نور قُدّر له أن يستغرق العالم كلّهُ، لتبدأ البشريّة سيرها الحقيقيّ في طريق الهداية والصراط الإلهيّ المستقيم، وفي الواقع: فإنّ حياة الإنسانية إنّما تبدأ منذ ذلك اليوم.. إذ هو اليوم الذي تكتمل فيه حجّة الله على الناس وتضع الإنسانية أقدامها على هذا الطريق.

:

ما نشدّد عليه اليوم، وهو من واجباتنا الكبرى والأولى نحن المسلمين، هو قضية الاتحاد والوحدة. ولقد قمنا، ومنذ بداية الثورة الإسلاميّة المباركة، بتسمية هذا الأسبوع - الذي ينتهي بالسابع عشر من ربيع الأوّل - بـ «أسبوع الوحدة». والسبب الذي دعانا إلى هذه التسمية هو أنّ يوم الثاني عشر من ربيع الأوّل - حسب الرواية الشهيرة لدى إخواننا من أهل السنّة - هو يوم ولادة الرسول '، ويوم السابع عشر من الشهر نفسه - حسب الرواية المشهورة في مصادر الشيعة - هو يوم ولادته '.

بيد أن مجرّد الكلام لا يكفي، والتسمية لوحدها لا تكفي.

بل ينبغي لنا أن نعمل حثيثاً وأن نتّجه صوب الوحدة، والعالم الإسلاميّ اليوم هو بأمسّ الحاجة إلى هذه الوحدة. ولأجل ذلك، فهناك عوامل تفرقة ينبغي لنا ملاحظتها وأخذها بعين الاعتبار توطئةً وتمهيداً لتذليلها والتغلّب عليها، وهو هدف عظيم يستحقّ منّا كلّ التضحيات، فإنّ الأهداف الكبرى هي التي تحتاج إلى الجهاد والكفاح، وبمقدور هذا الجهاد أن يحلّ كثيراً من المشاكل، وأن يذللّ كثيراً من العقبات.

:

هناك عاملان أساسيان يعيقان طريق الوحدة وينبغي علاجهما:

(١) العامل الداخلي:

إنَّ تعصّب وتعنّت كلّ فريق لنفسه بطريقةٍ تتجاوز حدود الإثبات إلى حدود الإقصاء المصحوبة بالتطاول والعداء هو ما يجب التغلّب عليه. فعلى جميع الإخوة - في منظومة الأمة الإسلامية - أن يحترم بعضهم بعضاً، وعلى كلّ منهم - أيضاً - احترام حدود وحقوق وأفكار بعضهم بعضاً، وترك النقاشات والجدال لمجالس العلم. فليجتمع العلماء وأهل الخبرة وليتناقشوا مذهبياً إذا شأوا، إلّا أنّ النقاش المذهبي والعلمي في الأروقة العلمية ومنتديات الفكر والثقافة يختلف عن ما نشاهده أحياناً من تبادل الاتهامات والإساءات في العلن، وعلى مستوى الرأي العام، وأمام ذهنيّات عاجزة عن التحليل العلمي. وعلى العلماء العمل على احتواء هذا الشيء والتخفيف من حدّته، وعلى المسؤولين في مختلف البلاد الإسلامية العمل على احتوائه أيضاً. وهذا أحد العاملين، وهو عامل داخلي.

(٢) العامل الخارجي:

وهناك العامل الخارجي، وهو يد الأعداء المغرضة والمتربّصة العاملة على التفرقة. فينبغي عدم الغفلة عن هذا العامل. وهو عامل لم يبدأ اليوم فقط، بل ظهرت يد التفرقة والشقاق في هذه الأمة منذ أن شعرت القوى السياسيّة الاستكباريّة المهيمنة على العالم بأنّ بوسعها التأثير على الشعوب، وهي - أعني: بصمات التفرقة - اليوم أشدّ وأسوأ من أيّ وقت آخر. ومما يساعد على المزيد من انتشارها وتغلغلها وجود وسائل الإعلام والاتّصال الحديثة المسخّرة لهذه الأغراض، فهم يؤجّجون النيران ما أمكنهم، ويتفنّنون في نحت الشعارات

وابتداعها للتفرقة. وهذا ما يدعو إلى درجة عالية من التيقظ والحذر. وللأسف الشديد، فإنّ بعض الناس، من داخل الشعوب والبلدان المسلمة، يتحوّلون إلى وسائل وأدوات رخيصة لتنفيذ أغراض أولئك الأعداء الأصليين.

:

إنّ على الأمة الإسلامية أن تبقى متيقظة وأن تقف بوجه هؤلاء. والواجب الأول يقع على عاتق العلماء ورجال السياسة، فعلى المسؤولين وساسة البلدان الإسلامية أن يتيقظوا. والجميع مسؤول ومطالب، من المفكرين والمرشدين الذين يتعاملون مع عقول الناس وقلوبهم؛ إلى علماء الدين والمثقفين، إلى الكتّاب والصحفيين، إلى الشعراء والأدباء، إلى كلّ النخب في هذا العالم الإسلامي، فالجميع يتحمّلون هذا الواجب الكبير، وهذه المسؤولية الخطيرة، بدرجة عالية، وعليهم أن يعرفوا الناس على أصابع الفتن التي تروم الإخلال بهذه الوحدة، وإخراج هذا الزمام الإلهي المتين من أيدي المسلمين.

وفي هذا الشأن يقول لنا القرآن الكريم بكلّ صراحة ووضوح:
 { وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران: ١٠٣].
 فهو يقول لنا: اعتصموا سويةً بحبل الله.. وهذه هي قضية العالم الإسلامي الكبرى.

إنّ هذه الشعوب المتآخية والمتعاطفة، والتي هي من أعراق سوداء وبيضاء

وصفراء، وتتكلم بعشرات اللغات، تعتبر أنفسها، كلّها، أجزاءً متساوية من الأمة الإسلامية، وهي تفخر بذلك، وتتوجّه كلّها، وفي كلّ يوم مرّاتٍ عديدة، إلى قبلةٍ واحدة، وهي تتضرّع إلى الله بلغة واحدة، وهي تستلهم الدروس - أيضاً - من كتاب سماويّ واحد.

هذه المنظومة التي تسمى الأمة الإسلامية، لها ثقافة غنيّة وتراث زاخر متألّق ومشرق إشراقاً استثنائياً، وهي تتمتع - إلى جانب التنوّع الواسع - بوحدةٍ وانسجامٍ مذهلين، نابعين من شموليّة الإسلام وانتشاره، وتوحيده الخاصّ والخالص في جميع أركان هذه الأمة وأجزائها ومناحيها.

ولدى الأمة الإسلامية أدوات عديدة للدفاع عن حقّ وجودها. فالمسلمون جماعة كبيرة، ولديهم ثروات هائلة، وعندهم شخصيّات بارزة، ولديهم من الرصيد المعنويّ ما يمكن الناس من الصمود أمام العتاة. وللمسلمين ثقافة وحضارة عريقة قلّ نظيرها في هذا العالم. وهم يمتلكون الكثير من الإمكانيات، ولذلك، فهم قادرون قدرة كاملة على الدفاع عن أنفسهم. وهذا ما يضع العالم الإسلاميّ اليوم أمام مسؤوليّاته، ويطلبه بأن يبذل جهوده من أجل عزّته، ومن أجل استقلاله، ومن أجل تقدّمه العلميّ، ومن أجل المحافظة على اقتداره المعنويّ، أعني: التمسك بالدين والتوكّل على الله والارتباط به والتيقّن من العون والمدد الإلهيّين، كما نقرأ في الدعاء: «وَعِدَاتِكَ لِعِبَادِكَ مِنْجَزَةً»^(١). وهذا وعد إلهي لا شك في إنجازه وتحققه، قال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [الحج: ٤٠].

إنّ على المسلمين اليوم أن يخوضوا بنشاطٍ في ساحة العمل بالاعتماد على هذا الوعد الإلهي.

وليس مقصودنا من العمل مجرد حمل البنادق والعمل العسكريّ فحسب، بل نقصد منه ما يشمل العمل الفكريّ والعقلانيّ والعلميّ والاجتماعيّ

والسياسي، على أن يكون كلّ عملاً في سبيل الله، ومن أجل الوصول إلى اتحاد العالم الإسلامي. وهو ما من شأنه أن يعود بالنفع على الشعوب والحكومات الإسلامية أيضاً.

وكلّنا أمل ورجاء بأن يوفق الله تعالى جميع أبناء الأمة الإسلامية، وكافة الشعوب والحكومات الإسلامية للنظر لهذه المسألة المهمة بوزنها وأهميّتها، وتطبيقها عملياً. ورضوان الله ورحمته على روح إمامنا الجليل الذي رفع هتاف الوحدة في عصرنا، ودعا المسلمين لهذا الاتحاد. كما نرجو أن يعرف الله قلوبنا النداء الإلهي والدعوة الإلهية أكثر فأكثر، وأن يجعل مستقبل هذه الأمة الإسلامية خيراً من ماضيها. إنّه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

الهوامش:

(١) خطب الإمام عليّ X، نهج البلاغة ١: ١٥٧، الخطبة ٨٩، تحقيق وشرح الإمام محمد عبده، ط دار الذخائر، قم المقدّسة، ١٤١٢هـ.

(٢) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٩٩: ١٠٦، دعاء الندية، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

(٣) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٩٧: ٢٦٤، مصدر سابق.

حالتان متناقضتان (المذهبية والطائفية)

مظاهرها وعلل الانحراف

□ الشيخ محمد علي التسخيري (*)

التمهيد

إنّ الدارس لتاريخ العلاقة بين علماء المذاهب يلمح ظاهرتين متناقضتين: إحداهما: (التنوع المذهبي)، وتستمد جذورها من روح الإسلام وعقلانيته، ومنحه حرية الاجتهاد، ووضعه قواعد الحوار، وتأكيد على الأصول العامة للدخول في نطاق الأمة، وكذلك تركيزه على روح الأخوة والوحدة. والثانية: (الطائفية)، وهي تتنافى مع أصول الإسلام وقواعده.

رغم احتدام الخلاف الفكري بين العلماء من أتباع المذاهب، فإننا نلاحظ في كثير من الأحيان علاقات صفاء ومحبة وتمازج إلى حد كبير، بحيث يدرس بعضهم على بعض، ويدرس البعض فقه المذاهب الأخرى، وينقل مناهجهم إلى

(*) الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية/ إيران.

مذهبه، ويطلب بعضهم الإجازة من البعض الآخر. وهناك مجموعة رائعة من كتب الفقه المقارن، ونقل رائع لآراء الآخرين.

ومما روي عن الشيخ الصدوق أنه كان يجوب البلدان ويجلس إلى العلماء مهما كان مذهبهم، ومنهم الحاكم أبو محمد بكر بن علي الحنفي الشاشي^(١)، وأبو محمد محمد بن أبي عبدالله الشافعي الفرغاني^(٢).

وكان التعامل يتم عبر مجالات عديدة، كالتعليم والدراسة والحوار والاستفادة المتبادلة من المصادر والبحوث ونقد الآراء والتزاور والجلسات التي تتم في المناسبات.

ففي مجال التعلم، نجد كتب الفريقين متبادلة في الجامعات العلمية، والحوارات تستفيد منها دون أن تسأل عن مذهب الكاتب، ويشمل هذا مختلف العلوم، كالنحو والفقه وأصول الفقه والحديث بطرقه المختلفة: (السماع والقراءة أو العرض، والإجازة والمناولة والمكاتبة والوصية والوجادة).

ولقد كان شيخ الشيعة ببغداد (الشيخ المفيد) يحاور العلماء من شتى المذاهب الإسلامية ويجالسهم، وكان يحرص على التعليم، حيث يقول الذهبي: «وإن كان ليدور على المكاتب وحوانيت الحاكّة، فيلمح الصبيّ الفطن، فيذهب الى أبيه وأمه حتى يستأجره، ثمّ يعلمه، وبذلك كثر تلامذته»^(٣).

ولقد جاء كتاب (الخلاف) لشيخ الطائفة الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) أروع مثال على ذلك، وقد نقل بكلّ أمانة آراء المذاهب الأخرى، وبالتفصيل، ومنها: آراء المذهب الشافعي الى الحدّ الذي ظنّ السبكيّ معه أنه من علماء المذهب الشافعيّ، وذكره في طبقاتهم، رغم اعترافه بأنّه فقيه الشيعة ومصنّفهم، ولكنّه يقول عنه: «كان ينتمي إلى مذهب الشافعي»^(٤).

وكان الشيخ يعتمد على ما روي في مصنّفات أهل السنة إذا لم يجد ما يعتمد عليه في مصنّفات الشيعة، تبعاً لرواية عن الإمام الصادق × تقول: «إذا نزلت

بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما روي عنا، فانظروا إلى ما روه عن عليّ × فاعملوا به»^(١).

وهذه ظاهرة رائعة نلمحها في بعض العلماء، فتعبر لنا عن امتزاج عجيب بين المذاهب، وقد عبّروا عن ابن الفوطيّ (توفي ٧٢٣هـ) - وهو صاحب (معجم الألقاب)، وكان قيماً على أعظم مكتبة في عصره - عبّروا عنه بأنّه كان شيعياً حنبلياً. كما ذكر الشيخ وهبة الزحيلي^(٢) بأن الطوفيّ المعروف بدفاعه الشديد عن أصل (المصالح المرسلة) هو من غلاة الشيعة، متّبعاً في ذلك ابن رجب الذي عدّه من علمائهم، في حين أنّ الطوفيّ كان من علماء الحنابلة في القرن الثامن^(٣). ودفاعه عن هذا (الأصل) الذي يرفضه الشيعة، وعدم ذكره في فهرس علماء الشيعة يؤيّدان كونه حنبلياً.

وهذا محمّد بن أبي بكر السكاكينيّ، العالم الشيعيّ المعروف، كان كلّ مشايخه من أهل السنّة. وقد خرّج له ابن الفخر علاء الدين ابن تيمية (توفي سنة ٧٠١هـ) ما رواه عن شيوخه، وناظره، وشهد له بالتفوّق، وقال عنه: «هو من يتشيع به السنّيّ، ويتسنّن به الرافضيّ»، وقد نسخ صحيح البخاريّ بيده، وهو صاحب القصيدة المعروفة ومطلعها:

أيا معشر الإسلام ذمّي دينكم تحيّر دلوّه بأوضح حجة
وهو صاحب (الطرائف في معرفة الطوائف) الذي مزّقه السبكيّ وأحرقه.
ولو رجعنا إلى كتب طبقات الحنابلة، لرأينا التقارب العجيب، فهذا «المحبّي»، كبير السنّة في دمشق، يمدح «البهاء العامليّ»، عالم الشيعة المعروف، فيقول عنه - كما في خلاصة الأثر -: «وهو أحقّ من كلّ حقيقٍ بذكر أخباره ونشر مزاياه، وإتحاف العالم بفضائله وبدائعها، وكان أمةً مستقلّة في الأخذ بأطراف العلوم، والتضلّع بدقائق الفنون، وما أظنّ الزمان سمح بمثله، ولا جاد بنده، وبالجملّة: فلم تشنّف الأسماع بأعجب من أخباره»^(٤).

وقد ذكر الخطيب البغدادي أن سيرة سلف السنة هو الأخذ بروايات الثقات من الشيعة^(١).

ومن المعروف: أن الشيخ الطوسي كان له مشايخ من أهل السنة، ومنهم: أبو الحسن بن سوار المغربي، ومحمد بن سنان، والقاضي أبو القاسم التنوخي^(٢)، وعده صاحب (الرياض) من الشيعة^(٣).

وعندما ندرس أوضاع حوزة الحلة التي ازدهرت بعد القضاء على حوزة بغداد من قبل السلاجقة، نجد مجالاً رحباً للتسامح.

فهذا الشيخ ابن إدريس يدرس على مجموعة من علماء أهل السنة^(٤)، وهذا المحقق الحلي يؤلف كتاب (المعتبر)، ويذكر فيه آراء المذاهب بل ويستخدم نفس أسلوبهم في الاستدلال، ثم نجد تلميذه العلامة الحلي المؤلف الكبير يستجيز الكثير من علمائهم، ويعتبر عصره من أروع عصور التعامل الإيجابي، وهو يقول في مقدمة كتابه (منتهى المطلب) أنه يذكر مذاهب المخالفين مع حججهم على وجه التحقيق^(٥). وله أساتذة من علماء أهل السنة ذكروا في مقدمة كتابه (إرشاد الأذهان).

هذا. ويعتبر الشهيد الأول من خريجي هذه المدرسة.

ويعتبر الشهيد الأول وهو محمد بن جمال الدين مكي العاملي الجزي، من علماء القرن الثامن، والشهيد الثاني، وهو زين الدين بن علي العاملي الجبعي من علماء القرن العاشر، يعتبران مثليين رائعين من أمثلة الانفتاح والتمازج الفكري بين العلماء رغم أنهما كانا نموذجين بارزين من أمثلة ما يؤدي إليه التطرف المذهبي من نتائج فجيعة.

فهذا الشهيد الأول يعيش مع علماء عصره، وكان مجلسه لا «يخلو غالباً من علماء الجمهور لخلطته بهم وصحبته لهم»^(٦)، وقد قال في بعض إجازاته «أنه يروي عن نحو أربعين شيخاً منهم»^(٧)، وهي إجازته لابن الخازن، حيث جاء

فيها: «فإنّي أروي عن نحو أربعين شيخاً من علمائهم بمكة والمدينة ودار السلام بغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس، ومقام الخليل إبراهيم X، فرويت صحيح البخاري عن جماعة كثيرة، بسندهم إلى البخاري، وكذا صحيح مسلم ومسند أبي داود وجامع الترمذي.. إلى غير ذلك، ممّا لو ذكرته ل طال الخطب، وقرأت الشاطبية على جماعة، منهم: قاضي قضاة مصر.. عزّ الدين بن عبد العزيز ابن جماعة»^(١).

والجميل أن نجد شمس الأئمة الكرمانيّ الشافعيّ - وهو أحد شيوخه يصفه بـ «المولى الأعظم، الأعلم، إمام الأئمة، صاحب الفضلين، مجمع المناقب..»^(٢)، وكان &، كما يقول المرحوم صاحب الرياض: «يشتغل بتدريس كتب المخالفين ويقرئهم»^(٣).

وكان يرى أنّه لو كانت هناك صلاتان للجماعة، إحداها للشيعة، والأخرى للسنة، فإنّ حضور الثانية أفضل؛ لأنّه روي عنهم^٨: «من صلّى معهم في الصفّ الأوّل، كان كمن صلّى خلف رسول الله ' في الصفّ الأوّل»^(٤). قال: ويتأكّد مع المجاورة^(٥).

وهذا الشهيد الثاني كان يذكر الصحابة بكلّ احترام، فهو يقول: «ورجعت إلى وطني الأوّل بعد قضاء الواجب من الحجّ والعمرة والتمتّع بزيارة النبي وآله وأصحابه صلوات الله عليهم...»^(٦).

وقد اجتمع إلى جملة من علماء السنة؛ ففي سفره إلى مصر اجتمع مع «الشيخ الفاضل شمس الدين بن طولون الدمشقيّ وقرأ عليه جملة من الصحيحين في الصالحية بالمدرسة السليمية وأُجيز منه بروايتهم... ثمّ سافر إلى بيت المقدس في ذي الحجة (٩٤٨هـ)، واجتمع بالشيخ شمس الدين بن أبي اللّطيف المقدسيّ، وقرأ عليه بعض صحيح البخاريّ وبعض صحيح مسلم، وأجازة إجازة عامّة، ثمّ رجع الى وطنه واشتغل بمطالعة العلوم ومذاكرتها مستفرغاً وسعه، وفي سنة

٩٥٢ هـ سافر إلى الروم، ودخل القسطنطينية في ١٧ ربيع الأول، ولم يجتمع مع أحد من الأعيان إلى ثمانية عشر يوماً، وكتب في خلالها رسالة في عشرة مباحث من عشرة علوم، وأوصلها إلى قاضي العسكر محمد بن محمد بن قاضي زاده الرومي، فوَقعت منه موقعاً حسناً، وكان رجلاً فاضلاً، واتفق بينهما مباحثات في مسائل كثيرة.. واجتمع فيها بالسيّد عبدالرحيم العباسي صاحب (معاهد التنصيص) وأخذ منه شطراً... وأقام ببلبك يدرّس في المذاهب الخمسة، واشتهر أمره، وصار مرجع الأنام ومفتي كلّ فرقة بما يوافق مذهبها...»^(١).

ورحل إلى مصر وقرأ بها على ستّة عشر رجلاً من أكابر علمائهم، وقد ذكرهم مفصلاً، ويبدو أنه استجازهم وروى كتبهم، ويقول صاحب رياض العلماء «ويظهر منه ومن إجازة الشيخ حسن وإجازات والده أنه قرأ على جماعة كثيرين جدّاً من علماء العامة، وقرأ عندهم كثيراً من كتبهم في الفقه والحديث والأصول وغير ذلك، وروى جميع كتبهم وكذلك فعل الشهيد الأوّل والعلامة»^(٢).

وذكر هو بعض هؤلاء: من قبيل: الشيخ زين الدين الجرمي المالكي، والشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي، والشيخ شمس الدين محمد بن أبي النحاس.

وقال ابن العودي تلميذه: «كثيراً ما كان ينعت هذا الشيخ - يعني ابن أبي النحاس - بالصالح وحسن الأخلاق والتواضع»^(٣).

والحديث مفصّل في هذا المجال.

وكأنّ هذا المسلك لم يرق لبعض العلماء، وخصوصاً للأخباريين منهم، فأبدوا عدم رضاهم به^(٤)، وقد اتّهمه البعض بالميل إلى التسنن^(٥).

وربما جاء الاتّهام لأنّه & قام بعمل فريد، إذ اعتمد منهج أهل السنة في علم الدراية وطّبقه في المجال الشيعي؛ يقول صاحب الرياض: «ثم اعلم أنّ الشيخ زين الدين هذا هو أوّل من نقل علم الدراية من كتب العامة وطريقتهم إلى كتب

الخاصّة، وألّف فيه الرسالة المشهورة ثمّ شرحها، كما صرّح به جماعة ممّن تأخّر عنه، ويلوح من كتب الأصحاب أيضاً، ثمّ ألّف بعده تلميذه الشيخ حسين بن عبدالصمد الحارثي، وبعده ولده الشيخ البهائي، وهكذا...»^(١).

وهنا يقول العلامة الأمين: «والعلامة والشهيدان أجلّ قدرًا من أن يقلّدوا أحداً في مثل هذه المسائل، أو تقودهم قراءة كتب غيرهم إلى اتباع ما فيها بدون برهان، وهم رؤساء المذهب، ومؤسّسو قواعده، وبهم اقتدى فيه أهله، ومنهم أخذوه، وإنّا أخذوا اصطلاحات العائمة ووضعوها لأحاديثهم غيراً على المذهب لما لم يروا مانعاً من ذلك، وكذلك فعلوا في أصول الفقه، وفي الإجماع وغيره، كما بيّن في محلّه، وكذلك في فنّ الدراية وغيره، وكيف يكون عدم رضا الشيخ حسن بما فعلوا لهذه العلّة وهو قد تبعهم وزاد عليهم؟!»^(٢).

وهكذا نجد التعامل الإيجابيّ البنّاء بين القادة:

- احتراماً يصل إلى حدّ التكريم الرفيع.
- وعبارات المودّة والمحبة سائدة رغم النقد العلميّ أحياناً.
- وانبهاراً واحتراماً يفوق الوصف.
- وعلماء الفريقين يشرح بعضهم كتاب الآخر.
- وإرجاعاً من إمام إلى إمام.
- وتدرّيس البعض وإفتاءه الناس بالمذهب الآخر.
- واعترافاً بالفضل والعلم بأروع التعابير.
- وإلحاحاً على التعلّم رغم الوضع السياسيّ الحرج.
- واستجازه البعض من البعض الآخر ورواية كتبه.
- وأخيراً: عدم الإصرار على الرأي، وردّاً للمنقول عنهم إذا لم يوافق الكتاب والسنة.
- وامتزاجاً إلى حدّ عدم تبيّن المذهب لدى البعض.

- وحرية في الاجتهاد وقبولاً بالتعددية وانفتاحاً على الآخر.
- ونقل المنهج العلمي لدى الآخر الى علوم المذهب.
فهل يا ترى تقتضي العقلانية غير ذلك؟ وهل احتفظ أتباع الأئمة بمثل هذه الروح بعد ذلك؟!

وإزاء هذا التعامل الجميل بين الأئمة، نلاحظ الوصايا التي تترى منهم لأتباعهم كي يتعاملوا بنفس الروح التسامحية، ويتجاوزوا الخلافات الفرعية في العقيدة والتقييم التاريخي والفقهاء إلى الموقف المبدئي والتحاب ووحدة الموقف، والتعالي إلى المستويات المصلحية العليا. فلنلاحظ بعض النصوص كما يلي:

١- ذكر التاريخ أن عبدالله بن أحمد بن حنبل روى أن قوماً من الكرخيين ذكروا خلافة الخلفاء الراشدين، (وربما تنازعوا فيما بينهم)، فقال الإمام أحمد ناهياً إياهم عن هذه النزاعات الجانبية العقيمة: «يا هؤلاء أكثرتم القول في عليّ والخلافة، والخلافة وعليّ؛ إن الخلافة لم تزين عليّاً، بل عليّ زينها»^(١).

٢- وقد طرد الشيخ الحسين بن روح - أحد النواب الأربعة للإمام الثاني عشر المهدي عجل الله تعالى فرجه - خادماً له؛ لأنّه سمعه يهين معاوية^(٢).

٣- وأوصى الإمام الصادق عليه السلام أصحابه فقال لهم: «صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدّى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفريّ، فيسرّني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر»^(٣).

٤- روى ابن أبي يعفور قال: سمعت الصادق يقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»^(٤).

٥- تذكر لنا الروايات أنّه جرى ذكر قوم عند الإمام الصادق ×، فقال

بعض شيعته: إنّنا لنبرأ منهم، إنهم لا يقولون ما نقول، فقال الإمام: «يتولّونا، ولا يقولون ما تقولون، تبرأون منهم»؟ فأجاب الراوي: نعم، قال: «هو ذا عندنا مالميس عندكم، فينبغي لنا أن نبرأ منكم»^(١).

٦- وعن الصادق ×: «من خلع جماعة المسلمين قدر شبر خلع ربة الإيمان من عنقه»^(٢).

٧- وعن الباقر × في قوله تعالى: {أَوْ يَلِسْكُمْ شَيْعًا} [الأنعام: ٦٥]، قال: «وهو اختلاف في الدين وطعن بعضكم على بعض»^(٣).

٨- وقال الصادق: «عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، إنّه لا بدّ لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لا بدّ لبعضهم من بعض»^(٤).

٩- معاوية بن وهب قال: قلت له [أي: الصادق ×]: كيف ينبغي أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطانا من الناس ومن ليسوا على أمرنا؟ فقال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدّون الأمانة اليهم»^(٥).

١٠- وقال الصادق ×: «رحم الله عبداً اجتّر مودّة الناس إلى نفسه فحدّثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون»^(٦).

١١- وقال زين العابدين ×: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها: أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحبّ الرجل قومه، ولكنّ العصبية أن يُعين قومه على الظلم»^(٧).

وهكذا نجد الأئمة يؤكّدون على العلاقات الحسنة، والتعامل الإيجابي، وعدم الغرق في نزاعات غير عمليّة، وعدم الإساءة والإهانة، والدخول في قلب العمل الاجتماعيّ، وعدم الاعتزال نتيجة الإيمان برأي يخالف الأكثرية من

الناس، والسعي للتأدّب بأدب الأئمة، وعدم الغرور العلمي، وعدم جعل الاختلاف في الرأي سبيلاً للتدابّر، والدخول في جماعة المسلمين، واجتناب العصبية واجترار حبّ الناس، وأمثال ذلك.

نعم، لم تستمرّ تلك الحالة النيرة كثيراً، فسرعان ما ساد التعصّب والانغلاق، وتقليد المجتهدين لغيرهم «حتى آل بهم التعصّب إلى أنّ أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكلّ وسيلة من التأويلات البعيدة، نصرةً لمذهبه ولقوله»^(١).

ونقل الفخر الرازي عن أكبر شيوخه أنّه قال: «قد شاهدت جماعة من مقلّدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوها، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليّ كالمتعجّب، يعني: كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أنّ الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حقّ التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا»^(٢).

وقد ذكر الشيخ أسد حيدر أقوالاً أخرى من هذا القبيل^(٣). وربّما كان إغلاق الاجتهاد وحصر المذاهب نتيجةً وعاملاً على المزيد من ذلك.

ولم يقتصر الأمر على هذا الحدّ، وإنّما انتقل إلى مرحلة نقل الصراع من مرحلة (الخطأ والصواب) إلى مستوى (الكفر والإيمان)، الأمر الذي نقل الخلاف إلى الجماهير العريضة، وتسبّب في كوارث يشيب لها الوليد.

واشتدّ الهجوم على العلوم العقلية والمتعاطين بها، سواء بين الشيعة^(٤) أم السنة^(٥).

وراحت التهم تطال المذاهب والآراء فتصفها بالهالكة، وأنها مجوس الأئمة،

وأمثال ذلك، وزاد الخلاف على الفرعيات، والانشغال بها، وهكذا^(١).
 وزاد تدخل الحكّام - وكانت البلاد قد تحوّلت إلى إقطاعيات كبيرة - الطين
 بلة، ومع كلّ جائحة من عداوةٍ وغضب، أسرفت تهم النبذ والتحريم والتكفير
 والرمي بالباطل ضدّ الآخر، مقدّمةً للقتل وإحراق الممتلكات وإتلاف كتب
 أصحاب المذاهب ومؤلّفات فقهاءها ونشر الرعب والكرهية.
 وفي تاريخ الجائحات، تكرّرت همجية البطش مع كلّ سلطةٍ جديدة، مرّةً
 ضدّ الشيعة، ومرّةً ضدّ السنّة..^(٢).

وراح الفرد يحاسب على مذهبه؛ فعندما بنى السلاجقة المدرسة النظامية في
 قبال بناء الأزهر من قبل الفاطميين، اشترطوا أن يكون المدرّسون والتلامذة
 شافعيين، ولذا منعوا الفصيحى الاسترآبادي، وهو تلميذ عبدالقاهر الجرجاني،
 من التدريس رغم علمه الجمّ بالعربية^(٣).

وأصدر شهاب الإسلام عبدالرزاق رئيس المدرسة النظامية بنيسابور أمراً
 بقتل الفتال النيسابوريّ صاحب «روضة الواعظين».

وعند استعراض عوامل جرأة التتار على مهاجمة المسلمين، نجد أنّ النزاع
 بين الدولة الخوارزمية والدولة العباسية يشكل عاملاً مهماً بالإضافة لدور
 الصراع المذهبيّ الرهيب؛ يقول المؤرّخ ابن أبي الحديد:

«فإنهم [أي: التتار] نزلوا عليها [أي: على إصبهان] مراراً في سنة سبع
 وعشرين وستمائة، وحاربهم أهلها وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة، ولم يبلغوا
 منها غرضاً. حتى اختلف اهل إصبهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وهم
 طائفتان: حنفيّة وشافعيّة، وبينهم حروب متّصلة، وعصبية ظاهرة. فخرج قوم
 من أصحاب الشافعيّ إلى من يجاورهم ويتأخّهم من ممالك التتار، فقالوا لهم:
 اقصدوا البلد حتى نسلمه إليكم.. فنزلوا على إصفهان في سنة ثلاث وثلاثين
 (وستمائة) المذكورة، وحاصروها، فاختلف سيفا الشافعية والحنفية في المدينة،

حتى قتل كثير منهم، وفتحت أبواب المدينة، فتحتها الشافعية على عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوا الحنفية ويعفوا عن الشافعية، فلما دخلوا البلد بدأوا بالشافعية، فقتلواهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفية، ثم قتلوا سائر الناس، وسبوا النساء، وشقوا بطون الحبالى، ونهبوا الأموال، وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا إصبهان، حتى صارت تلوّاً من الرماد»^(١).

وهكذا دامت هذه النزاعات حتى أدّت إلى سقوط بغداد بعد زمنٍ قصير. وهذه النزاعات تقودنا إلى تذكّر نزاعات طائفة أخرى أدّت إلى تدخل الصليبيين الذين صنعوا العجائب والفواجع في العالم الإسلاميّ. يقول أحد المؤرّخين الغربيين لهذه الحروب:

«على أنّ الضعف لم يلحق سوريا فحسب، بسبب ما حدث من انفصالها عن جسم الإمبراطورية السلجوقية، بل أيضاً بسبب ما انتابها من انقسامات في الداخل، وما تعرّضت له من هجمات الخليفة الفاطميّ بمصر من الخارج. ففي سنة ١٠٩٥، تولّى الأخوان، رضوان ودقاق، حكم حلب ودمشق على الترتيب، غير أنّ الحرب لم تلبث أن شبت بينهما، واشترك ياغي سيان أمير أنطاكية فيما وقع بينهما من المنازعات، ولم يتوقّف رضوان وياغي سيان عن مهاجمة دقاق إلّا حين بلغت الأبناء باقتراب الصليبيين، فأسرع ياغي سيان إلى أنطاكية، في خريف سنة ١٠٩٧.

وفي تلك الأثناء، لم يتوان الفاطميّون في الإفادة من هذه المنازعات؛ إذ إنّ انشقاقاً دينياً كبيراً كان يفصل الخليفة الفاطميّ في القاهرة، وزعيم المذهب الشيعي، عن الخليفة العبّاسيّ ببغداد، وزعيم المذهب السنّي. وهذا الاختلاف يجوز مقارنته، بما كان بين الكنيستين اليونانية واللاتينية من نزاع. بل إنّه يفوقه، بما غلب عليه من طابع الاختلاف السياسيّ. وكيفما كان الأمر، فإنّ هذا

الاختلاف أدى إلى عرقلة حركة المسلمين، مثلما أدى ما بين ألكسيوس واللاتين من الحسد والحقد، إلى عرقلة حركة الحرب الصليبية. وأدرك الأمراء الصليبيون تمام الإدراك الفجوة التي تفصل بين خليفة القاهرة عن الأمراء السنيين في سوريا، وسعوا عن طريق مبعوثيهم إلى أن يتصلوا بخليفة القاهرة، أملاً في أن يظفروا، بفضل مساعدته، ببيت المقدس، التي حكمها وقتذاك نيابةً عن الترك سقمان ابن الأمير أرتق^(١).

غير أن الخليفة (الفاطمي) رأى أن ينفرد بالعمل لنفسه، واستغل ما وقع بين أمراء سوريا من حروب، وما أثاره زحف الصليبيين من الخوف والرعب، فاستولى على بيت المقدس (أغسطس سنة ١٠٩٨) على الرغم من أن زعماء الحملة الصليبية لم يُحرزوا شيئاً من النجاح في استغلال ما وقع من منازعات بين المسلمين على النحو الذي يتفون، فالواقع أن ما أصابوه من النجاح إنما يرجع - إلى حد كبير - إلى هذه المنازعات^(٢).

وكذلك لنا أن نقرأ قول ابن خلدون عن عهد المستعصم بالله: «وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة، وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين»^(٣).

كما لنا أن نتذكر أن الصراع بين الصفويين والعثمانيين - وكل منهما يتمرس خلف خلفية مذهبية - دام أربعة قرون وأورث الأمة خراباً ودماراً، وأضعفها أمام عدوها الغربي.

هناك نصّ للشيخ الطوفي من أئمة الحنابلة، ذكره للاستدلال على مبدأ (المصالح المرسله)، مقدماً إياه على النصوص والإجماع؛ لأنه رأى أن النصوص متعارضة، والاجتهادات متضاربة، والأحاديث الموضوعية كثيرة. وفي هذا السياق يذكر بعض أنماط الصراع في تلك العصور فيقول:

«إن المالكية استقلت في المغرب، والحنفية بالمشرق، فلا يقار أحد المذهبيين

أحداً من غيره في بلاده إلا على وجهٍ ما، وحتى بلغنا أن أهل جيلان من الحنابلة إذا دخل اليهم حنفي قتلوه، وجعلوا ماله فيئاً، حكمهم في الكفار، وحتى بلغنا أن بعض بلاد ما وراء النهر من بلاد الحنفية كان فيه مسجد واحد للشافعية، وكان والي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرى ذلك المسجد فيقول: أما أن هذه الكنيسة أن تُغلق؟ فلم يزل كذلك، حتى أصبح يوماً وقد سُدَّ باب ذلك المسجد بالطين واللبن، فأعجب الوالي ذلك»^(١).

والتاريخ يحدثنا عن صورٍ أخرى معبرة عن الحالة المزرية من التعامل الطائفي، من قبيل:

هجوم الغوغاء على بيت الشيخ الطوسي وإحراق مكتبته عام ٤٤٩^(٢).
والهجوم على مساجد الشيعة عام ٤٨٣ وإتلاف الكتب فيها^(٣).
وحادثة منع دفن ابن جرير الطبري واتهامه بالإلحاد مشهورة.
والاتهامات وأنماط التكفير تزرعها كتب التاريخ.
والروايات الموضوعة التي تسفّه المذاهب كثيرة.

:

وبنظرة عامة، نستطيع القول: إن أهم العوامل التي نقلت الحالة المذهبية إلى الحالة الطائفية هي:

أولاً: تأمر أعداء الأمة لخلق الظروف الملائمة لتمزيقها بشتى الأساليب، من الدس والوضع والتحريك وخلق الفتن، وهو تأمر مستمر على مرّ العصور، ومنذ صدر الإسلام وحتى اليوم؛ إذ نلاحظ الاستعمار الغربي يعمل خلال فترات الاحتلال، وخصوصاً في الفترة التي احتلّ فيها العالم الإسلامي كله تقريباً، وقضى على آخر دولة إسلامية شمولية في الربع الأول من القرن الميلادي العشرين، لاحظنا أنه اعتمد سياسة ثلاثية تستهدف:

١- إبقاء الأمة على تخلفها العلمي والاقتصادي والثقافي والتعليمي وغير ذلك.

٢- إشاعة الحالة العلمانية الغربية على الروح الإسلامية في العالم الإسلامي، إلى جانب تحريك النزعات القومية والعنصرية، ولكن سرعان ما فشل مشروعه، ممّا دعا بعض الكتاب المعاصرين لتسميته بـ «النصر سريع الزوال للعلمانية (١٩٢٠ - ١٩٧٠)».

٣- تمزيق العالم الإسلامي إلى دولٍ وشعوبٍ متفرقة، وتحريك العنعنات المذهبية الجغرافية والقومية والعنصرية، حتى التاريخية، كلّ ذلك، خوفاً من هاجس الوحدة الإسلامية الذي يجري الحديث عنه والتخوف منه باستمرار من قبل القادة والمفكرين والكتاب الغربيين، ويتمّ التنظير لصراعٍ دائمٍ مع العالم الإسلامي، على أساسه تقول الكاتبة «هانتر» في مقدمة كتابها:

«قامت الرواية التي ألفها جون بوشان، وكان لا يزال رائداً في استخبارات الجيش البريطاني عام ١٩١٦، على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها، إذا ما اندلعت، أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى في غير مصلحة القوّات الحليفة».

كتب بوشان في روايته، العباءة الخضراء The Green Mantle:

«الإسلام عقيدة قتالية؛ إذ لا يزال ذلك الشيخ يقف في المحراب حاملاً القرآن باليد، والسيف المشهور في اليد الأخرى. فإذا افترضنا أنّ هناك أملاً بالخلاص يعيد الروح حتى إلى الفلاحين في المناطق النائية ويدغدغ أحلامهم بالجنة، فماذا سيحدث يا صديقي؟ ستفتح جهنّم أبوابها في هذه الأرجاء عمّا قريب. لديّ تقارير من العلماء في كلّ مكان؛ صغار التجار في جنوب روسيا، وتجار الأحصنة في أفغانستان، والتجار التركمان، والحجاج في الطريق إلى مكّة، والأشراف في شمال أفريقيا، ولاسي جلود الغنم من المغول، والفقراء الهندوس، والتجار اليونانيين في الخليج، فضلاً عن القناصل المحترمين الذين يستخدمون

الشفرة. هؤلاء جميعاً يجمعون في رواياتهم التي يرسلونها إليّ على الأمر نفسه: أنّ الشرق في انتظار إشارة إلهية».

بعد ذلك بنحو ثلاثة أرباع القرن، عبّر المعلق السياسي الأميركي «تشارلز كراوثر» عن مخاوف مماثلة عندما قال:

إنّ الولايات المتحدة تواجه خطرين جيوسياسيين محتملين، يتأتى أحدهما من المنطقة نفسها التي ذكرها «جون بوشان» في روايته، فهو يتخذ «شكل عالم إسلامي متّحد تحت راية أصولية على النمط الإيراني، تخوض صراعاً وجودياً ضدّ الغرب الكافر»^(١).

وهي من أهمّ النقاط التي ركّز عليها المرحوم السيّد جمال الدين في خطّته العامة لتحقيق نهضة إسلامية كبرى.

وها نحن نشهد دور اليد الأجنبية الممتدّة لتحرك النزاعات الطائفية في باكستان والعراق وأفغانستان ولبنان وسائر البلاد التي يتعايش فيها أتباع المذاهب. وربّما استخدمت وسائل الإعلام والأقلام والألسنة المأجورة لتحقيق الهدف.

ثانياً: المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام.

وهو أمر شهدناه في عصور الظلام الماضية، ونشهد اليوم أيضاً، حيث يستغلّ البعض نفوذه ليشير البسطاء، بل ربما بعض المتتبيين لأهل العلم؛ لتحريك الإحن والنزاعات الطائفية.

يقول أحد الكتّاب المؤرّخين واصفاً بعض حروب الطوائف بتحريك من السلطات الحاكمة:

«وكانت لا تمرّ سنة دون عنف بين ما وُصف بفرق السنة وفرق الشيعة في سائر أرجاء المنطقة العربية الإسلامية، فقد تولى الترك بأنفسهم عام ١٢٤٩ هـ

عمليات القمع الطائفي ضد الشيعة... وكان أكثر الضحايا من منطقة (الشاكرية) ببغداد، وبتيجتها هُوجم السجن المركزي، وأُحرق أحد الجسرين الواصلين بين جانبي الكرخ والرصافة).

ويستمر في الحديث عن دور حكومات الطوائف في تحريك الفتن في مصر، وعن الاقتتال الطائفي بعد قيام حركة الزنج في سواد جنوب العراق، وامتداد النزاع إلى المدينة المنورة وإلى طبرستان، وتواصلت إلى شمال أفريقيا وهكذا^(١). وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذه الظاهرة، ك (مقدمة ابن خلدون) وغيرها.

ويكفي أن نذكر بدور النزاع العثماني الصفوي في خلق الفتن الطائفية الداخلية، وإضعاف الأمة الإسلامية، مما جرّ - بالتالي - إلى أن تفقد شوكتها وعزتها أمام التحديات.

فلقد سيطرت الدولة العثمانية (١٢٨٠ - ١٩٢٤م) على الشام وأجزاء من العراق، إضافةً إلى مناطق في شمال أفريقيا، وسيطرت الدولة الصفوية (١٥٠٦ - ١٧٣٤م) على إيران. وراحا تتنافسان وتؤكّدان هويتهما المذهبية، مما أفرز نزاعاً طائفيًا مقيتاً سببه: نزاع المصالح، ونهم الغزاة والقبائل والمستبدين، لا المذاهب، وشهدنا استعار موجة التكفير والقتل وإهانة المقدسات في كلا الطرفين.

ونحن إذ نشير إلى هذا النزاع، لا ننكر الخدمات التي قدّمناها للحضارة الإسلامية، ولكننا ننعي عليها استخدام النزعات المذهبية لأغراضٍ سياسية. وإذا كنّا ننكر أيّ إكراهٍ أو عنفٍ للإجبار على تغيير المذهب، فإننا ننكره على الطرفين معاً، وبمستوى واحد.

ثالثاً: التكفير:

وتعدّ هذه الظاهرة من أهمّ العقبات بوجه التقريب. ورغم أنّ الإسلام وضح تماماً الحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان وحدّدها بدقّة، فإنّ هذه الحالة الغريبة حدثت بقوة.

فعن عبادة بن الصامت قال رسول الله :

«من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». وفي رواية: «أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية أيّما شاء»، وروى الشيخان والترمذي: «من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار»^(١).

وروى سماعة عن الإمام الصادق × قوله: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والتصديق برسول الله، به حُقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواarith، وعلى ظاهره جماعة الناس»^(٢).

وربّي الرسول الكريم ' أتباعه على التعامل العقلانيّ والحوار المنطقيّ والقبول بالتعددية الاجتهادية إذا كانت على أسس شرعية منضبطة، إلا أنّ هذه الظاهرة حدثت في ظلّ ظروف عصيبة في مطلع الأمر، كما في قضية الخوارج، وإني أعتقد أنّ أهمّ ما قاد لهذه الظاهرة هو ما يمكن تسميته بمؤاخذة الآخر بلوازم كلامه، رغم أنّ هذا الآخر لا يؤمن بهذه الملازمة مطلقاً.

فقدماً كفر الخوارج عليّاً ×، معتقدين أنّ لازم موقفه من التحكيم كفره، والعياذ بالله. فقد ذكروا أنّه شكّ في نفسه حين قال للحكّمين: «انظرا، فإن كان معاوية أحقّ بها فأثبتناه، وإن كنتُ أولى بها فأثبتاني»، قالوا: «فإذا هو شكّ في نفسه ولم يدرِ أهو أحقّ أم معاوية، فنحن فيه أشدّ شكّاً». وردّ الإمام عليهم بقوله: «فإنّ ذلك لم يكن شكّاً منّي، ولكن أنصفتُ في القول، قال الله تعالى: {وَلَيْتَآ أُولِيَآكُم لَّعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سبأ: ٢٤]، ولم يكن ذلك شكّاً

وقد علم الله أن نبيّه على الحقّ^(١).

وبعد عصر الأئمة، دبّت هذه الحالة بوتيرةٍ أوسع، وذلك كما لاحظناه في الاختلاف حول (زيادة الصفات على الذات الإلهية) و(التحسين والتقبيح العقلين)، حيث رأى الطرفان المتنازعان أن الطرف الآخر يقوده رأيه إلى الكفر، وهكذا نجد هذه الظاهرة في قضايا كثيرة، من قبيل: (التوسّل) و(الشفاعة) و(البداء)، وحتى في مثل (الاستحسان) و(القياس) و(المصالح المرسلة) وغيرها. في حين لو احتكم الجميع إلى الحوار المنطقيّ، لاكتشفوا - على الأقلّ - لدى الطرف الآخر ما يبرّر له الإيمان بهذه القضية أو تلك، وربّما اكتشفوا أن النزاع لفظيّ لا حقيقة له.

وزاد الجهل والتعصّب الطين بلّةً حيث يدخل في عمليّة الفتوى من ليس أهلاً لها فيفتي بغير ما أنزل الله. وهذا ما شهدناه بكلّ وضوح في الحركات التكفيرية في عصرنا، ممّا أدّى إلى سفك الدماء البريئة على نطاقٍ واسع، باسم الدفاع عن الدين والأمة، وهما من هذه الحالة براء.

رابعاً: التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار؛ فإنّه لا يحقّق الجوّ الهادئ المطلوب، ويدفع لنوع من التهرّب أو المماطلة أو تلمّس العثرات، ممّا يمنع من تحقّق النتيجة المطلوبة. وهذا ما شهدنا نظيره في عمليّات الحوار بين أتباع الأديان، نتيجة ما يحمله كلّ طرفٍ من تراكماتٍ ذهنيّةٍ عن الآخر، فالطرف المسيحيّ - مثلاً - يحمل أحقاده الصليبيّة وإجاءات المستشرقين بما يسمّونه بـ (الهرطقة الإسلاميّة)، وما يدور في نفسه من هواجس الصحوة الإسلاميّة التي تنافس مشروعه في السيطرة، في حين يحمل الطرف الإسلاميّ سوابق ذهنيّة كبيرة عن خدمة التبشير المسيحيّ للاستعمار على مدى قرون.

ولكنّ العمل الجادّ والتوجّه للتعليمات الإسلاميّة الهادية والداعية لحسن

الظنّ في الأخ المسلم يمنع من أن يلعب هذا العامل دوره في المنع من التقريب، خصوصاً إذا تمّ على مستوى العلماء العاملين الذين خبر بعضهم بعضاً في مجالات العلم والإخلاص والعمل في سبيل الأمة بمجموعها.

خامساً: التهويل والتضخيم واستحضار الماضي والتهجّم على المقدّسات وعدم احترام الآخر.

وكلّ واحدٍ من هذه الأمور يمكن أن يشكّل بنفسه مانعاً من تحقّق الحوار المطلوب، وبالتالي: الوصول إلى التقريب، وقد وجدنا النصوص الإسلامية تتضافر في المنع من هذه الأمور:

فقوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خَمَلٍ ذَرْبٍ وَفَرَدَيْ نَمَرٍ نَفَقَةً رَوْحَ الْبَهِيمِ مِنَ الْجِنَّةِ } [سبأ: ٤٦]، يمنع من الحوار في الأجواء الانفعالية المصطنعة.

وقوله تعالى: { قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [سبأ: ٢٥]، يمنع من الانشغال بالماضي ويفرض احترام الآخر، وذلك - أيضاً - واضح في الآية التي تنهى حتى عن سبّ آلهة المشركين.

سادساً: أضف إلى كلّ ذلك أنّ اختلاف مناهج الاستدلال وطرق الاستنباط يمنع من التقارب في النتائج، فينبغي السعي إلى ما يأتي:

- ١- الفراغ من المفروضات السابقة قبل بدء عملية الحوار.
 - ٢- الاتفاق على منهجٍ واحدٍ للاستنباط، وليس هذا الاتفاق أمراً صعباً.
 - ٣- تحقيق محلّ الحوار بدقة؛ لئلا ينظر كلّ طرف إلى قضية ومفهوم لا ينظر إليه الطرف الآخر.
- وهناك موانع أخرى من قبيل:

- ١- اعتبار القول الشاذّ علامةً على المذهب كلّهُ.
 - ٢- أخذ تصوّرات المذهب من أقوال خصومه.
 - ٣- دخول من ليس أهلاً في عمليّة الحوار.
 - ٤ - اتّباع الأساليب الملتوية للظفر بالآخر.
- وغير ذلك، ممّا لا يسعنا المجال للتعرّض له، ولكن يجب حذفه حتى نصل إلى التقريب المطلوب، بل الضرورة في عالمنا الملتهب.

* * *

الهوامش:

- (١) الصدوق، معاني الأخبار: ٤٣، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، ١٣٧٩ هـ، قم.
- (٢) المصدر نفسه: ص ٥٩.
- (٣) الذهبي، تاريخ الإسلام ٢٨: ٣٣٤، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، ط دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ، بيروت.
- (٤) السبكي، الشيخ تاج الدين تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى ٣: ٥١.
- (٥) راجع: الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، عدّة الأصول ١: ١٤٩، تحقيق محمد رضا الأنصاري القمي، ط ستارة، قم.
- (٦) في بحثه المقدّم إلى ندوة الفقه الإسلاميّ بمسقط، شعبان ١٤٠٨ هـ.
- (٧) انظر: مصادر التشريع: ص ٨٠.
- (٨) العاملي، الشيخ البهائي، الحديقة الهلالية: ص ٣٦، تحقيق السيّد علي الموسويّ الخراساني، ط مؤسسة آل البيت ^٨ لإحياء التراث، قم المشرفة.
- (٩) الكفاية في علم الرواية: ص ١٢٥.
- (١٠) راجع: الإجازة الكبيرة، للعلامة الحليّ.
- (١١) الميرزا الأفندي، رياض العلماء ٤: ١٨٤.
- (١٢) موسوعة ابن إدريس ١: ٥٣، تحقيق السيّد الخراسان.

- (١٣) العلامة الحليّ، الحسن بن يوسف، منتهى المطلب ١: ٤، مقدّمة المؤلّف، ط مجمع البحوث الإسلامية، ١٤١٢هـ، مشهد.
- (١٤) العامليّ، السيّد محسن الأمين، أعيان الشيعة ١٠: ٦٢، ط دار التعارف، ١٤٠٦هـ، بيروت.
- (١٥) ن. م. وذكر ذلك الحرّ العامليّ في أمل الآمل ١: ١٠٣، ط مكتبة الأندلس، بغداد.
- (١٦) المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ١٠٧: ١٩٠ - ١٩١، ط دار إحياء التراث العربيّ، ١٤٠٣هـ، بيروت.
- (١٧) ن. م. ص ١٨٣.
- (١٨) رياض العلماء ٥: ١٨٥.
- (١٩) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ٨: ٢٩٩، الباب ٥ من أبواب صلاة الجماعة، ح ١، ط مؤسسة آل البيت ^٨ لإحياء التراث، ١٤١٤هـ، قم.
- (٢٠) الشهيد الأوّل، محمّد بن مكّي العامليّ، الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة ١: ٢٢٤، ط مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- (٢١) العامليّ، أعيان الشيعة ٧: ١٤٩ - ١٥٠، مصدر متقدّم.
- (٢٢) المحدّث القميّ، الشيخ عبّاس، الكنى والألقاب ٢: ٣٨٢ - ٣٨٣، مكتبة الصدر، طهران.
- (٢٣) الميرزا الأفنديّ، رياض العلماء ٢: ٣٦٥.
- (٢٤) العامليّ، أعيان الشيعة ٧: ١٤٩، مصدر متقدّم.
- (٢٥) راجع - مثلاً -: الحرّ العامليّ، أمل الآمل ١: ٩٠، والأفنديّ، رياض العلماء ٢: ٣٦٥، والخوئيّ، السيّد أبو القاسم، معجم رجال الحديث ٧: ٣٧٨.
- (٢٦) كما ذكر ذلك المحدّث الجزائريّ في كتابه: الجواهر الغوالي في شرح اللثالي، نقلاً عن بعض أولاد الشهيد الثاني. راجع: مقالة المحقّقين لكتاب (منية المريد) ص ٤٣.
- (٢٧) الأفنديّ، رياض العلماء ٢: ٣٦٥.
- (٢٨) العامليّ، أعيان الشيعة ٧: ١٥٧.
- (٢٩) الخطيب البغداديّ، تاريخ بغداد ١: ١٤٥، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، بيروت.
- (٣٠) المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٥١: ٣٥٧، مصدر متقدّم.
- (٣١) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٢: ٦، الباب ١ من أبواب أحكام العشرة في السفر والحضر، ح ٢، مصدر متقدّم.
- (٣٢) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٢: ١٦٧، الباب ١٠٨ من أبواب أحكام العشرة في السفر

والخضر، ح ١.

(٣٣) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٦: ١٦٠، الباب ١٤ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما، ح ٣.

(٣٤) المجلسي، بحار الأنوار ٨٥: ١٣.

(٣٥) العلامة الطباطبائي، السيّد محمد حسين، تفسير الميزان ٧: ١٤٩، ط منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.

(٣٦) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٢: ٧، الباب ١ من أبواب العشرة في السفر والخضر، ح ٥.

(٣٧) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٢: ٦، الباب ١ من أبواب العشرة في السفر والخضر، ح ٣.

(٣٨) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٦: ٢٢٠، الباب ٢٧ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما، ح ٤.

(٣٩) الكليني، ثقة الإسلام، محمد بن يعقوب، الكافي ٢: ٣٠٩، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة الأولى، ط ١٣٦٥ هـ ش.

(٤٠) شهاب الدين، أبو شامة، مختصر المؤمل: ص ١٤.

(٤١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ١٦: ٣٧، في تفسير الآية ٣١ من سورة التوبة.

(٤٢) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ٣: ١٩٢، ط مجمع أهل البيت ^٨.

(٤٣) راجع: الصدر، الإمام السيّد محمد باقر، المعالم الجديدة لعلم الأصول.

(٤٤) راجع: مقال الأستاذ الطويل في كتاب (فضيّة الفلسفة): ص ٢١١.

(٤٥) راجع: كتاب (قصّة الطوائف) للدكتور الأنصاريّ، فصل الحقبة الطائفية، ص ١٨٥.

(٤٦) ن. م. ص ٢١٩.

(٤٧) الحمويّ، ياقوت، معجم الأدباء ١٥: ٦٧.

(٤٨) المعتزليّ، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٨: ٢٣٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت.

(٤٩) حدث في وقت واحد المفاوضات والقتال أثناء الحرب الصليبيّة الأولى. وجرى ذلك أيضاً في الحرب الثالثة والحرب السادسة. ونلاحظ ما قام به العلمانيّون من نشاطٍ في توجيه سير الحرب الصليبيّة. فعلى الرغم من أنّ هذه الحرب قامت على أساسٍ دينيٍّ، فإنّها اتخذت في سيرها صفةً دنيويّةً. ومن الأمور المتناقضة أنّ حملةً دينيّةً أسهمت في نموّ الحافظ الدنيويّ، وهيأت للعلمانيّين أن يفلتوا من ذلك الميل نحو التيقراطيّة البابويّة، وكان ذلك واضحاً في زمن بابويّة جريجوري السابع.

(٥٠) المؤرّخ إرنست باركر في كتابه (الحروب الصليبيّة)، الفصل الثالث، ترجمة الدكتور الباز

العريني، وقد قدّم له بمقدّمة جيّدة.

(٥١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ٣: ٥٣٦، ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١م، بيروت.

(٥٢) رسالة الطوفي: ص ١١٦.

(٥٣) ابن الجوزي، المنتظم ١٦: ١٦، سنة ٤٤٩.

(٥٤) الذهبي، تاريخ الإسلام ٣٣: ١٢، مصدر متقدّم.

(٥٥) شيرين هنتر، مستقبل الإسلام والغرب: ص ١١١، تعريب زينب شوربا.

(٥٦) الدكتور فاضل الأنصاري، قصّة الطوائف: ص ٢٣٣.

(٥٧) ذكرتها الصحاح في أوّل ما ذكرته من روايات، وجمعها صاحب (جمع الفوائد) في مطلع كتابه.

(٥٨) الكليني، الكافي ٢: ٢٥، مصدر متقدّم.

(٥٩) الطبرسي، ثقة الإسلام، الاحتجاج ١: ٢٧٧-٢٧٨، تعليق السيّد محمّد باقر الخراسان، ط دار

النعمان للطباعة والنشر، ١٩٦٦م، النجف الأشرف.

الأمة الإسلامية

وضرورة التقريب بين المذاهب ومواجهة التحديات

□ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح (*)

التمهيد

قد يكون واضحاً أنّ الأمة الإسلامية ترجو وتأمل أن تنطلق لتؤدي دورها في حركة الحياة، وقد أُصيبت الأمة الإسلامية بهزّات، كما أنّها تمتلك الوعي الذي يؤهلها لاستقبال جذوة الاتّقاد، حتى يعود المسلمون إلى عزّهم ومجدهم. ولا يخفى: أنّ هناك معايير وضوابط تشير إلى قرب ظهور الوعي، والأمة الإسلامية مؤهلة في هذا العصر لأن تساهم باقتدار في صنع ما تحتاجه الإنسانية ويجمع الأمة، وإذا كان الاغتراب الزماني والاغتراب المكاني من المعوقات التي أصابت الأمة، فإنّ الأمة الإسلامية تملك فلسفةً حياتيةً بالرجاء والأمل، تعينها هذه الفلسفة لاستقبال عوامل النصر.

وقد ألمّ بالأمة الإسلامية أحداث مختلفة تعدّ عند الباحثين والدارسين: تمهيداً لظهور عوامل النهوض ومواجهة التحديات، والرؤية المستقبلية تشير: إلى أنّ هذه الأمة مقبلة بالوعي إلى بناء شخصيتها بناءً لا يطغى عليه الانفعال، ولا

(*) أستاذ العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر وقطر وأمّ القرى وعضو المجامع العلمية العالمية.

يسيطر عليه التفكير المادّي، ولا الانحراف الفكريّ المتأّي من سيولة العقل، وامتداد اللامعقول.

وإذا كانت المجتمعات الإسلاميّة عانت من التيارات والمذهبيّة البغيضة، ممّا شغل الناس عن المواكبة العلميّة والعمل والإنتاج، فإنّ هذه المجتمعات سوف تسعد بظهور الوعي لتواجه أعداء الأُمّة.

ولاشكّ أنّ المؤتمرات والندوات التي تعقدها الجامعات العلميّة، والمراكز الثقافيّة، تبصّر الناس بالمواقع، وتعرّف على طريق الصواب، وإنّ أُمّة تخطو إلى الأمام لا بدّ وأن تنطلق بقوة، ووعي، وفهم.

وإنّ ما أصاب الأُمّة الإسلاميّة (غزو فكريّ) مقصود، يعمل لإذابة الشعوب، وانسلاخها عن عقائدها، ومذاهبها، وحضاراتها، لتصبح الأُمّة مسخاً شائهاً تابعاً لغيره، يؤمر فيطيع..

ولقد عمل هذا الغزو على تضليل المجتمعات الإنسانيّة، وخداعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق، وتشويه الحقيقة، عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول، والدخول إلى المخاطب من نقطة الضعف، والاستغلال لإغرائه، والإيقاع به، والإيحاء إليه بسلامة الفكرة، وصحّة المفهوم المزيّف الذي تحمله كلمات الغزو.

ولكمّ تهاوت أممّ وشعوب وأجيال، وتساقطت في هاوية الضلال والانحراف، والفساد الخلقيّ والعقديّ والاجتماعيّ، بسبب تصوّرات (الغزو) المزخرفة الخدّاعة، التي يرقص السدّج والجّهال على نغم إيقاعها، ويفتنون بسماعها، وأناقة ظاهرها. ولكمّ عانى الإنسان والشعوب من أولئك الذين يصنّعون (الغزو الفكريّ) ويصدّرونه في موجاتٍ تقتحم الديار والبيوت.

لقد قيّدت الإنسانيّة إلى هاوية الضلال والانحراف. ولقد كان للغزو الفكريّ في كلّ جيل، وفي كلّ عصر، دوره التخريبيّ في حياة الناس، إلّا أنّ

البشريّة لم تشهد في مرحلةٍ من مراحل حياتها وضعاً كان فيه للغزو الفكريّ خبراء، ومتفلسفون، وأجهزة، ومؤسّسات، كعصرنا الحاضر هذا الذي اتخذ فيه الغزو الفكريّ صيغة الفلسفة والنظرية والمبدأ الذي يعتنقه الأتباع، ويدافعون عنه، وينقادون له..

ومّا لا يُنكر: أنّه لم يواجه دين من الأديان، ولا عقيدة من العقائد، مثل ما واجه الإسلام من تحدّيات، فقد واجه الإسلام منذ فجر تاريخه تحدّياتٍ عنيدةٍ من مخالفيه، فقد واجه المشركين في مكة، واليهود في المدينة، والمذاهب المبدعة والمكفّرة في عصورٍ مختلفة. ثمّ لما فُتحت الأمصار وانتشر الإسلام فيها، واجهت الثقافة الإسلامية أفكاراً شعوبيةً إلهادية، وفلسفاتٍ وثنية، كالفلسفات المتشدّدة والمذهبية وغيرها.

ولكنّ الإسلام ثبت أمام هذه التحديّات وانتصر عليها، فقد كان المجتمع الإسلاميّ آنذاك يعي الإسلام وعياً كاملاً، ويدرك أخطار الأفكار والاتّجاهات التي كان يطرحها الفلاسفة والزنادقة وما تحمله من شبهات، وهي في جملتها تعمل على نقل الفكر من مجال أصالة الفطرة، ومنطق العقل الصحيح، وطريق التوحيد، وطابع الإيمان، إلى مجال الإلحاد والإباحية. غير أنّ المجتمع تصدّى لهم، وأخذ يكشف زيفهم، ويبين ما انطوت عليه قلوبهم من كيد، ولم تستطع أن تنال من الإسلام عبر العصور.

على أنّ من أخطر هذه التحديّات هي تلك التي تواجهها المجتمعات الإسلامية اليوم، وهي تحدّيات تتمثّل بالمواجهة السافرة حيناً، والمستترة أحياناً، هذا التحديّ الذي يتمثّل حالياً بالغزو الغربيّ والمذهبيّ^(١).

أولاً: العداء الصليبيّ للإسلام والمسلمين:

والباحثون يدركون أنّ أوروبا اكتشفت الفكر الإسلاميّ في مرحلتين من مراحل تاريخها فكانت مرحلة القرون الوسطى قبل وبعد «توماس إلكويني»^(١) تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها، بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلاديّ.

وفي المرحلة العصريّة والاستعماريّة، فإنّها تكتشف الفكر الإسلاميّ مرّة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافيّ، بل من أجل تعديل سياسيّ لوضع خططها السياسيّة، حيث تكون مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلاميّة من ناحية أخرى، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلاميّة^(٢).

ويذكر المؤرّخون أنّ الجيوش الأوروبيّة الصليبيّة لما هاجمت بلاد الإسلام كانت مدفوعةً إلى ذلك بدافعين:

الدافع الأوّل: دافع الدين، والعصبية العمياء، التي أثارها رجال الكنيسة، في شعوب أوروبا، مفترين على المسلمين أبشع الافتراءات، محرّضين النصارى أشدّ تحريض على تخليص مهد المسيح من أيدي الكفار (أي: المسلمين)، فكانت جمهرة المقاتلين من جيوش الصليبيين، من هؤلاء الذين أخرجتهم العصبية الدينية من ديارهم عن حسن نية، وقوة عقيدة، إلى حيث يلاقون الموت والقتل والتشريد، حملة بعد حملة، وجيشاً بعد جيش.

الدافع الثاني: دافع سياسيّ استعماريّ، فلقد سمع ملوك أوروبا بما تتمتع به بلاد المسلمين من حضارة وثروات، فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما في نفوسهم إلّا الرغبة في الاستعمار والفتح، وشاء الله أن ترتدّ الحملات الصليبيّة كلّها مدحورة مهزومة^(٣).

ويكاد يكون معروفاً أنّ أوروبا شنت ثمان حملاتٍ صليبيّة على الشرق

الإسلامي، وقد بدأت الحروب الصليبية منذ منتصف القرن الحادي عشر، واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر، أي: ما يقرب من مائتين وخمسة وعشرين عاماً في ثماني حملاتٍ من الحملات المدججة بالعدد والمعدات.

ويصف كاهن مدينة (لوبوى ريموند واجيل) سلوك الصليبيين حينما دخلوا على القدس، فيقول: «حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قوماً على أسوار القدس وبروجها، فقطعت رؤوس بعضهم، فكان أقل ما أصابهم، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار، وحرقت بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذابٍ طويل، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداسٍ من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوه»^(١).

وروى الكاهن نفسه خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر، ويقول في

هذا:

«لقد أفرط قوماً في سفك الدماء في هيكل سليمان، فكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملهمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمنشفة»^(٢).

ويذكر التاريخ أن الحملة الصليبية عند دخولها بيت المقدس في ١٥ مايو عام ١٠٩٩م قد ذبحت أكثر من سبعين ألف مسلم، حتى سبحت الخيل إلى صدورها في الدماء، وفي أنطاكية، قتلوا أكثر من مائة ألف مسلم. فالأمر خطير، إنه حقد الشر على الحق، والرذيلة على الفضيلة، وعداوة الشرك للتوحيد، وخصومة الضلال للهدى^(٣).

وقد صمدت الأمة الإسلامية في وجه هذه الحروب الوحشية التي سلبت ونهبت وقتلت وفتكت. وبعد مضي أكثر من قرنين من حروبٍ داميةٍ اشتدَّ

وطيسها بين كتائب الإيوان وبين جحافل الشر، ارتدّت الحروب الصليبيّة وقد باءت بالإخفاق والهزيمة.

فالقديس «لويس التاسع» قائد الحملة الصليبيّة الثامنة، وملك فرنسا، وقع أسيراً في مدينة «المنصورة» في مصر، ثمّ خلص من الأسر بفدية، ولما عاد إلى فرنسا، أيقن أنّ قوّة الحديد والنار لا تُجدي نفعاً مع المسلمين الذين يملكون عقيدةً راسخةً تدفعهم إلى الجهاد، وتحضّهم على التضحية بالنفس، وبكلّ غالٍ. إذًا، لا بدّ من تغيير المنهج والسييل، فكانت توصياته: أن يهتمّ أتباعه بتغيير فكر المسلمين، والتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم للإسلام لهذا الغرض. وهكذا تحوّلت المعركة من ميدان الحديد والنار إلى ميدان الفكر^(١)؛ لأنّ القضاء على الإسلام أو تحويل المسلمين عن دينهم، لا يمكن أن يأتي عن طريق القوّة المادّيّة والغزو المسلّح.

ولقد بدأت حركة (الغزو الفكريّ) من منطلق ضرب المسلمين عن طريق الكلمة، بعد هزيمة الحروب الصليبيّة - كما وجّههم «لويس التاسع» - والعمل على ترجمة القرآن والسنة وعلوم المسلمين، للبحث عن الثغرات التي يدخلون منها إلى إثارة الشبهات. وقد أعلنوا صراحةً أنّ الإسلام هو عدوّهم الأوّل، وأنّ أكبر غاية لهم هي ضرب وهدم قواعده^(٢).

لقد فشلت الحروب الصليبيّة من الوجهة الحربيّة، لكن بقي (الغزو الفكريّ) ينفث سمومه ويثير الشكوك، وبقيت النزعة الصليبيّة تتوارى خلف ستارٍ من الدبلوماسية، والرياء السياسيّ، تحرّك ما تريد تحريكه، وتقف خلف الغزو الفكريّ، بكلّ ما لها من قوّة وعلم.. ولا شكّ أنّ العداء الصليبيّ للإسلام هو الدافع الأساس والأصيل للغزو الفكريّ الذي تسلّط على مجتمعات الأمة الإسلاميّة، ونجد أنّ هذا العداء أخذ شكل (السعار البوائيّ) لدى الأمم الغربيّة (الصليبيّة) فأخذوا مستميتين يوزعون السموم ذات اليمين

وذات الشمال، ويفترون الأكاذيب، ويطمسون الحقائق، ويدبرون المكائد، ويتصيّدون السقطات. ثمّ يدخلون في روع أنفسهم وبني جلدتهم أنّهم أرقى عنصراً، وأفضل عقلاً، وأفلح ديناً، وأنّهم أوصياء على البشريّة، وسادة الإنسانيّة، وهداتها ومرشدوها^(١).

ولقد اشترك الاستعمار الغربيّ والجهد التبشيريّ والحقد الصليبيّ في حرب المسلمين وتشتيت تراثهم ونهب ديارهم، بحيث أصبح يخيّم عليهم كسحابة سوداء من البغضاء والكراهية. يتمثّل هذا فيما حدث في عام ١٩١٨م، عندما دخل «اللورد اللنبي» القدس، وأعلن: «الآن انتهت الحروب الصليبيّة». كان هذا القائد يعبر عن الروح الأوروبيّة، الروح الصليبيّة، التي ظلّت متوهّجة في أعماقهم طوال تلك الحقب.

وبنفس الحقد الذي صدر عن الجنرال الإنجليزيّ «اللنبي»، كان مسلك الجنرال الفرنسيّ «غورة» قائد الجيش الفرنسيّ في دمشق، حين ذهب إلى قبر صلاح الدين، بعد أن جاء راكباً سيارة مكشوفة، وترجّل إلى القبر وقال قوله المشهورة: «نحن هنا يا صلاح الدين». وفي اليوم التالي عمل الشئ نفسه في حمص، حيث ذهب إلى قبر خالد بن الوليد وقال: «نحن هنا يا خالد»^(٢).

هذا الحقد والضغن والمقت كان سبباً قوياً في الإغارة على المسلمين بشتّى الأساليب والطرق والأشكال والألوان. وما زالت تلك الموجة تعلو وتشتدّ وتمتدّ، ثقافياً وفكرياً، لتخريب قواعد الإسلام والأخلاق الإسلاميّة، وإشاعة الأفكار والتيّارات الهدّامة^(٣)، وشغل الأمة الإسلاميّة، بكلّ ما هو هامشيّ في حياتها، حتى لا تدرك اليقظة الواعية، ولا تنتبه إلى ما يُحاك حولها.

ثانياً: الاستعمار الغربيّ للمجتمعات الإسلاميّة:

لقد تعرّض المجتمع الإسلاميّ في آسيا وأفريقيا للطابع الأيديولوجي

للمجتمع الأوروبي، سواء الحديث منه في القرن التاسع عشر، أو المعاصر في القرن العشرين، ولم تكن للمجتمع الإسلامي مناعة كافية في رفض هذا الطابع وتحديده وعدم تقبله. فتعرض للغزو الأوروبي من أجل الصناعة الغربية، منذ أثمر عهد النهضة الأوروبية ثمرته في التحرر والخلاص من سلطة الكنيسة، وفي استرداد الإنسان الأوروبي حريته الحركة في التجارة، وفي شؤون المال على العموم وحريته التفكير والتوجيه السياسي^(١).

وكان الوضع في البداية قبل الاستعمار تربصاً من جانب، بينما كان استسلاماً من أي مجتمع إسلامي تعرض للتربص والانقضاء، وقبولاً للوصاية الأجنبية والاستغلال الأوروبي من جانب آخر^(٢).

ومما هو مسجل في صفحات التاريخ أن المجتمع الإسلامي وقع فريسة للاستعمار، فقد احتلت بريطانيا الهند في سنة ١٨٥٩م ومناطق الخليج الإسلامي، وجنوب شبه الجزيرة العربية في سنة ١٨٤٩م، ومصر في سنة ١٨٨٢م، والسودان في سنة ١٨٩٨م. واحتلت فرنسا الجزائر في سنة ١٨٣٠م، وتونس في سنة ١٨٨١م، والمغرب في سنة ١٩١٢م. واحتلت إيطاليا طرابلس الغرب في سنة ١٩١١م. واحتلت هولندا: جزر الأرخبيل الأندونيسية تبعاً منذ عام ١٩٠٣م. وروسيا احتلت القرم قبل القرن التاسع عشر في سنة ١٨٧٣م، وسيطرت بإشرافها على المجتمعات الإسلامية في وسط آسيا - وهي: أذربيجان، وكازاخستان، وأوزبكستان، وتوركيستان، وكازيخستان - سيطرة تامة في القرن التاسع عشر، ولم يسلم من الاحتلال الأوروبي سوى: اليمن، والحجاز، وإيران، ووسط تركيا^(٣).

ولا يخفى: أن وقوع المجتمعات الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار زاد من اتساع السوق الاستهلاكية لمنتجات الغرب الصناعية، وهذا أدى إلى تفوق الصناعة الغربية. وكلما قوي المجتمع الأوروبي وتفوق صناعياً، كلما زادت رقعة

استعمارهم في قارة أفريقيا وقارة آسيا.. وكلما زادت قبضة أوروبا على ما تمّ استعمارهم، وكلما اتّسع نفوذها السياسي والاستغلاليّ، وكلما زاد ضعف المجتمع الإسلاميّ الذي وقع تحت سلطة الاستعمار، زادت تبعيته وتقبله لما يأتي من الغرب. ويوم أن تحرّك المجتمع الأوروبيّ لاستعمار المجتمعات الإسلاميّة، كان في قمة مجده، بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة والدولة، واستقلاله بالسلطة الزمنيّة، وبالحرية السياسيّة، كما كان في أشدّ الأوضاع حرصاً على اتّجاه (العلمانيّة) كمثال للإنسانيّة..

استصحب الاستعمار معه هذا الاتّجاه، بما يستتبعه في الحكم والتوجيه والتشريع والاقتصاد، في المجتمع الإسلاميّ الذي يتمكّن منه. وباستصحابه لهذا الاتّجاه، ومحاولة تطبيقه في المجتمع الإسلاميّ، وهو مجتمع يغير في خصائصه وتاريخه وواقعه.. المجتمع الأوروبيّ، اضطرّ هذا الاستعمار إلى أن يسلك طريقاً يمكنه من هذا التطبيق، وهو عزل المجتمع الإسلاميّ كلياً عن ماضيه، وعن تراثه العقليّ والروحيّ والتوجهيّ والسلوكيّ.. فإذا ما تمّ عزله، أصبحت قيادته ميسرة وطبعة للمستعمر، وبالأخصّ: للأجيال التي تنشأ في ظلّ هذه العزلة^(١).

ثالثاً: تقدّم الغرب العلميّ:

لقد كان الغرب يملك تقدّماً علميّاً فائقاً، وتقدّماً مادّيّاً هائلاً، وعبقريّة تنظيميّة مبدعة، وروحاً من الجلد والصبر على العمل والإنتاج، وروحاً علميّة في مواجهة المشكلات من ناحية الدراسة أو من ناحية التنفيذ^(٢). ولا شكّ أنّ التقدّم العلميّ المذهل للغرب كان قوياً دقّاقاً، له من القوة والانتشار والاستيلاء ما بهر العقول وفتن الألباب، ولا غرو، فقد برّ بذلك كلّ تقدّم علميّ عرفه العالم وسمعت عنه البشريّة في التاريخ المترامي الأطراف،

واستطاع أن يخرج من الأسوار، ويكشف من الاختراعات، ما جعل أبصار الناس وعقولهم تتعلّق به^(١).

وخاصّة أنّ هذا العلم أصبح في خدمة الإنسان في كثيرٍ من مناحيه، فأتجهت الأنظار والعقول والقلوب إلى الغرب، تتطلّع إلى ما فيه من اكتشافاتٍ تأتي بجديد^(٢).

رابعاً: الضعف الفكريّ والتفكّك الاجتماعيّ:

لقد أصيب المجتمع الإسلاميّ بالضعف الفكريّ والتفكّك الاجتماعيّ، وذاق من جرّاء تلك الإصابة مرارة التأخّر. والضعف الفكريّ ما أُصيب به أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، إلّا كانت الحالة انحطاطاً في التفكير، واهتماماً بالخرافات والأساطير. والتفكّك الاجتماعيّ نتيجة حتمية للضعف الفكريّ؛ لأنّ الضعف الفكريّ لا يكتشف للإنسان مخاطر الانزلاق في الهاوية. ولهذا نجد أنّ المجتمعات الإسلامية ابتليت بالطوائف المتعدّدة والمتناحرة، والمذهبيّة التعصّبية، وتعدّد السلطنات والدويلات، التي قامت على أساس شعويّ أو مذهبيّ في هذا المجتمع أو ذاك. وهذا كلّ جرّ المجتمع الإسلاميّ إلى فوضىّ قاتلة، وتناحرٍ حقيقيّ، ونهبٍ وقتل، دون رادعٍ أو وازع.. ومجتمع كهذا لا بدّ وأن يتعرّض لسيطرة المتربّصين به. لقد كانت السلطة السياسيّة في المجتمعات الإسلاميّة تعيش في وضعٍ مقلوب، «وفي ذلك الوضع، لا بدّ أن تكتمل الصورة المقيّنة لأيّ إمبراطوريّة على وشك السقوط، بغضّ النظر عن اللافّة التي ترفعها، سواء كانت إمبراطوريّة بيزنطيّة أو رومانيّة. لا بدّ أن تنفثي الرشوة وتكثر مصادرة الأموال وتتفاقم الاضطرابات الداخليّة، مع الانحلال الخلقيّ، والانشغال بالتوافه عن الخطر الذي يدقّ الأبواب»^(٣).

وأساس انهيار الأمم يبدأ من الداخل، وقد يأتي تدخّل خارجيّ ليعجّل

بالسقوط. ولكن يظلّ الانهيار الداخليّ هو بداية النهاية وعاملها الأكبر. ويأتى الانهيار الداخليّ حين تتكوّن طبقة مترفة تتحكّم في الثروة وفي الجماهير، فتنتشر الظلم والانحلال، وتُحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة^(١).

خامساً: تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة:

وإنّ المجتمعات الإسلامية حين أصابها الضعف الفكريّ والتفكّك الاجتماعيّ، انشغلت بالتفافه من الأمور، فقادتْها التفاهة إلى التخلف عن ركب العلم والتقدّم والحضارة.. ومعنى هذا: أنّ المجتمعات الإسلامية انصرفت عن تعاليم الإسلام التي تدعو إلى العلم والمعرفة واستعمال العقل والفكر في كلّ ما من شأنه أن يأخذ بالناس إلى الطريق السليم. «وواكب هذا الانصراف انحطاطاً في القيم، ودعواتٍ إلى الركون إلى المتع، والعبث بالأموال إلى حدّ السفه والجنون والترّف والفجور، حتى كان قوّد هذا الركب في كلّ نادٍ وكلّ صحيفة، مع جهلٍ ضارب، ونفاقٍ ناشبٍ أظفاره، وفسادٍ في كلّ مجتمعٍ ونادٍ، وتصارعٍ على كلّ تافهٍ وخسيسٍ من المادّة، وخرابٍ للذمم، وبيعٍ للشرف، وكُرهٍ للقيم، وضياعٍ للحقّ، وهضمٍ للحقوق، وذبحٍ للفضيلة»^(٢).

هذا التخلف أضعف الثقة بالنفس وأوقف عجلة التقدّم والانطلاق في الشعوب الإسلامية، وجعلها تعتمد في كلّ شيءٍ على غيرها. إنّ التخلف العقليّ لا يكمن في التبلّد والخمول والنوم والرضاء بالدون وموت الهمة^(٣)..

ومن المؤكّد أنّ الأمّة التي تفضّل أو ترضى بالتواكل والاستجداء والكسل والتبعية، أمّة لا تستحقّ الحياة الكريمة، والحياة الحرّة الكريمة لا تتأتّى لأمّة دون ثمن، والثمن هو التضحية. ولا يتأتّى لأمّة أن تشقّ طريقها في الحياة، وأن تستعيد وجودها وكرامتها، وتعيد صنع حياتها، دون أن تحاول جاهدةً أن تبني نفسها بناءً يتفق مع الاعتداد بالذات. وقد يكون من المسلّمات البديهية أنّ فقر

الأمة في جوهره وجذوره ليس فقراً في السلاح والمعدات، أو فقراً في المال والإمكانات، وإنما يكمن في فقر النفوس وعجزها، وضعف الإرادة واضطرابها^(١)..

فالتخلف عن ركب التقدم والحضارة، يعود بالمجتمعات الإسلامية إلى الانحطاط، ويقودها طواعيةً إلى الهلاك، كما تُقَاد الشاة إلى حتفها بظلفها، ولذا كان هذا التخلف عاملاً من عوامل الغزو الفكري الذي اجتاحت البلاد والعباد.

سادساً: الفراغ العقدي:

من المؤكّد لدى الباحثين أنّ العقيدة هي الأمر الذي تثق به النفس ويطمئن إليه القلب، ويكون يقيناً عند صاحبه، ولا يهازجه شكّ فيه، ولا يخالطه ريب. ويذكر العقّاد: أنّنا نعني بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنّما نعني بها حاجة النفس، كما يحسّ بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة ليرتّب مكان العقيدة من قرارة ضميره. إنّما نعني بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرؤوس أو الصفحات^(٢).

إنّ العقيدة التي يصحّ أن توصف بالعقيدة الدينية، هي التي لا يستغنى عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعتصم، واستقرّ فيها على قرار^(٣).

ومن يتأمّل العقيدة الإسلامية، ويتدبّر ما جاءت به من مفاهيم تناولت معضلات الحياة، إنّ من يتأمّل ذلك، يحسّ بالاطمئنان ويتخلّص من الحيرة التي تواجه كثيراً من المفكرين^(٤).

والحقيقة التي أثبتتها مئات السنين الحافلة بالأحداث والخطوب والمحن، حقيقة أنّ العقيدة الإسلامية هي العقيدة الشاملة، والعقيدة المثلّي للإنسان والمجتمع، وهي رعاية للروح والجسد، وعمل للعالم والآخرة، وجهاد في

السلم والحرب وتنظيم للعلاقات والصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والأمم. فالعقيدة ضرورة لا غنى عنها للفرد والجماعة.. ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد وتظهر نفسه.. وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتفع وينهض.. فالفرد بغير عقيدة كالريشة في مهبّ الريح، تحوله يميناً وشمالاً، فلا يسكن له حال، ولا يستقر له قرار، وليس به جذور تثبته^(١).

والعقائد في الأمم تقف سدوداً بينها وبين الأفكار الوافدة أو المذاهب المقتحمة، وتعطي أعماقاً للصروح والمجتمعات والأفراد، كما تمنح استقراراً وثباتاً للإنسان في الحياة. أمّا إذا تركت الأمم عقائدها، وتخلّفت عن غذائها الروحي وعن عمقها الإيماني^(٢)، فإنّها تصبح فريسة لمن هبّ ودبّ..

بعد أن اتّضحت للباحث أبعاد ما أصاب الأمة الإسلامية من التيارات والمذاهب التي تعمل ليل نهار، يبقى أمامنا السؤال الكبير: ماذا فعلنا نحن؟ وما هو موقفنا ممّا أصاب المجتمع الإسلامي؟

إنّ جزءاً كبيراً ممّا أصاب المجتمع حركة فكرية هائلة، وما تنتجه هذه الحركة يخصّنا نحن المسلمين، ويخصّ عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا وذاتيتنا. وإنّ جزءاً كبيراً آخر ممّا أصاب المجتمع حركة عملية هائلة تأخذ المواقع وتسيطر على القلوب. وما أصاب المجتمع الإسلامي بحركته الفكرية والعملية من أخطر ما تواجه في حياتها؛ لأنّ ما يقوم به الأعداء من أهداف تقوّض الدعائم، يتعلّق بأعمق أعماق الأمة عقدياً وفكرياً وحضارياً، وليس هناك أمام المسلمين من سبيل إلاّ المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات، وإلاّ، فليست الأمة جديرة بالحياة.

ولا يخفى على أحد: أنّ السعي إلى إثبات الذات والعمل على مواجهة هذه

التحديات والتيارات الغازية، دليل صحة ودليل صحة وعافية... إذاً، لا بد من منهج، والمنهج الصحيح: هو أن تواجه الأمة الفكر بالفكر، ولا بد من بناء شخصية الأمة، وتحصين أنفسنا، لنصبح ممنوعين من تأثير الغزو، ليست عندنا قابلية له.. وإذا تحصّنا، لم يعد للعقبات الكأداء تأثير فينا.

ولعلّ أخطر ما استهدفه الغزو الفكري الذي تسلّط على المجتمعات الإسلامية هو هدم شخصية المسلمين هدماً عقدياً وثقافياً وفكرياً. ولا يخفى: أنّ انهدام الشخصية يساعد على قبول الزيوف والأباطيل، كما يدفع إلى التبعية والذوبان.

ولهذا كان لا بدّ إذا رغبت الأمة أن لا تؤثر فيها مخططات المتربّسين أن تبنى شخصيتها بحيث تكون مصبوعة بصبغة الإسلام، وموسومة بميسم الإيمان، والشخصية المصبوغة بالإسلام، والموسومة بميسم الإيمان، شخصية إيجابية، تعيش في حركة فكرية ونفسية وجسدية بناءة، تعطي وتأخذ، وتعطي أكثر ممّا تأخذ.

ولا شكّ أنّ إدراكنا لضرورة الإسلام، لنا ولغيرنا، يفتح أعيننا على المكانة، كما ينبّه إلى موقع المجتمع والأمة، وجدير بنا ونحن نخطو على مجد نسعى إليه، أن نتعرّف على حقيقة الإيمان، فإذا وقفنا على هذه الحقيقة وتعلّقنا بها، كان لنا دور. ومن شأننا ونحن نتابع الخطى، أن نتعرّف على الإرهاصات التي تكون في مقدّمة لما يهيئ الطريق للنهوض بالمجتمع والأمة.

أولاً: ضرورة الإسلام:

الإنسان آية الله في خلقه، طبعه ربّه على هذا النحو العجيب، وفطره على هذه الصبغة الفدّة، مقترنةً بعدد من الغرائز والميول. وحينما تشدّه الأولى إلى زكاة النفس واستواء الفطرة وقصد السبيل، فإنّ الثانية تشدّه إلى النقيض تماماً، وبين

هذا وذاك، يتطلّع الإنسان، ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله على طول الخطّ سويّ المنهج، قويّ السبيل، زكيّ الباعث، نبيل المقصد، متعلّقاً بمعالى الأمور، نائياً عن سفافهها، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا في رحاب الإيمان بالله وأحضان الطاعة له وظلال القرب منه. والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقرّ في هذا الكون الهائل، فلا بد له من رباطٍ معيّن بهذا الكون يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقرّ فيه^(١).

فلا بد له إذاً من عقيدة تفسّر له ما حوله، وتفسّر له مكانه فيما حوله، فهي ضرورة فطريّة شعوريّة، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة، ومتابعة بعثها، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها. ومن هنا كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطريّة، مركوزة في فطرته، ومغروسة في شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضلّ عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار ويفقد الاستقرار^(٢). هذه الحاجة الفطريّة في الإنسان إلى العقيدة هي التي يتحقّق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه في هذه الحياة ورسالته وعمله ودوره^(٣).

{يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسُخِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [النساء].

هذا الدين لا يزال العالم في حاجة شديدة إليه، ولا خلاص للإنسانية ممّا تعانيه إلاّ بالإيمان به، فهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والداعي إلى الحقّ وإلى الصراط المستقيم.

ثانياً: حقيقة الإيمان:

ومن المعلوم أنّ الإيمان هو نبع الفطرة في صدقها وصفائها.. وإذا صدق

الإيمان في القلب. كان لذلك أثره في عقيدة المؤمن وشعوره، وفي صلته بالله تعالى، وفي جهاده في الحياة، فلا يقبل إلا الحق، ولا يعبد إلا الله، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا يرتبط بالباطل في قول أو عمل، بل يكون شهيداً على الناس من حوله، يرشد ضالهم وينصح مخطئهم ويعطيهم من نفسه المثل والقدوة بأخلاقه وسلوكه، مؤثراً فيهم بما في قلبه من النور واليقين، غير متأثر بما لدى بعضهم من باطل. وصاحب الإيمان الصادق لا تزيده الأيام إلا يقيناً، فإن أصابه خير شكر ربه، وأدى حق الله في نعمته، وإن أصابه شر حمد الله ورضي بقضائه، ولا يضعف ثقته بالله شيء..

قال تعالى في سورة الحجرات: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ} [الحجرات: ١٥].

وقال تعالى في سورة الأنفال: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال].

ولاشك أن الإيمان الصادق العميق يحيا به ضمير المؤمن وتسلم به اتجاهاته.. فبينما يتخبط الملايين في دياجير الظلام الحالك وسبل الضلال، ترى المؤمن بوحى من تفاعل الإيمان في كيانه: مرهف الحس، صادق العزم، صالح العمل، لا تستدله الحياة وما فيها، ولا تعصف به الشدائد مهما بلغت حدتها.

قال تعالى في سورة الزمر: {اللّٰهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كُنُبًا مُّتَشٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضِلِلِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ} [الزمر: ٢٣].

فقوة الإيمان في نفس المؤمن ترفع مقتضيات الإيمان فوق كل شيء، وتجعل

المؤمن وثيق الرابطة بما يمليه عليه إيمانه، لا يشغله عن ذلك شاغل.. ومهما اشتدّ البلاء، فإنّ المؤمن لا يزداد إلّا ثباتاً و يقيناً، ذلك لأنّ قوّة الإيمان في القلب تمدّ المؤمن في كلّ أحواله بنور الاهتداء وكمال الرجاء..

ذلك شأن المؤمن في كلّ أموره، في عبادته لله، وذكره إيّاه، وفي حرصه على مرضاة الله مهما تكاثرت عليه مشاغل الحياة، وفي خضوعه دائماً لأمر الله وحكمه، وفي كمال ثقته بالله، قولاً وعملاً، وقلباً وجسداً، وعقيدةً وسلوكاً. كذلك من شأنه ألا يهادن أهل الباطل أو يلين في مقاومتهم..

ثالثاً: إحساس الأمة بالمواكبة الحضاريّة:

إنّ لفظ الحضارة في مفهومه العامّ والحديث المعاصر بصفة خاصّة، قد أصبح أكثر اتّساعاً ممّا يدلّ عليه اللفظ في مفهومه اللّغويّ التقليديّ.. ولذا جاء في المعاجم الحديثة أنّ الحضارة هي الرقيّ العلميّ والفنّيّ والأدبيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ في الحضر.

وبعبارة أخرى أكثر شمولاً: هي: الحصيلة الشاملة للمدنيّة والثقافة والفكر، ومجموع الحياة في أنماطها الماديّة والمعنويّة. ولهذا كانت الحضارة، هي الخطّة العريضة - كمّاً وكيفاً - التي يسير فيها تاريخ أمّة من الأمم، ومنها الأطوار الحضاريّة الكبرى التي تصوّر انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة^(١).

فالحضارة، بكلّ بساطة، معناها: بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانيّة، من أجل تكميل النوع الإنسانيّ، وتحقيق التقدّم من أيّ نوع كان في أحوال الإنسانيّة وأحوال العالم الواقعيّ. إنّ الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً عن بلوغ التقدّم، ويكرّسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم^(٢).

والحضارة باختصارٍ شديد هي جملة المظاهر المعنوية التي يخلفها التاريخ، والتي تبقى في المجتمع على مرّ الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذي يمثله. ولا شك أنّ المظاهر المعنوية تأخذ قوالب ماديةً مختلفةً تتجسّم فيها تلك المعنويات، وتشكّل المظاهر المعنوية في صورٍ مختلفة، كالفنون والآداب والعلوم والمعارف ومجموع ما ينتج عن ذلك كلّ من تسجيلاتٍ ومشاهد في الآثار والعماثر وأسلوب الحياة وآداب المعاش اليومي^().

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية في جوانبها المتعددة، المتقابلة المتكاملة، جسديةً وعقليةً ونفسيةً وروحيةً؛ والسلوك الحضاريّ هو جواب الإنسان على التحديّ الموجه له؛ تحديّ الطبيعة المادية من جهة، وتحديّ حاجاته هو من جهةٍ أخرى، وتحديّ الإنسان الآخر أو المجتمع من جهةٍ ثالثة. ويأتي هذا الجواب الإنسانيّ في شتى مجالات الآداب والعلوم والفنون. كما تشمل أيضاً صور الإنتاج الماديّ، من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها.

والنتائج العلمية متّصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض، والحضارات الإنسانية، ليست ملكاً لأمةٍ بعينها، ولا هي وقف على جماعة من الناس؛ لأنّها صرّح هائلٌ قد أسهمت فيه كلّ أمةٍ بنصيب. والحضارات الإنسانية، قد تتشابه في مظاهرها وفي عناصرها وفي أسلوبها، ولا سيّما إذا تعايشت في وجهاتٍ متقاربة. والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات، يؤثر سابقها في لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها، وينتفع بعضها من بعض^().

ولقد تواجدت حضارات مختلفة في الزمان والمكان، وانتفعت من بعضها انتفاعاً أدّى إلى تقدّمها عند الكثير. وتشكّل الحضارة مجموعة الصفات والمزايا المشتركة لمجتمعٍ أو لمجموعةٍ من المجتمعات، وهذه الصفات تمثّل مجموع

الحلول التي أوجدتها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما تندمج بشكل عام في جو واسع جداً، ومكان جغرافي طويل جداً من التاريخ. وتستخدم هذه الأساليب المادية والتقنية والمفاهيم، لحل جميع المشاكل التي يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، وإصلاح وتوزيع الأراضي، واستثمار الثروات، وكذلك الحياة الاقتصادية والفكرية والسياسية والدينية. والفاحص المدقق يجد أن تيار الفكر الحضاري الإنساني، يتخذ طابعاً واحداً لا ينحو كثيراً عن تاريخ الإنسان ذاته، فالحضارات والثقافات المختلفة، تتفاعل مع بعضها، فتنتج للإنسان ما يشبع حاجته الفكرية والمادية..

وبهذا، فإن الحضارات الإنسانية على مر العصور تكون كلاً متماسكاً يترابط بنيانه العضوي كحلقات السلسلة الواحدة التي لا تنفصم الواحدة منها عن الأخرى.. ولا يمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى أو أنها لم تتفاعل معها.

ونظرنا الأساسية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطي، تأخذ ما يتفق مع طبيعة البنيان العقلي والفكري للأمة، وتعطي ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال، فإن هذا التفسير أقرب إلى فهم روح الفكر والنشاط الإنساني المتصل، الذي بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض^(١).

رابعاً: العلم والدراسة:

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة في الأرض. قال تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠]. وقد فضل الله الإنسان وكرمه، كما وضع ذلك في قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَنَاءِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠]. وهذه الكرامة

التي اختصَّ الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، فهي حماية إلهية للإنسان، تنطوي على احترام حرّيته وعقله وفكره وإرادته. وهذه الكرامة تعني في النهاية: الحرّية الحقيقية، وهي تلك الحرّية الواعية المسؤولة التي تدرك أهمّية تحملها أمانة التكليف والمسؤولية التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } [الأحزاب: ٧٢]. وإذا كان الله قد اختصَّ الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسؤولاً، فإنه من ناحية أخرى قد خلق له هذا الكون بما فيه؛ ليأرس فيه نشاطاته المادّية والروحية على السواء.

يقول الله تعالى: { وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الجاثية: ١٣]. والتفكير الذي تنصّ عليه الآية هنا أمر جوهري لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان^(١)؛ فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون، فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً، وإيجابيته تتمثل في درسه والنظر فيه للاستفادة منه، بما يعود على البشريّة بالخير، والاستفادة من كلّ المسخّرات في هذا الكون لا تكون إلاّ بالعلم والدراسة والفهم.

والنظر في ملكوت السموات والأرض على هذا النحو، سيؤدّي إلى الرقيّ المادّي، وفي الوقت نفسه، إلى الرقيّ الروحيّ والحضاريّ^(٢).

والحضارة الإسلاميّة هي عمارة الأرض، وترقية الحياة على ظهرها خلقياً وعلمياً وأدبياً وفنياً واجتماعياً وفق منهج الله وشريعته. وبناءً على هذا المفهوم، فإنّ المجتمع الإسلاميّ - وهو المجتمع الذي يطبّق القيم الإنسانيّة في كلّ جوانب الحياة - هو وحده المجتمع المتحضّر^(٣).

والمجتمع المتحضّر هو الذي تكون القيم الإنسانيّة والأخلاق الإنسانيّة التي يقوم عليها هي السائدة فيه، وهذه القيم هي التي تنمّي خصائص إنسانيّة

الإنسان، وهي التي تميّزه عن غيره من المخلوقات (١).

وهذه القيم إنّما هي قيم إنسانية ذات ميزان ثابت، وهي مقرّرة في الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما على الإنسان إلّا أن يمضي في بنائها وصيانتها في كلّ المجتمعات التي يقيمها، حضريّة كانت أم بدوية؛ صناعيّة كانت أم زراعيّة. فالمهمّ في كلّ الأحوال هو الارتقاء صعداً بالحقائق الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانيّة التي تؤدّي إلى التخلّف.

إن الحضارة الإسلاميّة تقوم بهذه القيم وبهذه الأخلاق في كلّ مكان وفي كلّ بيئة. أمّا أشكالها وصورها المادّيّة، فهي كثيرة ومتنوّعة؛ لأنّها في كلّ بيئة تستخدم المقدّرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنمّيها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقرّرة في شريعة الله (٢).

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائيّة ينشئ الحضارة المناسبة لهذه المجتمعات، وحين يدخل المجتمعات المتقدّمة صناعيّاً أو زراعيّاً أو غير ذلك، فإنّه يستخدم كلّ ما لديها من معطيات، ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً ممّا لديها. وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلاميّة، فإن التخلّف الحقيقيّ - في مفهوم المجتمع الإسلاميّ المتحضّر - هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغيّة للتدمير والتسلّط، وتسخير إمكانيّات العلم غير المحدودة في نشر الفوضى والعادات غير الخلقيّة، بدلاً من استخدامها في إعلاء القيم الإنسانيّة، وفي خدمة الإنسان دونبغي أو ظلم أو تحكّم أو إبادة.

إنّ مهمّة العلم في مفهوم المجتمع الإسلاميّ المتحضّر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها، بل التلطف مع الطبيعة، والجدّ في اكتشاف قوانين الله فيها (٣).

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حضارة، فإنّ هذه الحضارة التي دعا إليها الإسلام تتميّز بأنّها منفتحة الحدود الفكريّة والنفسيّة والمادّيّة. وسيراً في ضوء هذا المنهج الإسلاميّ، وجدنا العصور الذهبيّة للمسلمين تفتح

صدورها لامتنعاص المعرفة الإنسانية المادية التي خلقتها في الأمم والشعوب حضارات سالفه^(١).

إنّ العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا تستغني عنها أية حضارة، مهما سمت وارتفعت. إنّها تمتزج لتكوّن وإياها صيغةً جوهريةً تختلف من تراثٍ إلى آخر. وهذه العناصر الخارجية، تأتي بطريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود. والاقتباس والنقل، عملة متداولة بين الشعوب قاطبةً، فكلّ حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت، ولم توجد قطّ حضارة أبدعت ولم تنقل، فالنقل ليس وباءً، وإنّما هو غذاء، والاستعارة ليست عاراً، وإنّما هي فخار، فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب، إنّما هي ظاهرة صحيّة طبيعيّة سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها^(٢).

والمسلمون هم وارثو الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة. فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنّها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم. ففي الشمال، ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفي الشرق، كانت الحضارة الفارسيّة، ومن ورائها الحضارات الآسيويّة الأخرى، وفي الجنوب، كانت حضارة اليمن.

خامساً: التفاعل الحضاريّ:

والتفاعل الحضاريّ ضرورة إنسانية لا بد منها لقيام الحضارات، وتقدّم الإنسان في كلّ ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن. أمّا الانغلاق الحضاريّ، فهو قاتل للإنسان، والتبعية الحضارية هي الأخرى قاتلة لكلّ إبداع، ولا بد من حوار الحضارات. وإذا

تأملنا في حالة الأمة الإسلامية، وجدنا أنها - من وجهة نظرنا - محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان، فهي بُعد الأمة عن ماضي حضاريّ مشرق، لم تعد تربطها به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية. وأما غربة المكان، فهي بُعد الأمة عن وضع حضاريّ معاصر تجهل عنه كل شيء مما مثل فجوات حضاريّة كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها. ولذلك كان لا بد لهذه الأمة أن تعود إلى التفاعل الحضاريّ، وتستفيد من حضارات الإنسانية، ولا بد من خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزمانيّ والاغتراب المكانيّ، وذلك بالرباط بين الواقع وثوابت الحضارة الإسلامية وبين مصادر عوامل التقدّم المعاصر. وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين والعلم والحياة، في إطار من حرّية الفكر، وسياسة عقلانيّة للتقدّم، وتسامح مستنير^(١).

فإن فعلت الأمة ذلك، كان ذلك بدايةً في طريق حضاريّ. والتقدّم البشريّ في مختلف المراحل والمجالات، ليس إلّا حصيلة الإبداع الفكريّ والتعاون والاحتكاك بين المجتمعات. ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا، ولكنّ العيب أن نظلّ عالّة على أمم الأرض، نأخذ منها ولا نعطي.. ويجدر أن ندرك أنّ الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء، ولا التبعية الحضاريّة بمفيدة، أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصيّة حضاريّة إسلاميّة. والعزلة الحضاريّة والجهل صنوان، كلاهما تخلف، وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء في طريق التطوّر والتقدّم. ويكاد يكون مؤكّداً أنّه لا توجد حضارة قامت بذاتها واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها، وإنّما هي نتيجة تطور حضاريّ دائم، وتفاعل بين حضاراتٍ أخرى، تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان. والنموّ الحضاريّ إنّما يعتمد على التجارب الحضاريّة الأخرى. وكلّما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات،

ازدادت فرص الحياة والنموّ والاكتساب والتعلّم. والأمة الإسلاميّة وهي تتطلّع إلى مستقبل مشرق، لا بد وأن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها، مسوقة بقيم وأفكار وموارث لها في وعيها فاعليّتها القويّة. ولا يخفى: أنّ الأمة الإسلاميّة تملك رصيдаً ضخماً من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلاميّة في وضع يسمح لها بأن تنمّي فلسفتها الحضاريّة الإنسانيّة، وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانيّة. ومّا هو معروف أنّه ليس كلّ عمل يصدر من الإنسان يسهم في الحضارة الإنسانيّة، وإنّما ذلك العمل الذي ينمّي الحضارة وينطلق من الإنسان للإنسان.

سادساً: إعداد القوّة:

الصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة، وقد ثبت بالتجربة أنّه أمر لا بد من وقوعه بين الناس مهما ارتقت أفكارهم، أو تقدّمت وتطوّرت معارفهم وحضارتهم، والدليل الواضح على ذلك: ما يقع بين الأمم من الحروب العالميّة، وهذا التسابق المحموم في أسلحة الفتك والدمار والخراب، رغم ما توصّلوا إليه من العلم والحضارة المادّيّة والتقدّم^(١).

فالحرب لا يمكن أن تزول من الدنيا، أو تخفّ حدتها، أو تنحصر ويلايتها، ذلك أنّها بكلّ ما فيها من مرارة وآلام، وبكلّ ما تنطوى عليه من قسوة وبطش وإخلال بالأمن والسلام، سرّ من أسرار الحياة، وجوهر من جواهره.. لأنّ الحياة هي الحركة، والحركة هي التي تحوّل المادة وتغيّرها، بما تُحدثه من احتكاكٍ وصدام وصراع مستمرّ.. والإنسان حين يفقد سلامه النفسيّ في داخله، يفقد سلامه الاجتماعيّ والعالميّ في خارجه، ويُعَدُّ الراحة والهدوء والانضباط، ويتلفّت عن يمين وشمال، فلا يرى إلّا جيوش الأهواء والنزوات، وفيالق

الأثرة والمطامع تدقّ طبولها، معلنةً على قراره الذاتي، وسلامه النفسي، حرباً ضروساً لا تلبث إلاّ ريثما يضيق بها ميدان وجدانه، ومجال مشاعره، لتمدّ ألسنتها، حامية الوطيس، مشتعلة الأوار، خارج هذا النطاق، لتأتي على الأخضر واليابس من علائق الأفراد والجماعات والأمم ومقدّراتها وممتلكاتها، ومناطق نفوذها، وما سطرته يراع الإنسانية من معالم الحضارة، ومشاهد التقدم، ووسائل المدنية، التي ترمي إلى ترقية الحياة وتهذيبها..

والويل كلّ الويل، يوم يذر قرن الفتنة، وتشرّب الأهواء النافرة، والنزعات الشاردة، والمطامع الفاغرة، معلنةً إصرارها على طمس الحقّ وأهله. لهذا كان حرص الإسلام البالغ، على أن يتّصف أهل الإيمان بالقوّة، وعلى أن يكونوا دائماً على استعدادٍ لمواجهة أهل الباطل. مهما تكن التضحيات في النفس والأهل والمال.. والتحفّظ الوحيد الذي وضعه الإسلام على قوّة المسلمين، هو أن تكون قوّتهم في خدمة العدل والسلام، وأن تنأى عن البغي والعدوان. قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتِنَتْ صَوَاعِقُ وَيَعٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

سابعاً: الرجاء والأمل:

لقد جاءت رسالة الله سبحانه وتعالى إلى خلقه، ونزل وحيه إلى عباده من كماله وعظمته ورحمته، ما يطبّبهم ويصلح شأنهم ويرتقي بهم إلى ما فيه خيرهم، جامعاً للفرائض، مبيّناً للحدود، متوخّياً من الأساليب أقومها في تربية الناس، ومن المناهج أقواها في إصلاحهم. ولقد كان الترغيب والترهيب من أبرز ما عالج به الإسلام شطط الإنسان وجوحه وتمردّه على الحقوق وما يدور في فلك ذلك من معصية وانحراف، الأمر الذي يؤدّي فطرياً إلى أن تتحرّك نفس

الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات، وأن تختلط فيها بواعث الرغبة بعوامل الرهبة، وأن تمتزج فيها دوافع الخوف وموجبات الرجاء. والرجاء في اللغة: هو الطمع فيما يمكن حصوله ويرادفه الأمل. والرجاء في الاصطلاح: تعلّق القلب بحصول محبوبٍ في المستقبل، وقيل: هو توقّع الخير ممّن بيده الخير. والرجاء: الاستبشار بوجود فضل الربّ تعالى والارتياح لمطالعة كرمه، وهو من أجلّ منازل السالكين وأعلاها وأشرفها.

والرجاء عبوديّة بالله من حيث اسمه البرّ المحسن، فذلك التعلّق والتعلّق بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري. فقوّة الرجاء على حساب قوّة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته على غضبه. ولولا روح الرجاء لتعطّلت عبوديّة القلب والجوارح، ولولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات.

فالرجاء يحفظ على النفس بسطها وتفتّحها وتطلّعها إلى الكمال وتدرّجها فيه وانطلاقها في أفقٍ أعلى تحلّق فيه بكلّ أملها في الله وأمنيّتها عنده ورجائها إيّاه، لا تقيّدتها عقيدة، ولا يحبسها ذنب، ولا يوقف سعيها بأس، ولا يجمد حركتها قنوط، ولا يقطع الطريق عليها إلى الله سعار المادة، ولا تعثر الفطرة، ولا يضيق عليها الخناق أبداً، مهما كانت قبضة المعصية أو ضراوة الخطأ أو شراسة الإثم. والإيمان لا يزكو في النفس، ولا يستقيم المؤمن بعبادته على الجادة إلّا إذا لفّه الخوف من ربّه، وغمره الرجاء فيه، وأيقن تماماً أنّ الجنّة والنار كليهما أقرب إليه من أيّ شيء. ولو يعلم الناس ما لدى الله من العدل والعقوبة، ما أقدم على معصيته أحد، ولو يعلمون ما لدى الله من الفضل والثوبة ما قنط من رحمته أحد.

فالله سبحانه وتعالى لم يُطمعنا في شيءٍ قدر ما أطمعنا في رحمته، ولم يحذّرنا ما

حذّرنا من عقابه، ولم يسرع بشيء قدر إسرعه بقبوله ورضوانه وقربه لأهل دعائه ورجائه، والأمل فيه والقرب منه. والإيمان لا يكتمل، والعبادة لا تستقيم إلا إذا حلّق المؤمن في دينه وأعماله بجناحي الخوف والرجاء، من حيث يدفعه الخوف إلى اجتناب التفریط والبعد عن القصور والتراخي، وضبط النفس على حسن العمل، وإتقان أدائه والإخلاص فيه، ومراقبة الله في جليله ودقيقه.

والإنسان لا يستوى يقينه ولا يكتمل إيمانه، ولا يصلح عمله، ولا تستقيم عبادته، ولا تزكو فطرته، إلا بخوفه من ربه ورجائه فيه، ولا يتّزن الإنسان ولا تستقيم مسيرته في الدنيا، ولا يصلح بين يدي ربه ومصيره يوم القيامة، إلا إذا كانت حياته مزيجاً من الخوف والرجاء، وأمشاجاً من رغبته في ربه ورهبته منه. لذا جاء الإسلام يدعونا إلى الخوف من الله سبحانه وتعالى والرجاء فيه، الخوف الذي نستشعر فيه عظمة الله وجلاله وقيوميّته ومراقبته وخشيته والشعور الموصول بهيبته، إلى غير ذلك ممّا يقود إلى تعظيم محارم الله، واحترام حدوده، والتطبيق الكامل لأوامره، والانتفاء التام عن نواهيه.

والرجاء الذي يفتح للمؤمن بالله باب الأمل والتطلّع إلى ما لدى الله من فضل ما أعدّه للعاملين المؤمنين من مثوبة، وما وعدهم به من أجر مضاعف ونعيم مزيد، ثمّ ما يمنحه هذا الرجاء للإنسان من نعمة التعلّق بالله واللّجوء إليه: أن يقلبه إذا عثر، وأن ينهضه إذا كبا، وأن يمدّ إليه يد العون بحبل الإنقاذ والنجدة ساعة الضيق ولحظات الحرج.

فالرجاء والأمل جناحان بهما يطير المؤمنون بالله سبحانه وتعالى إلى كلّ مقام محمود، ومطيّتان بهما يقطع المقرّبون كلّ عقبة كؤود.

والمسلمون في حاجةٍ إلى الإدراك الواعي بعمق مفهوم الرجاء في الرسالة الإسلامية ولا رجاء للمسلمين في شرق ولا غرب، ولا في مذاهب دبجها سيطرة الفكر البشريّ. فالرجاء كلّ الرجاء في الله سبحانه وتعالى، وفي رسالة

الإسلام التي جاءنا بها الرسول الصادق الأمين.

ولعلنا ندرك بوضوح، أن الله سبحانه وتعالى ربط المسلمين برسالة الإسلام، وبالاقتداء بصاحب الرسالة الكبرى، محمد، حتى لا يضلّ المسلمون الطريق السليم، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١].

ومن هنا، كان كلّ فردٍ من أفراد الأمة الإسلامية الراجين لله سبحانه وتعالى صورةً حيّةً لحياة الرسول الصادق الأمين، بياناً وجهاداً وعبادةً وثباتاً وإقداماً وحزماً. ولو يعلم الناس ما لدى الله تعالى من فضلٍ ورحمةٍ لأهل خشيته والخوف منه والإجلال له وأصحاب القرب منه، واللّجوء إليه والرجاء فيه، لأوغلوا في ذلك، وألحنوا فيه، وأكثروا من طمعهم في الله. ويوم أن كان المسلمون يرجون الله سبحانه وتعالى وحده كانوا سادة الدنيا بحق، وكان العدو يتهيّب بأسهم ويخشى سلطانهم وكان الشرق والغرب يعمل لهم ألف حساب.

ثامناً: الأمة الإسلامية والعمل على تقريب المذاهب:

قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]. وقال تعالى: {وَلَتَكُنْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٧١].

وقد يكون واضحاً أن من المسلّم به أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، وإن اختلفت شعوباً وقبائل، وتباينت لساناً وألواناً؛ لأن الإسلام الحنيف ربط بين المسلمين برباط الأخوة الدينية التي تزول معها جميع الفوارق، دعوة

الرسول ' إلى الأخوة الدينية جعلت المجتمع الإسلامي وحدة مؤتلفة. ولقد كان من فضل الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية أن يسر لها طريق الوحدة الكاملة، والرابطة القويّة، والتجمّع الهائل، بما أرسل لها من رسول رحيم، وبما أعطاه من كتاب كريم، فكانت أخوة المسلمين فوق كلّ الحواجز، الجنسيّة، والعرقية، والقوميّة، والحزبيّة، والسياسيّة. هذه الأخوة ربطت بين المسلمين ووحدت صفوفهم، وجعلتهم أمة واحدة؛ لأنّهم يملكون: وحدة الأصل الإنسانيّ، وحدة العقيدة، وحدة مصدر التشريع، وحدة العبادات والقيم، وحدة المبادئ والأخلاق، وحدة الأهداف، والغايات، والمصير، والرسالة، والأعراف.

ويوم أن كانت الأمة الإسلاميّة تدرك هذه القيم كان لها شأنها واعتبارها، إلّا أنّ الأمة عاشت ألواناً من الصراع حال دون وحدتها بصورة فاعلة، ممّا كان سبباً في أن تعدو عليها أمم تتربّص بها تريد الهيمنة عليها، ومنعها من أن تكون قوّة تُعلي كلمة الله في دنيا الناس. وتمثّلت بعض ألوان الصراع في التعصّب المذهبيّ الأعمى الذي فرّق المسلمين طوائف على الرغم من وحدة الأصول بين المذاهب الكلاميّة والفقهيّة، وأنّ الاختلاف بينها اختلاف في مسائل فرعيّة وقضايا جزئيّة. وهو اختلاف لا ينبغي أن تتمخّض عنه خصومات وصراعات؛ لأنّه في جوهره مظهر من مظاهر الحرّيّة الفكرية في الإسلام، وآية من آيات صلاحية الإسلام لكلّ زمان ومكان.

وفي العصر الحاضر، دعا كثير من العلماء الغيورين على مصالح الأمة الإسلاميّة إلى التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، كلاميّة وفقهيّة وغيرهما، حتى ندرأ عن الأمة تلك الأخطار المحدقة بها من كلّ جانب، والتي تحارب المسلمين في تكاليف مسعور. وقد كان من آثار دعوة العلماء إلى التقريب:

- تأسّست جماعة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة في القاهرة سنة ١٩٤٩،

وكان أعضاؤها كبار العلماء.

- صدر أول عدد من مجلة رسالة الإسلام الناطقة بلسان التقريب في ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ.

- واستمر صدور رسالة الإسلام من القاهرة. وكان لها أثر طيب في مجتمعات المسلمين، وأوشك صدورها الثاني على الظهور في ظلال دار التقريب في القاهرة.

- قامت أول ندوة في الأزهر بكلية الشريعة تحت عنوان (التقريب بين المذاهب الإسلامية) في رمضان ١٣٨٤هـ الموافق ١٩٦٥م.

- صدر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية كتاب (دعوة التقريب) سنة ١٩٦٤م.

- تأسس في طهران (مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية) انطلاقاً من العمل المخلص لوحدة الأمة الإسلامية.

- أقامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بالمغرب ندوة حول التقريب بين المذاهب الإسلامية في ٩ - ١١ ربيع الأول ١٤١٢هـ الموافق ١٦ - ١٨ سبتمبر ١٩٩١م.

- في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وفي نهاية الستينات، اتفق علماء المذاهب الإسلامية على إصدار موسوعة جمال عبد الناصر في الفقه الإسلامي، وصدر منها حتى الآن ٢٨ مجلداً تشمل مذاهب الإباضية والزيدية والإمامية والظاهرية بجانب مذاهب أهل السنة وصار اسمها: موسوعة الفقه الإسلامي، ومن نعم الله على الكاتب أن كان مصححاً ومراجعاً لهذه الموسوعة فاستفاد منها كثيراً.

- أصدر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة كتاباً تحت عنوان (دعوة التقريب تاريخ ووثائق) سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

- وعلى طريق التقريب، أقامت الندوة العلمية بكلية الشريعة والدراسات

الإسلاميّة بجامعة قطر في عهد الدكتور عبد الحميد الأنصاريّ عميد كليّة الشريعة في ٢٢ جمادّي الثانية ١٤١٢هـ الموافق ١٧/١٢/١٩٩٢ ندوة عن الشيعة والسنة، وكان الكاتب قدّم بحثاً وشارك في هذه الندوة.

- وعلى طريق (التقريب بين المذاهب الإسلاميّة في بيروت) أصدرت دار التقريب إصدارها الأوّل تحت عنوان (مسألة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة) وكان ذلك في أوّل عام ١٤١٥هـ.

- وعلى طريق التقريب، أقامت مملكة البحرين مؤتمراً للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة في مملكة البحرين ٢٣ - ٢٥ رجب ١٤٢٤هـ الموافق ٢٠ - ٣٢ سبتمبر ٢٠٠٣م.

إذاً، الأمة الإسلاميّة قطعت مسافة لا بأس بها في ثقافة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، ويحسن أن أشير إلى أنّه ليس من الكياسة أن نفهم من التقريب بين المذاهب الإسلاميّة الكلاميّة التوافق بين هذه المذاهب، وليس من الكياسة كذلك أن نفهم من التقريب أن يتحوّل المعتزليّ إلى أشعريّ، والإماميّ إلى معتزليّ، أو يتسنّن شيعيّ أو يتشيع سنّيّ؛ لأنّ كلّ ذلك ليس وارداً، إنّما المراد من التقريب: استثمار ما وصلت إليه المذاهب الإسلاميّة الكلاميّة والفقهيّة، للوصول إلى انطلاقة الفكر الإسلاميّ وبيان سعة أفقه وقدرة هذا الفكر على التصديّ والمواجهة لكلّ التيارات المناوئة للإسلام.

إذاً: التقريب أن يتحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلّا بها، وأن ينظر الجميع فيها وراء ذلك نظرة من لا يبتغي الغلب، ولكن يبتغي الحقّ والمعرفة الصحيحة، فنحن جميعاً نؤمن بالله ربّاً، وبمحمدٍ ' نبياً ورسولاً وبالقرآن كتاباً وبالكعبة قبلّةً وبيتاً محجوباً وبأنّ الإسلام مبنيّ على القرآن الكريم والسنة النبويّة، وبأنّه ليس بعده دين، ولا بعد رسوله نبيّ ولا رسول، وبأنّ كلّ ما جاء به محمد ' حقّ: فالساعة حقّ،

والبعث حقّ، والجزاء في الدار الآخرة حقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ. وما اختلفت فيه المذاهب فحكمه إلى الله ورسوله، أي: الأمة الإسلامية متفقة على أسلوب الخلاف، إذًا: الأمة الإسلامية - وإن اختلفت فيها المدارس الفكرية - تملك أسساً مشتركة تستطيع بها أن تجمع شتاتها، وتوحد كلماتها، وتواجه تحديات الأعداء. فهي أمة واحدة، ذات دين واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد، هذه الأصول الثابتة التي تشترك فيها الأمة الإسلامية. فإذا أدركتها جيداً، والتزمت بمقتضياتها، فإن ذلك يجعل منها أمة واحدة، تلتقي على وحدة الغاية. ووحدة المنهج. ووحدة القيادة. ووحدة العقيدة. ووحدة الأعراف.

وهذه الحقيقة يجب أن تتضح في أذهان المسلمين، إذ بقدر وضوحها والتزامهم بها، بقدر ما يتيسر للأمة الاجتماع والالتقاء حول تصحيح المفاهيم. والعقيدة هي الأساس الذي يرتفع عليه بناء الدين، فإذا قوي الأساس سهل على الأمة تصحيح أوضاعها، وأمكن لها الاجتماع واللقاء. وحين تكون العقيدة واضحة في الأذهان، مشرقة في القلوب، تزول الحواجز والمعوقات التي قامت بين الأمة.

فالحقّ كلّ الحقّ: أنّه لا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا، فإن الاختلاف سنة من سنن الاجتماع، وضرورة حياتية، ولكن الضرر في أن يُفرضي بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوة التي أثبتها الله في كتابه العزيز، لا على أنّها شيء يؤمر به المؤمنون. لكن على أنّها حقيقة واقعة، رضي الناس أم أبوا: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ^١ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠]. فالخلاف فيما يتعلق بالعقائد، لم يتجاوز الحدّ النظريّ، ولا الاتجاه الفكريّ، فإنّ العلماء الذين تصدّوا لهذا لم يجرّ بينهم خلاف أدّى إلى امتشاق الحسام، وطبيعة حياتهم العلمية لا تسمح لهم بأن ينقلوا الخلاف من ميدان القول إلى ميدان العمل. ولم يكن الاختلاف النظريّ ليصل في حدّته إلى أن يجعلوه عملياً، ولم

تُظهر الحدة إلّا في أن يحكم كلّ واحدٍ على الآخرين بالخطأ والابتداع. ومهما يكن مقدار الخلاف النظريّ في العلوم الاعتقاديّة، فإنّه لم يمسّ لبّ الإسلام، ولم يكن الاختلاف فيما علم من الدين بطريقٍ قطعيّ، ولا شكّ فيه أو في أصلٍ من أصوله التي لا مجال لإنكارها، والتي تعدّ من أركان الإسلام التي يقوم عليها بناؤه. فالخلاف حول أوائل المقالات أو المعارف الكلاميّة، يجري حول معارف إسلاميّة، تُبلور كثيراً من الحقائق، وتصلّق العقول والأفهام، وتُحدث باحتكاكها وميضاً يكشف سبل البحث وطرائق الاستدلال.

تلك هي خلافات المذاهب الإسلاميّة الكلاميّة، وهي في باطنها تشير إلى الوحدة، لا إلى الفرقة، وتُنبئ عن الإجماع، لا عن التشتّت. فلم يكن الاختلاف في وحدانيّة الله تعالى وشهادة أنّ محمّداً رسول الله ، ولا في أنّ القرآن نزل من عند الله العليّ القدير، وإنّه معجزة النبيّ الكبري، ولا في أنّه يُروى بطريقٍ متواترٍ نقلته الأجيال الإسلاميّة كلّها، جيلاً بعد جيل، ولا في أصول الفرائض كالصلوات الخمس والزكاة والحجّ والصوم، ولا في طريق أداء هذه التطبيقات. وبعبارةٍ أخرى: لم يكن الخلاف في ركنٍ من أركان الإسلام، ولا في أمرٍ علم من الدين بالضرورة، كتحرّيم الخمر والخنزير وأكل الميتة، والقواعد العامّة للميراث، وإنّما الاختلاف في أمورٍ لا تمسّ الأركان، ولا الأصول العامّة. إنّ هذه الخلافات في جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق، فهي ترتبط بأصلٍ واحد، وهو الكتاب والسنة.

ومدارس الفكر المختلفة داخل الإسلام شيء طبيعيّ مرغوب فيه، ليس منه بدّ ما دام الإسلام ديناً حيّاً، لا حياء، لكي يزدادوا حياة. والإسلام نفسه شحنة هائلة من النشاط العقليّ، تأبى أن يتحوّل المسلمون إلى مجرّد نسخٍ متطابقة تتكرّر باستمرار وبلا اختلاف، من عقلٍ واحد، أيّاً كان هذا العقل، حتى لا يهلك المسلمون من الإجداب والرتابة والركود والشعور بالقدم.

وليس يُرضي الإسلام أنّ تلك الأمتّات المسلمات إمّعات مكرّرة معتمدة، وإنّما يرضيه ويعليه إنجاب العقول اليقظة النشطة. وبكلّ تأكيد، ستظلّ المذاهب الكلامية، ومدارس الفكر في الإسلام، توجد، ما بقي للمسلمين حاجة إلى التعبير عن تراثهم العقلي والروحي، وإلى استدامة الصلة بين أصول دينهم، وبين واقع الحياة.

وليس من مصلحة الإسلام والمسلمين كبت النشاط العقلي والروحي داخل الإسلام؛ لأنّ من أجلّ ما يقدّمه المسلم لدينه أن يفكر فيه ويشعر به، والإسلام يضعف ويصبح تراثاً جامداً محطّاً إذا لم يفكر فيه ويشعر به إلا الحمقى والجهلاء والعملاء. والمنهج العقلي كتيار فكري، كان لا بد من ظهوره، وذلك لمجابهة التحديات الفكرية التي لاقاها الإسلام عندما امتدّ سلطانه، وعندما اشتدّ الصراع الفكري بينه وبين أصحاب الأديان الأخرى. لقد فتح الإسلام كقوةً سياسية أرض الديانات القديمة، وأثبت كيانه فيها، إلا أنّ الإسلام كتصوّر روحي خاصّ استمرّ يناضل فكرياً أهل الأديان والعقائد المختلفة.

لمدة طويلة اشتبك خلالها المخلصون أصحاب العقليّات في حربٍ ضروس مع أصحاب الأهواء والبدع، والزنادقة، والدهريّة، والمشبّهة، والحلوليّة والغنوصيّة، مثّلوا فيها معارضةً فكريةً قويّة، صانوا فيها البناء الروحي والفكري للإسلام من خطر تلك الآراء التي أرادت أن تشوّه صفاء العقيدة الإسلامية. والأمة الإسلامية في عقليّتها التي انطلقت من دعوة القرآن لم ترفض الوحي، ولم تتنكر للنصّ المأثور، وأيضاً، فهي لم تقف لتتعبّد بالنصّ المأثور دون وعي، وإنّما أخذت بالنقل والعقل، فليس من مصلحة المسلم ترك الضحالة والمحاكاة والرتابة والآلية تطمر أعماقه، وتأكّل إرادته.

ومن سبل الوعي: أن ندرك أنّ الخلاف والاختلاف ضروريّ؛ لأنّ ورود المتشابه في القرآن، كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ

تُحْكَمَتْ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخِرُ مُتَشَبِّهَاتٍ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {آل عمران: ٧}، كان سبباً في اختلاف العلماء. فالعلماء لم يختلفوا على تنزيل القرآن، وإنما اختلفوا على تفسيره، أي أنهم - كما يقول الزمخشري - متفقون على نصّه، ولكنهم يختلفون في تفسيره. فالقرآن الكريم فيه محكم ومتشابه، ولو كان القرآن كلّهُ محكماً لتعلق الناس به؛ لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجونه فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولارتكنوا على طريقة التقليد.

إنّ وجود متشابه الآيات، أدعى إلى أن يشحذ الناس الفكر للاستنباط، ويكدّوا في معرفة الحقّ خواطرهم، وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه. وما في ردّ الآيات المتشابهة إلى المحكم من الفوائد الجليلة، والعلوم ونيل الدرجات عند الله.

ويعلّق بعض العلماء على ما ذكره الزمخشري فيقول: وهكذا ألمح الزمخشري إلى عاملٍ من أهمّ عوامل ازدهار الحضارة الإسلامية عقب قيام الإسلام، إذ ألزم القرآن المسلمين بما غمض من معاني آياته، وبمحكمه ومتشابهه، البحث والنظر والتفكير والاستنباط. ولو كان سهل المأخذ، يسير الفهم لكانت السطحيّة التي تُغري بالتقليد والجمود، فالاختلاف قرين حرّيّة الرأي والتفكير.

وإذا كان الاختلاف يخرق جميع الأمم والملل والمعرفة، فإنّ للاختلاف الذي وقع بين المذاهب بنيته الأصلية المستمدة من خصوصيّة النصّ القرآنيّ والحديث البيانيّ. ونعني بالخصوصيّة هنا: ما منح النصّ القرآنيّ إعجازه، وما امتاز به على سائر النصوص، فالخطاب القرآنيّ كلام تتّسع معانيه وتتعدّد وجوه الدلالة فيه. إنّه كلام لا يمكن استقصاء معانيه أو حصر دلالاته، يقول الزركشي: معاني

القرآن لا تُستقصى، ولا نهاية لفهم كلام الله، ولا يمكن لأحد أن يقبض عليه، أو يفوز بحقيقته.

من هنا تباينت التفاسير، واختلفت الطرق والمذاهب، والفرق، والمقالات. إذاً نحن إنَّما نحتاج، أوَّل ما نحتاج إليه، إلى الإعلان عن حق الاختلاف الذي هو حق من حقوق الإنسان، إن لم يكن أبرزها حتى يكون اختلاف الآخر عن الأنا أمر لا جدال فيه، أي: حتى يتم قبول كل فريق بالفريق الآخر، كما هو معتقده ومذهبه.

وما دمنا لم نصل إلى الوحدة لعدم اعترافنا بحق غيرنا. فالأولى أن نعترف بذلك، فإنَّ وحدة تحاول أن تستتبع الآخر، أو تُلحقه أو تقهره وتستبد به وتكفره، لن تعمّر طويلاً، وسرعان ما يتصدّع بناؤها. كذلك، فإنَّ الخطاب الذي لا يزيد عن تكرار أجوف لهويّة فاقدة لمقوماتها لن يصنع وحدة قط، هكذا ينبغي للجميع أن يقرّوا بأن الاختلاف ضرورة، معترفين ببعضهم وبأن الواحد هو شطر الآخر، وبأنَّ العقائد والمذاهب هي وجوه لحقيقة واحدة. والاعتراف بحق الآخر، وبأنَّ له حقيقته وقسطه من الوجود، يتطلّب ذهنًا مفتوحاً وعقلاً نيراً.

ولا يخفى: أن المسلمين إذا نجحوا في الإقرار بالاختلاف، وأنَّه ضرورة من ضرورات الحياة، استطاعوا أن يبدأوا السير في الطريق الصحيح. وحسب الأمة أن تستثمر اللقاء على أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلّا بها، ثم تعي بعد ذلك دور العقل الإسلامي وانطلاقاته.

وندرِك بوضوح أنَّ الخلاف والاختلاف ضرورة حيائية وحضارية، والأمة الإسلامية كانت، وما زالت، تملك رصيдаً ضخماً من الأصول والقواعد، يمكن الأمة من تنمية فلسفتها الخاصة بها، ومن أن تجمع شملها، وتوحد صفوفها. وقد أتمَّ الله على الأمة وحدة الأصل الإنساني، ووحدة العقيدة، ووحدة

المصدر، ووحدة الشعور، ووحدة الصف، ووحدة العبادات. نعم، اختلاف العلماء المجتهدين رحمة بالأمة الإسلامية سواء في العقائد أو في الفقه. ولا يخفى: أن أهل القبلة جميعاً يؤمنون بقول الله تعالى: {وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: ٥٢]. فلا خصومة أبداً بين المسلمين وبين أية طائفة من طوائف (لا إله إلا الله) سواء كانوا حنفيّة أو مالكيّة أو شافعيّة أو حنابلة أو زيدية أو إمامية أو ظاهريّة أو إباضية أو غيرهم؛ فإنّ الاختلاف في الفروع ضرورة طبيعيّة، ويستحيل استحالة مادّية جمع الناس على مذهب واحد أو رأي واحد في مسائل ظنيّة هي موضع نظر واجتهاد إلى يوم القيامة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود: ١١٨]. وما دام مرجع الجميع كتاب الله وسنّة رسوله، والخلاف في الفرعيّات ناتج عن الفهم والتوجيه والترجيح وطلب الحقّ، فلا خصومة قطّ، وإنّما هو التناصح على بساط الحبّ في الله، والاقتراب ممّا هو أهدى وأجدى إيماناً واحتساباً. وقد اختلف الصحابة والنبيّ معهم والوحي ينزل.

* * *

الهوامش:

- (١) عزّ الدين الخطيب التميمي وآخرون، نظرات في الثقافة الإسلامية: ص ٣١، ط دار الفرقان، عمّان ١٩٨٤م، الأردن.
- (٢) توماس إلاكوييني، وُلد سنة ١٢٢٦م، وتوفي سنة ١٢٧٤م، ويعتبر من أعظم الفلاسفة واللاهوتيين في العصر المدرسيّ المسيحيّ، وفي ١٣٢٣م منحته الكنيسة الكاثوليكية لقب «القدّيس».
- (٣) مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلاميّ: ص ٨، ط دار الإرشاد، ١٩٦٩م، بيروت.

- (٤) مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: ص ١٨٧ - ١٨٨، ط دار المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ، بيروت ودمشق.
- (٥) د. غوستاف لوبون، حضارة العرب: ص ٢، ٤، ترجمة عادل زعير، الطبعة الثانية، ١٩٤٨م.
- (٦) لوثوب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي ١: ٦٠، ترجمة نويهض.
- (٧) راجع: نادية شريف العمري، أضواء على الثقافة الإسلامية: ص ١٦٤، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ، بيروت.
- (٨) إبراهيم النعمة، الإسلام أمام تحديات الغزو الفكري: ص ١٢.
- (٩) أنور الجندبي، المد الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري: ص ١٢٦، ط دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٨٢م.
- (١٠) توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠٤ - ٧٠٥.
- (١١) ن. م. ص ٧٠٧، وانظر كذلك: نجيب الكيلاني، الإسلامية والقوى المضادة: ص ١٤٢، ط مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ.
- (١٢) توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠٧، وراجع: أنور الجندبي، المد الإسلامي في القرن الخامس عشر: ص ٢٨٦.
- (١٣) انظر: الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي: ص ٥١ - ٥٢، بتصرف، ط دار الفكر، ١٩٧٣م.
- (١٤) ن. م. ص ٥١.
- (١٥) راجع: هامش ص ٥٢ من المصدر السابق.
- (١٦) ن. م.
- (١٧) انظر: محمد قطب، واقعا المعاصر: ص ٣٤٣، ط مؤسسة المدينة، ١٤٠٧هـ، جدة.
- (١٨) توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٦٨٥.
- (١٩) أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية: ص ١٥٠.
- (٢٠) انظر: الشيخ محمد الغزالي، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: ص ١١٠، ط دار الشروق، بيروت.
- (٢١) ن. م. ص ١١٣.
- (٢٢) توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٦٩٦.
- (٢٣) ن. م. ص ٦٩٨.
- (٢٤) انظر: الدكتور عبدالرحيم السايح، معارك حاسمة في حياة المسلمين: ص ١٥٤ - ١٥٥، ط دار

- اللقاء، ١٤٠٩هـ، السعودية.
- (٢٥) عباس محمود العقاد، العقائد والمذاهب ١١: ٤٠٢، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- (٢٦) ن. م. ص ٤٣١.
- (٢٧) انظر: الدكتور أحمد السايح، عباس محمود العقاد فيلسوفاً، (رسالة ماجستير)، ص ١٦٦.
- (٢٨) انظر: محمد أمين حسن، خصائص الدعوة الإسلامية: ص ٢٥٧، ط مكتبة المنار، الأردن.
- وانظر كذلك: الدكتور أحمد السايح، العقيدة والإنسان، مجلة الخفجي، السنة العشرون، العدد الأول، ص ٥٤-٥، أبريل ١٩٩٠م، السعودية. وانظر كذلك: أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٢١٨، ط دار الكتاب العربي ١٤٠٤هـ.
- (٢٩) توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية: ص ٧٠١-٧٠٢.
- (٣٠) د. أحمد السايح، العقيدة في الإسلام، مجلة جواهر الإسلام، العددان الثاني والثالث، ص ١٦، من السنة الثانية، ١٣٩٦هـ، تونس.
- (٣١) ن. م.
- (٣٢) أحمد محمد جمال، الدين فطرة وميثاق، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة ١٣٨٩هـ، ص ٢٠٠، ط رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- (٣٣) د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٨.
- (٣٤) ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة عن الألمانية للدكتور عبد الرحمن بدوي، ص ٥، ط دار الأندلس، ١٤٠٠هـ، بيروت.
- (٣٥) ن. م. ص ١٨.
- (٣٦) د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٨.
- (٣٧) د. ماهر عبد القادر محمد، المشكاة: ص ١٦٦، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م.
- (٣٨) د. محمود حمدي زقزوق، دور الإسلام في تطوّر الفكر الفلسفي، ص ٩، ط مكتبة وهبة، القاهرة.
- (٣٩) ن. م.
- (٤٠) د. علي أحمد مدكور، الثقافة والحضارة في تصوّر الإسلامي، مجلة الدارة، العدد ٤، ص ٥٢، السنة ١٤، السعودية، ١٤٠٩هـ.
- (٤١) سيّد قطب، معالم في الطريق: ص ١٣١، ١٣٣.
- (٤٢) ن. م. ص ١٣١.
- (٤٣) د. علي أحمد مدكور، الثقافة والحضارة في تصوّر الإسلامي، مجلة الدارة، ص ٩٩، مصدر

متقدّم.

(٤٤) عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها: ص ١٢٢، ط دار القلم، دمشق، ١٤٠٠هـ.

(٤٥) انظر: د. محمد عبدالرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي: ص ١٢٥، ط منشورات عويدات، ١٩٨٢م، بيروت، فرنسا.

(٤٦) د. محمود قمبر، هديّة العلم في الإسلام، مجلّة حوليّة كليّة التربية، العدد ٨، ص ٦٣، ١٤١١هـ، جامعة قطر.

(٤٧) د. أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٧٩.

برسم الإفراط والتفريط

أعياد مع وقف التنفيذ

□ د. نضير الخزرجي (*)

التهنئة

يقع مستقبل البشرية على خطّ استواء الحياة، يصعد شمالاً نحو قطب الرجاء، وينزل جنوباً نحو قطب الخوف، وبين هذين الخطّين تتقلب حياة المرء بين مواسم الأمل والألم، وفصول الفرح والترح، يعمل ويتقاعد، يجهد ويستريح، يقعد وينام، يجد ويلعب، فهو في دائرة كهربائية متواصلة تظهر فعاليتها من اجتماع السالب والموجب، فالمصباح لا يسمّى مصباحاً ما لم يتفاعل الخطان المتضادان، والحياة لا تُسمّى حياةً ما لم تتفاعل الأضداد، فالمرء لا يأنس بدفء الحرارة ما لم تعض البرودة جسده، ولا يعرف السعادة ما لم يتذوق مرارة الحياة، فالسعادة عملية نفسية تراكمية تنقل الإنسان إلى ظرف جديد يتحسّس فيه التغيير، وقد يتسع حجم السعادة لتشمل الدوائر القريبة من أهل وعشيرة، ويتسع أكثر لتشمل المجتمع.

وأفضل السعادات وأرقاها اجتماعياً تلك التي يتسع مداها لتضمّ أوسع

(*) إعلامي وباحث عراقي/ لندن.

الناس، ولذلك تبانت المجتمعات والعقائد والأديان على توفير فرص زمنية أو مكانية، أو كليهما معاً، للسعادة الجماعية التي تُخرج الأمة من رتابة الحياة وكدها ونصَبها، إلى بحبوحة من العيش الهنيء، ولو لفترة، تستعيد معها الأمة نشاطها وحيويتها، ولذلك، كانت الأعياد الدينية والقومية والوطنية فرصة طيبة للشعور بالفرح والحبور، وبخاصة لأولئك الذين صرفتهم متاعب الحياة ومشاغلها عن تلمس راحة الحياة وكرمها وفيضها، فيسعد الجميع كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، راعيهم ورعيهم.

فالعيد مناسبة طيبة لتنشيط دورة الحياة وتفعيلها، فظاهرها الاستراحة والدعة، وحتى في تعبها راحة، فالتنقل والسفر وصرف الأموال لزيارة الأهل والأقرباء والأصدقاء يعتبر من الناحية الاقتصادية هدراً للمال والزمن، ولكن في العرف الاجتماعي، تمثل هذه الحركة شداً في لحمة المجتمع، وتجديداً للدماء في شرايينه، وتحريكاً للمياه الاجتماعية الراكدة، فإسعاد الأب لأسرته راحة، وإدخال الفرحة في بيوت الأرامل والثكالى والأيتام سعادة ما بعدها سعادة، وإكرام الضيف سعادة، وإغناء الفقير سعادة، وإنارة الأزقة فيه إدخال للبهجة في قلوب الأطفال وعموم الناس، فكل فعل منضبط على طريق إنعاش النفوس، وبخاصة في المناسبات والأعياد هو أداء راقٍ يوافق الشرع، ويرضاه العرف، ويتقبله المجتمع.

ولكن هل يقف الشرع الإسلامي أمام الأعياد والاحتفال بها؟
مثل هذا السؤال الذي يتقلقل في صدور البعض، يجب عليه المحقق الدكتور الشيخ محمد صادق بن محمد الكرباسي في تصنيفه الفقهي الجديد «شريعة العيد» المنضود فقراته من ١٥٩ مسألة شرعية، والصادر حديثاً عن بيت

العلم للنابهين بيروت في ٨٨ صفحة من القطع الصغير، بتقديم و١١٣ تعليقا للقاضي الشيخ حسن رضا الغديري.

فالأعياد، دينية كانت أم وطنية، جمعية أم فردية، تعلوها غمامة الحبور؛ لأن الحياة هي إحياء للنفوس المتعبة وإحياء للموات من الإرادات المعطلة، وإماتة للأعراف التي تنسجها عنكب التعاسة، وبخاصة في المنظور الإسلامي الذي يرى أن العمل الصالح عيد، وإصلاح الفاسد من أمور الناس عيد، ودفع الضرر عن المجتمع عيد، ودحر جحافل الهموم وتشتيت غمومها عيد، والحاكم الصالح عيد، والقاضي العادل عيد، والموظف العامل الأمين عيد، والجمعيات الخيرية الفاعلة عيد، ومؤسسات المجتمع المدني الناشطة عيد، فكل صغيرة أو كبيرة تصب لصالح الفرد والمجتمع بما لا يخالف الشرع والعرف هو عيد سعيد؛ لأن زرع طريق الناس بورود المحبة والخير سعادة، ودس أشواك الكآبة تحت مدعى العبادة تعاسة.

ويؤذي الكرباسي أسفه الشديد: «أن تكون هناك شريحة من الناس تعني بالذكريات الحزينة ولا تهتم بالذكريات البهيجة، وقد أشاعت الحزن بين الناس وسلبت البهجة من قلوبهم حتى آل الأمر أن شبابنا ابتعدوا عن الدين، وتركوا الحضور إلى المجالس الدينية حيث وجدوها كلها مواسم حزن وبكاء، مخالفين بذلك نص الأحاديث الشريفة التي وردت في إحياء هذه الذكريات المباركة والشريفة».

ومن يكن شغله شاغل نشر الغم، ولا ينزع عنه لباس الحزن؛ فإنه - ولا شك - ينقل للآخر رسالة غائمة عن الإسلام، وحسب الدكتور الكرباسي سيكونون: «سببا في مزيد انتقاد الأعداء والمتربصين بالإسلام، إذ اشتهر منهم أن الإسلام دين الحزن والكآبة، ودين لا يتماشى مع العصر، مما دفع ببعض المسلمين إلى الوقوع في التفريط بسبب إفراطهم، ونسوا أن ديننا الحنيف دين الوسط،

ودين تطوّر يناسب كلّ عصر وكلّ مكان، وفيه الثابت والمتحرّك، ممّا جعله يفوق كلّ الأديان ويرتقي على جميع الحضارات»، ولهذا يؤكّد على الاحتفال بالأعياد الإسلاميّة الأربعة: (عيد الأضحى المبارك، عيد الفطر المبارك، عيد الغدير الأغرّ، عيد الجمعة الجامعة)، حيث شُرّع عيد الفطر في السنة الثانية من الهجرة، كما أنّ الأضحى شُرّع في السنة الثالثة^(١)، كما أنّ «هناك مناسبات أخرى يمكن تسميتها - بالإصطلاح الحديث - أعياداً، كموايد المعصومين^٨ وذكرى البعثة والإسراء والمعراج وما إلى ذلك».

وإلى جانب الإفراط في مساحات الحزن، هناك التفریط في ميدان الفرح، فقد حرّم البعض على الناس تنفّس الهواء العليل، والابتهاج بالأعياد ووضع الزينة، فالعبوسة عندهم دين يدان به، والمرح عندهم ضلال، وكلّ ما يبعث على الجهور هو من وساوس الشيطان، ومثل هذه الشريحة، كما يقول الكرباسيّ: «طغى عليها الجمود الفكريّ، مع الأسف، فأخذوا يحرمون كلّ مظاهر الحزن والفرح معتمدين على أقوال شاذّة تاركين وراء ظهورهم فعل الرسول^٩ وأهل بيته^٨ متمسّكين بعمل بعض الصحابة في تعاملهم بالقسوة والجفاء ممن لم يكونوا من أهل بيت الوحي والرسالة».

ومن المفارقات أنّ البعض يشدّد على المناسبات الدينيّة في أحكامه ويتغافل عن المناسبات الوطنيّة في بلده، فعلى سبيل المثال: يقلّل مثل هذا البعض من أهميّة الاحتفال بذكرى ميلاد النبي الأكرم^٩ ويضرب صفحاً عن الاحتفالات الوطنيّة، من قبيل اليوم الوطنيّ للبلاد، مع أنّ الاحتفال بذكرى صاحب الرسالة إحياءً للنفوس وتذكيراً للأمة بنبيّها، وتذكير للبشريّة برسول الرحمة الإنسانيّة، بل إنّ تذكّر صاحب الرسالة الخالدة^٩ في يوم ميلاده هو

مصدق للمودة والمحبة وإشعار وإشهار بعمق الولاء، كما أن الاحتفال بالمناسبات الوطنية ليس فيه ضير، ولكن ما يصح في المناسبات الوطنية، فمن باب أولى يصح في المناسبات الدينية، ولذلك، فإن الكرباسي الذي يدعو إلى إحياء المناسبات الدينية يرى في الوقت نفسه أن «المناسبات الوطنية إذا لم تكن منافية للعقيدة، لا إشكال في إحيائها».

ولا يقدر بفكرة الابتهاج بميلاد المعصوم أن يحتفل الآخر غير المسلم بنبئه، فليس هذا من التشبه بالآخر ليكون بدعة محرمة، وإذا كان الآخر لا يقر لخاتم الرسل بالنبوة، فبالقطع، فإن المسلمين يقرّون لرسول الآخر بالنبوة، بل يذهب الشّيخ الكرباسي أكثر من هذا إلى جواز الاحتفال بأعياد الآخر ما لم يخالف العقيدة، إذ «يجوز إحياء ذكريات أول السنة من التقاويم المختلفة، شرط أن لا تكون المناسبة مخالفة للعقيدة، وذلك مثل إحياء رأس السنة الميلادية، ورأس السنة الشمسية»، ويرى أنه «لا إشكال في إحياء ذكرى ولادة الأنبياء السابقين كالنبي إبراهيم وموسى وعيسى^٨، ولكن على الطريقة الإسلامية، بمعنى: عدم الانخراط في تقاليد الأديان الأخرى المنافية للإسلام».

ومثل هذه المناسبات، كما يعلّق الشّيخ الغديري، «يمكن أن نعتبرها موعداً سنوياً لتجديد العهد مع الربّ الرحيم بطاعته، والالتزام بامثال أوامره، واجتناب معاصيه، ولا خصوصية ملحوظة فيها إلا ذلك، إلا إذا عدّ الاهتمام باحتفال رأس السنة في تقويم خاص من مصاديق إعانة أعداء الدين، فلا يجوز، والواقع الخارجي ليس كذلك، بل وفي الحساب السنوي الشمسي أو القمري أو الميلادي أو الهجري تذكر وتذكير بأيام الله تعالى، فيشمله قول الله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]، {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّنِمْ

اللَّهُ} [إبراهيم: ٥].»

ويرى الغديري الوجوب من بعض الوجوه للاحتفال بمواليد الأنبياء

السابقين على طريق هدايتهم بعدما شاب دينهم التحريف، ولذلك فإن «إحياء ذكرى مواليدهم - الأنبياء ^ - بقصد هداية المدّعين لأتباعهم قد يكون واجباً، خاصّة في هذا العصر الذي نعيش فيه، ووسائل الإعلام الغربيّ تتهم الأُمّة الإسلاميّة بشتّى أنواع التهم الباطلة، فيجب على المسلمين الاهتمام الكبير في جلب الآخرين إلى معارف الدين الإسلاميّ الحنيف وإحياء ذكرى ولادة الأنبياء السالفين ^، فهي من أحسن الأعمال وأسهل الطرق الموصلة إلى ذلك الهدف السامي».

ربما يتساءل المرء كيف يحتفل المسلمون بأعيادهم في البلدان غير الإسلاميّة؟ سؤال مشروع، لكون العيد من معالم المسلم أينما حلّ وارتحل، فلا أمر غير مقتصر على البلدان المسلمة.

وفي الواقع، من خلال التجربة، فإنّ المسلمين في البلدان الغربيّة من مهاجرين أو مواطنين خرجوا في السنوات الأخيرة بأعيادهم من المنازل إلى المساجد لتنتقل إلى الساحات العامّة، وفي بعض البلدان إلى الدوائر الحكوميّة كما في بريطانيا حيث يحتفل مجلس العموم البريطانيّ بعيد الفطر من كلّ عام بدعوة وجوه وشخصيّات إسلاميّة ومؤسّسات فاعلة، فضلاً عن اللقاء الجماهيريّ العامّ في ساحة الطرف الأغرّ وسط لندن الذي بدأ الاحتفال به منذ سنواتٍ قلائل، ومثل هذا أخذ دوره في بعض دول العالم، ومع أنّ الدول الغربيّة لا تعترف بعطلٍ رسميّة للمسلمين في أعيادهم، لكنّ البعض منها مثل بريطانيا بدأت تنفهم ذلك، ولذلك، وعلى سبيل المثال: تتساهل المدارس بخصوص تغيب الطلبة في عيدي الفطر والأضحى، على العكس في الأيام الأخرى، فإذا ما تغيب الطالب عن الحضور، تُجري إدارة المدرسة في اليوم نفسه اتّصالاً هاتفيّاً

مع الوالدين لمعرفة سبب تغيّبه أو تغيّبها، بل إنّ المدارس بدأت في السنوات الأخيرة تسأل الوالدين عن العيدين حتى تكون على بينة من تغيّب الأولاد، وبخاصّة في المدارس التي تشهد كثافة إسلاميّة ملحوظة.

وبهذا صار الاحتفال بالعيدين واحداً من معالم الحياة في بريطانيا عامّة، والغرب خاصّة، على أمل أن تتفهّم المجالس الغربيّة التشريعيّة ضرورة سنّ قوانين لاعتبار الأعياد الإسلاميّة عطلاً رسمية، ممّا يجعل الاحتفال بالأعياد أقرب إلى الوجوب منه إلى الجواز؛ لأنّه إذا عدّ عدم الإحياء من الجفاء، كما يؤكّد المحقق الكرباسيّ؛ فإنّه في هذه الحالة «يحرم عدم إحيائها، وحينئذٍ: وجب إحيائها بمقدار يصدق معه الإحياء»، بل ويذهب بعيداً إلى الوجوب: «إذا أصبح إحياء هذه المناسبات أو بعضها شعاراً للمسلمين، أو المؤمنين، أو وسيلةً للحفاظ على أصل العقيدة، وجب إحيائها، وكذلك إذا أصبحت وسيلةً لترويح الدين»، ولكن بشرط «إبعاد هذه المناسبات عن المحرمات كالغناء والعزف والرقص واختلاط الرجال بالنساء وتناول المحرمات»، وفي المقابل: «توزيع كلّ أنواع المشروبات [المحللة] والأطعمة والحلويات فيه أجر وثواب، وبالأخصّ إذا وزّعت على الفقراء»، ولهذا نجد بعض المؤسسات الإسلاميّة الخيريّة في بريطانيا على سبيل المثال، تُولم في شهر رمضان للفقراء وخاصّةً للمشرّدين من غير المسلمين كتعبير عن المحبة وإنسانيّة الإسلام في إعانة الفقير، وهو مشروع ينبغي أن يُعمّم لبيان أهميّة الإسلام في متابعة أحوال الإنسان من مسلم أو غير مسلم؛ لأنّ الإنسان أخو الإنسان، والناس كما يقول الإمام عليّ بن أبي طالب × في وصيّته للصحابيّ الجليل مالك بن الحارث الأشتر النخعيّ (ت ٣٧هـ) عندما ولّاه مصر: أنّ الناس «صنفان: إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق»^(١). وقد سُئل النبيّ محمّد : «من أحبّ الناس إلى الله؟ قال: أنفع الناس للناس»^(٢)، فالمبعوث إلى الناس رحمةً يتحدّث عن النظر في الخلق،

لا خصوص الأخ في الدين.

إن إقامة الاحتفالات وإحياء المناسبات الدينية والوطنية والاجتماعية تعتبر محطة للتزود النفسي والروحي، وهي دعوة للحياة، واغتنام مباحجها في الحدود المعقولة، ومن يحظر على الناس الفرح والسرور، يحظر عليهم استنشاق نسيم الحياة!

* * *

الهوامش:

(١) المجلسي، المولى محمد باقر، بحار الأنوار ٢٠: ٨.

(٢) نهج البلاغة، شرح الإمام محمد عبده ٣: ٦٠٥.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ٢: ١٦٤.

رسالة مفتوحة إلى إمام المسجد النبوي الشريف

في نقد خطبته بتاريخ ١٨ / ١١ / ١٤٣٠ هـ

□ الأستاذ: محسن الحيدري (*)

سماحة الشيخ عبدالرحمن الحذيفي إمام المسجد النبوي الشريف...
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

بعد الحمد لله والصلاة على نبينا محمدٍ ' وآله ^ ..

فإنني قد تشرفت يوم الجمعة ١٨ / ١١ / ١٤٣٠ هـ بالمسجد النبوي الشريف،
وشاركت في صلاة الجمعة التي أقمتموها ذلك اليوم، واستمعت إلى خطبتينكم
هناك، وحيث إنكم طرحتم قضايا أزعجت بعض المسلمين وأثارت أسفهم،
وأنا منهم، أحببت أن أصارحكم بنقد تلك القضايا.

لقد ركّزتم في الخطبة الأولى بعد أن أفضتم في الحديث عن الحجّ وفضله
ونشر التوحيد فيه على «أنّ المسلمين في هذا العصر في أشدّ الحاجة إلى اجتماع
الكلمة، وإلى تقوية أخوة الإسلام والتعامل والألفة والتراحم والتعاطف، ليقفوا
بتمسّكهم بدينهم في وجه المكائد التي تُوجّه ضدّ الإسلام».

ممثل خوزستان في مجلس خبراء القيادة/ إيران.

(*)

ولا شك أنّ هذا الكلام متين وقيم جداً، لكنّ المؤسف للغاية أنّكم حففتكم كلامكم هذا بعباراتٍ لا تُخدم الأخوة الإسلامية، ولا يهبّ منها نسيم الألفة والتراحم والتعاطف، ولا يُستشَمّ منها روح السماحة المحمدية، ولا يتأتّى منها الحفاظ على الحقائق الناصعة للتاريخ الإسلامي، بل هي تصبّ - للأسف - في مصبّ مصالح أعداء الإسلام والمسلمين.

وأشير هنا إلى نقاط أربع ركّزتم عليها في هذا المجال، مع ذكر تعليقاتٍ تتناسب وهذه العجالة:

:

قلتم في سياق ذكركم لخصائص الحجّ والحجّاج: «ولا يعتدي بعضهم علي بعض، إلّا ما كان من القرامطة الرّوافض الشيعة سنة سبع عشرة وثلاثمائة...»^(١).

ويلاحظ على كلامكم:

أولاً:

أنّ انتهاك حرمة البيت الحرام وسفك دماء ضيوف الرحمن لا ينحصر بجريمة القرامطة اللّعناء، فقد سبقهم الجيش الأمويّ، حيث دُمّر الكعبة الشريفة على عبدالله بن الزبير ومن تبعه، حينما اعتصموا في المسجد الحرام في القرن الأوّل الهجري^(١)، بعد مقتل سبط رسول الله ' أبي عبدالله الحسين × في كربلاء^(٢)، وبعد واقعة الحرّة وانتهاك حرمة مدينة الرسول '، وسفك دماء جماعة كبيرة من الصحابة وأولادهم وأحفادهم على أيدي بني أمية^(٣).

كما حدثت بعد جريمة القرامطة عدّة انتهاكات ومجازر:

منها: مجزرة الحجّاج اليمينيّ الذين قفلوا من مكّة بعد أداء مناسكهم، فتعرّضوا للقتل والنهب على أيدي الجيش الوهابي، وكانوا ألفاً، ولم يفرّ منهم إلّا

شخصان نقلاً أبعاد تلك المجزرة، وكانت تلك المجزرة عام ١٣٤١هـ^(١).

ومنها: ما حدث أيام موسم الحج عام ١٤٠٠هـ، وهي الحركة التي قادها جهيمان العتيبي، واعتصم هو وزهاء ألفين من أتباعه في المسجد الحرام، وقُضي عليها من قبل السلطة السعودية بعد مرور ثلاثة أسابيع، وقد استنجدت بالقوّات الأجنبية، كالأمريكية والفرنسية، فنزل ثلاثة آلاف من الكوماندوس الأمريكي وجعلت الدبابات والمدافع تدكّ المسجد الحرام، والطائرات المروحية الأمريكية تقذف القنابل المسمومة والمحركة، كما أشعلت النيران في أحد أقسام المسجد الحرام، وقتل المئات من الثوّار، وبقيت الجثث ملقاةً في المطاف والمسعى، وفي جميع أروقة المسجد، وألقي القبض على جهيمان وبقية أتباعه. وبعد محاكمة سرّية وسريعة أُعدم مائة وثمانون ثائراً سرّاً وبدون إعلان، تلاها بعد أيام إعدام ثلاثة وستين نفراً منهم في ثمان مدن بتاريخ ٨ / ١ / ١٩٨٠^(٢).

وهذه الأحداث هتك سافر حرمة الحرم المكي الشريف على أيدي السلفيين المدّعين لخدمة الحرمين الشريفين!

ومنها: ما حدث من مجزرة أيام موسم الحج عام ١٤٠٧هـ، وهي من المجازر البشعة التي صنعها النظام الوهابي في تاريخه المليء بالإرهاب، وذلك في مساء يوم الجمعة السادس من ذي الحجة عام ١٤٠٧هـ، والتي راح ضحيتها حوالي أربعمئة شهيد وشهيدة من حجّاج بيت الله الحرام، بجوار المسجد الحرام، وفي الشهر الحرام! وما كان ذنب أولئك إلا إطلاق شعارات إسلامية ثورية ضدّ المشركين المحتلين للبلدان الإسلامية، كالأمريكان والصهاينة من قبيل: (الله أكبر)، (لا إله إلا الله)، (محمّد رسول الله)، (يا أيّها المسلمون اتّحدوا اتّحدوا)، (الموت لأمريكا)، (الموت لإسرائيل). وما كانت تلك الشعارات إلا تطبيقاً لفريضة إعلان البراءة من المشركين، المشابهة لما نصّ عليه القرآن بقوله: { وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^٣

وَرَسُولُهُ، {التوبة: ٣}. وكان ذلك الموسم مليئاً بالحوادث المرة لحجاج بيت الله الحرام، وكانوا يشاهدون أبشع الإهانات وأقساها من ذلك النظام الوهابي^(١).
إذاً، فما كانت جريمة القرامطة في انتهاك الحرم الإلهي أول قارورة كُسرت في الإسلام، بل سبقهم إلى ذلك بنو أمية، وتابعهم الوهابيون!
وثانياً:

إن نسبة القرامطة إلى الشيعة - نظراً إلى أن إطلاق هذه اللفظة ينصرف إلى الإمامية - لا يعبر إلا عن قلة اطلاع على تاريخ الملل والنحل على الأقل. فإن القرامطة شرذمة إرهابية سلاية، كانت تنتهج منهجاً يشبه مذهب الخوارج في تكفير عامة المسلمين، سنة وشيعة، بل إن حقدهم كان على الشيعة أكثر وأشد، فهم كانوا يرون الشيعة من مصاديق الكفار في هذه الآية الكريمة: {يَكْفُرُ الَّذِينَ آمَنُوا قَلِيلًا وَالَّذِينَ يَكُونُ كُفْرًا} [التوبة: ١٢٣]؛ لأنهم أقرب إليهم^(٢)، وبعد أن سفكوا دماء كثير من الشيعة الأبرياء، قصدوا بيت الله الحرام لارتكاب تلك الجريمة الكبرى! نعم، كانوا ينتسبون إلى الحاكم الفاطمي في مصر، إلا أن الحاكم نفسه كان قد استنكر عملهم للغاية، ونشبت الحرب بينهم وبين الجيش الفاطمي إثر ذلك^(٣).

وثالثاً:

إن التأكيد على نسبة القرامطة الكفرة إلى الشيعة هل يخدم إلا التكفيريين المتعطشين لإراقة دماء الشيعة في العراق والحجاز وإيران وباكستان وغيرها من البلدان الإسلامية في هذا الزمان؟ وهل يصب عمل أولئك التكفيريين إلا في مصب مصالح أمريكا والصهيانية الذين لا يرضون إلا بإشعال نيران القتال والخصام فيما بين المسلمين، وإراقة دماء بعضهم البعض كي يتسنى لهم استمرار السيطرة على القدس الشريف وسائر البلدان المحتلة، من فلسطين والعراق وأفغانستان؟!

:

ما تَطَرَّقْتُمْ إِلَيْهِ مِنْ قَضِيَّةِ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَوْسَمِ الْحَجِّ بِقَوْلِكُمْ: «وَنَسْتَنْكَرُ أَشَدَّ الْاسْتِنْكَارِ الْانْحِرَافَ عَنْ مَقَاصِدِ الْحَجِّ وَغَايَتِهِ السَّامِيَّةِ، وَتَحْوِيلَهُ إِلَى أَغْرَاضٍ سِيَاسِيَّةٍ، وَدَعَايَاتٍ طَائِفِيَّةٍ، وَمَسَارَاتٍ وَمَظَاهِرَاتٍ جَمَاعِيَّةٍ فَوْضَوِيَّةٍ، بِدَعْوَى الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَهَذِهِ الْمَسَارَاتُ وَرَفْعُ الرِّيَاضَاتِ بِالشَّعَارَاتِ بِاللِّسَانِ، لَمْ يَفْعَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ [']، وَلَمْ يَفْعَلْهَا الْمُسْلِمُونَ بَعْدَهُ، وَإِنَّمَا أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ['] أَبَابُكَرُ سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ أَنْ يَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ سُورَةَ بَرَاءَةِ فِي الْحَجِّ، وَأَرْدَفَهُ بَعْلِيٌّ مُؤْتَمًّا بِأَبِي بَكْرٍ، لِيَبْلُغَا رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ [']، بِأَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ سَنَةِ تِسْعٍ مُشْرِكٌ، وَأَلَّا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عَرِيَانٌ، كَمَا صَحَّ فِي الْأَحَادِيثِ، فَبْلُغَا ذَلِكَ الْعَامَ، فَقَدْ بَلَّغَا الْمُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَحْجَّ بَعْدَ ذَلِكَ مُشْرِكٌ»^(١).

يلاحظ عليه:

أَوَّلًا: أَنْكُمْ لَمْ تَصَرَّحُوا بِمَقْصُودِكُمْ مِنَ الْمَظَاهِرَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ بِدَعْوَى الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ! فَإِنْ أَرَدْتُمْ: مَا يَقُومُ بِهِ الْحَجَّاجُ الْإِيرَانِيُّونَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ تَجَمُّعٍ سَنَوِيٍّ يَوْمَ عَرَفَةَ يُصَارُ فِيهِ إِلَى دَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً إِلَى الْوَحْدَةِ فِي مَقَابِلِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَتُسْتَنْكَرُ فِيهِ الْإِعْتِدَاءَاتُ الْأَمْرِيكِيَّةُ وَالصَّهْيُونِيَّةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، إِنْ أَرَدْتُمْ ذَلِكَ، فَوصف ذلك التَّجَمُّعَ بِالفَوْضَوِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ افْتِرَاءً سَافِرًا، وَبِخَاصَّةٍ وَأَنْ هَذَا التَّجَمُّعُ يَتِمُّ بِسَلَمٍ وَهَدْوٍ وَتَنْسِيقٍ مَسْبُوقٍ مَعَ السُّلْطَانِ السَّعُودِيَّةِ! وَإِنْ أَرَدْتُمْ بِذَلِكَ الشَّعَارَاتِ الَّتِي قَدْ يَطْلُقُهَا الْحَجَّاجُ فِي الْمَسْعِيِّ أَوْ الْمَطَافِ، أَوْ حِينَ الْإِفَاضَةِ مِنْ مَنَى إِلَى مَكَّةَ، بِصُورَةٍ عَفْوَِيَّةٍ وَغَيْرِ مَبْرَحَةٍ، فَلَيْسَتْ هِيَ إِلَّا شَعَارَاتٌ تَحْتَوِي عَلَى التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالْإِسْتِنْكَارِ عَلَى أَمْرِيكَا وَإِسْرَائِيلَ، وَهَذِهِ كُلُّهَا نَاشِئَةٌ عَنْ وَجْدَانٍ إِسْلَامِيٍّ جَمَاهِيرِيٍّ تَلَقَّوْهُ مِنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ الصَّرِيحَةِ، الَّتِي تَدْعُو الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدَمِ الصَّمْتِ أَمَامَ الظُّلْمِ وَالْإِعْتِدَاءِ عَلَى كَيَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَدْعُو إِلَى الشُّعُورِ بِالمَسْئُولِيَّةِ وَرَفْضِ اللَّأْبَالِيَّةِ، نَظِيرَ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ

الشريف: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»، وقوله ' : «من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين ولم يحبه فليس بمسلم»، فكيف يمكن وصف هذه الشعارات بأنها انحراف عن مقاصد الحجّ وغاياته السامية وتحويله إلى أغراضٍ سياسيّة ودعاياتٍ طائفية؟

بل يمكن القول: بأنّ استنكار هذه الشعارات الإسلامية إنّما هو محاولة لتجريد الحجّ عن المقاصد السامية الإلهية وعرضه كقطقوس جافة وباردة وعارية عن الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية تجاه مصير الأمة الإسلامية. وهذا هو ما تبغيه دائماً قوى الكفر والظلم في كلّ مكان وزمان؛ لأنّه فصلٌ للدين عن السياسة، وعلنيّةٌ ترتدي رداء الدين، ولا يمكن لقوى الكفر فرض سيطرتها على المسلمين إلّا من خلال الترويج لتلك الأفكار المنحرفة.

وثانياً:

إنّ إنكار رفع الرايات والشعارات في زمن رسول الله ' والمسلمين بعده، إن كان المقصود منه الإنكار المطلق لذلك حتى في مواقع الحروب، فهو إنكار للتاريخ الإسلاميّ الواضح؛ فإنّ الرسول ' حينما شاهد المشركين في غزوة أحد يُطلقون شعار: «اعْلُ هُبْل، اعْلُ هُبْل»، أمر المسلمين بأن يجيئهم بهذا الشعار «الله أعلى وأجلّ»، وحينما قالوا: «إنّ لنا العزى، ولا عزى لكم»، أمر المسلمين أن يجيئهم بهذا الشعار: «الله مولانا، ولا مولى لكم»^(١).

وكان رسول الله ' يأمر أصحابه برفع الرايات في الحروب كما أثر في الصحاح أنّ رسول الله ' أعطي رايته يوم خيبر لعلّ، ففتح الله على يده حصون اليهود، بعد أن قال ' : «لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح على يديه، يحبّ الله ورسوله، ويحبّ الله ورسوله»^(٢).

ولا يخفى: أنّ رفع الرايات والشعارات ليس سنّةً تعبديةً شرّعها الإسلام، بل هي عادة عرفية تتعاطاها جميع الأمم في كلّ زمانٍ ومكان، إصحاراً عن

مواقفهم، وتعارفاً فيما بينهم، كما نرى ذلك في جميع البلدان والدول، فإنّها ترفع رايات كشعارات تنبئ عن استقلالها وهويّتها.

وإن كان المقصود من الإنكار: إنكار رفع الرايات والشعارات باللسان في خصوص موسم الحجّ، فيرد عليه: أنّ عليّاً ومن كان معه من المسلمين قاموا بإطلاق شعارات في موسم الحجّ عام تسع للهجرة، إعلاناً وايداناً ببراءة الله ورسوله من المشركين.

وأما في موسم حجة الوداع، فحيث إنّ المشركين رفعوا رايات الاستسلام أمام الإسلام، فلم يكن الظرف مقتضياً لرفع الشعارات ضدّهم. وعلى أيّ حال، فكلّما كانت الظروف مقتضية لرفع الرايات وإطلاق الشعارات في وجه أعداء الإسلام، فلا مانع شرعاً من القيام بهذه الأعمال، ولا يمكن وصف ذلك بأنّه بدعة وإدخال ما ليس من الدين في الدين، بل إنّها هي وسيلة مناسبة لإعلان مواقف المسلمين ضدّ الكفّار أعداء الإسلام والمسلمين.

وفي هذا الزمان، حيث يواجه المسلمون أعداءاً شرسين فرضوا سيطرتهم على القدس وبعض البلدان الإسلاميّة الأخرى، فكيف لا يجوز للمسلمين أن يتأسّوا برسول الله ' وأصحابه الكرام في رفع الرايات وإطلاق الشعارات الحماسيّة ضدّ أحزاب الكفر والنفاق، وقد جعل الله سبحانه رسوله أسوة حسنة للمؤمنين، كما قال: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ٢١ } وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا { [الأحزاب: ٢١-٢٢].

وثالثاً:

إنّكم أشرتُم إلى شأن نزول سورة براءة، وما أمر الله رسوله بالبراءة من المشركين يوم الحجّ الأكبر، وكأنّ ذلك الأمر كان خاصّاً بالعام التاسع من الهجرة، والحال: أنّ شأن النزول لا يخصّص ولا يقيّد، فإنّ القواعد الكلّيّة

والعامة الدائمة تستفاد من الآيات، وإن كان لها شأن نزول خاص في موردٍ مخصوص.

مضافاً إلى أن سياق آيات سورة براءة ولسانها لا يمنعان تكرّر إعلان البراءة في وجه المشركين والكافرين، وأن يبقى الاستعداد لمواجهة قوى الشر التي تريد فرض السيطرة على بلدان المسلمين، وظيفة شرعية تُمارس عند الحاجة؛ وذلك لأن الله تعالى قد نفى بالتأييد سلطة الكفار على المؤمنين في قوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وعلى هذا، فكيف يجوز السكوت والصمت في هذا الزمان إزاء الكفار المسيطرين على شؤون الأمة الإسلامية والمحتلين لبلدانهم؟ ولماذا لا يمكن الاستفادة لزوم البراءة من أعمالهم الإجرامية على أساس تلك القاعدة القرآنية التي تسير مع الزمن إلى الأبد؟

ورابعاً:

أما قولكم: «وأردفه بعليّ» [×] مؤتمناً بأبي بكر.. إلخ، فنرجو أن لا يكون الدافع له هضم حق أهل البيت ^٨ الذين أوجب الله مودّتهم في كتابه، أو تناسي فضائلهم التي اتفق عليها الفريقان من أهل السنة والجماعة وأتباع أهل البيت ^٨، والتي منها: إيكال أمر إبلاغ سورة براءة وقراءتها في موسم الحجّ إلى عليّ بن أبي طالب ×، فإن كتب التاريخ والحديث تُحدّثنا بوضوح عن أن رسول الله ' أمر أبا بكر بإبلاغ سورة براءة في موسم الحجّ عام تسع من الهجرة، ومشى أبو بكر لأداء مهمّته، إلا أن أمين الوحي جبرائيل نزل على رسول الله '، وأبلغه أمر الله سبحانه بتحويل المهمّة إلى عليّ بن أبي طالب ×، فكان عليّ × هو الموفود الأول والزعيم في إبلاغ البراءة من قبل رسول الله '.

فقد أخرج الترمذي في: ٤٤ - كتاب التفسير، ٩، سورة التوبة؛ وابن سعد في

الطبقات (١:١٢١) (ط. ليدن) و(٢:١٦٨) (ط. بيروت)؛ والإمام أحمد في المسند، ١: ٣، (ط. الحلبي) ح ٤ (ط. المعارف)؛ وابن هشام في سيرته، ص ٩٢١ (ط. ليدن) ٤: ١٩٠ (ط. الحلبي) ما حدث في قضية البراءة.

والأحاديث كلها تتضمن ما يدل على أنّ إبلاغ البراءة ما كان يجوز إلّا على يدي رسول الله ' أو عليّ X؛ لأنّه منه أو من أهل بيته. والعبارات الحاكية لكلام النبيّ ' في هذا المجال متقاربة المعنى، وهي ما يلي: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلّا رجل من أهلي»، «ولكن أمرت أن لا يبلغه إلّا أنا أو رجل مني»، «ولكن جبرئيل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك»، وما شابه ذلك من التعبيرات. وكلّ هذا إنّما يدلّ على الموقع المتميّز لأمير المؤمنين X، فكيف يتناسب قولكم فيه مع ذلك الواقع التاريخي الواضح؟! :

ما ذكرتموه من هجوم عنيف على ما يتعاطاه أكثر المسلمين تجاه أضرحة أولياء الله من تقديسٍ وتكريم، وهو قولكم: «وليس في المملكة العربيّة السعوديّة قبور تُعبّد من دون الله - والله الحمد -، وليس فيها مشاهد وأضرحة يُسجد ويُطاف بها، ويُذبح لها، وتُسأل الرزق، ويُستنصر بها، وتُرفع الحاجات، وتُسأل أصحابها كشف الكربات وغفران السيئات، ليس في هذه البلاد شيء من هذا؛ لأنّ هذا كلّه شرك أكبر، ووثنيّة جاهليّة، جاء الإسلام بإبطاله ومحوه والقضاء عليه، لتكون العبادة لله تبارك وتعالى...»^(١).

ويلاحظ عليه:

أنّ في كلامكم هذا تعريضاً بما يفعله المسلمون كافّة، وخاصّة المتتمين إلى أهل البيت ^٨ في بعض البلدان الإسلاميّة، كالعراق ومصر وسوريا وإيران وأفغانستان وباكستان وغيرها، من تكريم مراقد أولياء الله، والتوسّل إلى الله

بالذوات المقدسة المدفونة فيها.

ولا يخفى: أن وصف تلك الأعمال العبادية المقربة إلى الله بالشرك والعبادة لغير الله والسجود لها وبالوثنية الجاهلية، إلى غير ذلك من الافتراءات، ليس جديداً، بل هو المنهج الأعوج الذي سلكته الوهابية من اليوم الأول وإلى هذا الزمان، وقد أجاب عليها المحققون بما يشفي الغليل، وليس هنا مجال التفصيل، ولكن نكتفي بالإلماح إلى ما ذكره ونقف معكم في هذا المجال وقفة قصيرة، نقول فيها: إن تكريم أولياء الله ورفع مقامهم والتوسل بذواتهم المقدسة ليس من عبادة غير الله في شيء، بل هو من حاق عبادة الله؛ لأن الله هو الذي أذن بذلك الرفع والتكريم، حيث قال - عز من قائل -: { فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } ٣٦ رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يحافون يوماً نثقل فيه القلوب والأبصار } [النور: ٣٦-٣٧].

وجاء في الحديث: «أنه سئل رسول الله ' عن تلك البيوت، فقال: ' هي بيوت الأنبياء. فقال أبو بكر مشيراً إلى بيت علي وفاطمة، هذا البيت منها؟ فقال: ' نعم، من أفاضلها» (١).

بل يمكن أن يقال: إن الله تعالى أمر بالتوسل إليه بالمقربات، كما جاء في قوله: { يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [المائدة: ٣٥]. والوسيلة مطلقة، تشمل الصلاة والصوم والكعبة والقرآن والذوات المقدسة؛ فإن رسول الله ' قد توسل إلى الله بنفسه، وبالأنبياء من قبله، كما روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك: أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي - رضي الله عنهما - دخل عليها رسول الله ' فجلس عند رأسها، فقال: رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي. إلى أن قال بعد دفنها: «الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد،

ولقّنها حجّتها، ووسّع عليها مدخلها بحق نبيّك والأنبياء الذين من قبلي، فإنّك أرحم الراحمين»^(١).

والنبيّ ' لم يتوسّل هو بنفسه فحسب، بل كان يأمر المسلمين بذلك أيضاً. وجاء ذلك في أحاديث كثيرة. منها: ما روي عن عثمان بن حنيف في توسّل الضرير الذي شفاه الله ببركة التوسّل برسول الله '،^(٢).

والحديث بطوله كما أخرجه الطبرانيّ كما يلي: حدّثنا طاهر بن عيسى بن قيرس المصريّ المقرئ، ثنا أصبغ بن الفرّج ثنا بن وهب، عن أبي سعيد المكيّ عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطميّ المدنيّ عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمّه عثمان بن حنيف أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفّان في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكى ذلك اليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة فتوضّأ، ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين، ثم قل: «اللّهمّ إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمّد ' نبيّ الرحمة، يا محمّد، إني أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي»، وتذكر حاجتك، ورح حتي أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفّان، فجاء البوّاب حتي أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفّان: فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: ما حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتي كان الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فأذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتي كلّمته فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته، ولكنّي شهدت رسول الله ' وأتاه ضرير فشكى إليه ذهاب بصره، فقال له النبيّ ' : «فتصبر»، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شقّ على. فقال النبيّ ' : «ائت الميضأة فتوضّأ، ثم صلّ ركعتين، ثم ادعُ بهذه الدعوات». قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا، وطال بنا الحديث، حتى دخل

علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط^(١).

والحديث صريح في أن الرسول ' هو الذي علّم المسلمين كيفية التوسّل. وقد دأبوا على ذلك حتى بعد وفاته. وكان المسلمون لا يقتصرون على التوسّل بنفس الرسول ' بل كانوا يتوسّلون بأقربائه. مثل ما روي في توسّل عمر بالعبّاس عمّ النبي '، فقد روى البخاريّ بسنده عن أنس، أن عمر بن الخطّاب كان إذا قحطوا استسقى بالعبّاس بن عبدالمطلب فقال: اللهم إنّنا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينّا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا، فاسقنا، قال: فيسقون. وروى الجزريّ في أسد الغابة بما يشبه ذلك، وأنّ عمر قال: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه. ولما سقي الناس طفقوا يتمسّحون بالعبّاس، ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين^(٢).

كما كانوا يتبرّكون بقبر رسول الله '، مثل ما روي في تبرّك أبي أيّوب الأنصاريّ بقبر رسول الله '، وإن كان مروان بن الحكم الأمويّ، الذي لعنه رسول الله ' وهو في صلب أبيه، يستنكر أعمال أولئك الأجلّاء من الصحابة، ومن هنا نعلم جذور المنع عن التوسّل والتبرّك بآثار رسول الله '.

فقد روى الحاكم في المستدرک عن داود بن صالح قال: أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر فأخذ برقبته، ثم قال: هل تدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيّوب الأنصاريّ، فقال: نعم، إني لم آت الحجر، إنّما جئت رسول الله ' ولم آت الحجر، سمعت رسول الله ' يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله»^(٣).

وهذا هو الدين الذي كان عليه الصحابة، وقد أخذوه عن القرآن وسنة الرسول '، وهو ما استمرّ عليه السلف بعد الصحابة. فقد روي أن أبا جعفر المنصور الدوانيقي سأل مالك بن أنس فقيه المدينة (المتوفى ١٧٩هـ) حينما

أراد زيارة الرسول '، أيستقبل القبلة أم يستقبل رسول الله '؟ فقال مالك له: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله، واستشفع به فيشفعه الله. قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} [النساء: ٦٤] (١).

إلى غير ذلك من الكمّ الهائل من الروايات، مضافاً إلى سيرة المشرّعة في التوسّل والتبرّك بقبور أولياء الله، والتي تصل إلى عصر الصحابة، وهذا هو الإسلام الذي سار عليه السلف الصالح.

وأما ما جاء به ابن تيمية في القرن الثامن من تحريم شدّ الرحال إلى زيارة قبر الرسول ' والتوسّل به، إلى غير ذلك من البدع، كالقول بالتجسيم، والتولّي لأعداء الله، أمثال: يزيد بن معاوية، وسباب أهل البيت، والخطّ عن مقاماتهم، فهو مخالف لما جاء في القرآن وثبت عن الرسول ' وما أطبقت عليه الأمة الإسلامية، الأمر الذي أثار ضجة من قبل علماء أهل السنة والجماعة في عصره عليه. وألّف الكتب في ردّه، مثل كتاب «شفاء السقام» لتقي الدين السبكي. وقد أدّت مواقف ابن تيمية العوجاء إلى سجنه وموته في السّجن. وقد خالفه كبار علماء أهل السنة والجماعة من جميع المذاهب الإسلامية في عصره، منهم:

- (١) الشيخ صفّي الدين الهندي الأرموي، المتكلّم الأشعري المتوفّي ٧١٥هـ.
- (٢) الشيخ شهاب الدين ابن جهبل الكلابي المتوفّي ٧٣٣هـ.
- (٣) قاضي القضاة كمال الدين الزملكاني المتوفّي ٧٣٣هـ.
- (٤) الحافظ شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي المتوفّي ٧٤٨هـ.
- (٥) الشيخ الإمام صدر الدين المرحل المتوفّي ٧٥٠هـ.
- (٦) الحافظ عليّ بن عبد الكافي السبكي الشافعي المتوفّي ٧٥٦هـ.

وهو مؤلف كتاب «شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام» وكتاب «شن الغارة على من أنكر السفر للزيارة» وكتاب «الدرر المضيئة في الرد على ابن تيمية».

(٧) جلال الدين الحنفي.

(٨) ابن مخلوف المالكي.

(٩) القاضي بدر الدين بن جماعة.

وسائر أهل السنة الذين جاؤوا بعد عصر ابن تيمية، ناقشوا أفكاره وألفوا الكتب والرسائل في الرد عليها. فهذا حال ابن تيمية ومخالفته للسلف الصالح، وإن رُوج له باسم السلفية، وأُطلق عليه عنوان «شيخ الإسلام»! وكان قد مات ذكره بعد القرن الثامن، إلى أن خرج محمد بن عبد الوهاب من نجد، في القرن الثاني عشر، فحذا حذوه، ورُوج لأفكاره من جديد، وبنى عليه مذهبه المسمي بـ (الوهابية).

إن الأدلة الدامغة تؤيد مشروعية التوسل، وتثبت أنه ليس من عبادة غير الله؛ لأن المتوسل لا يرى استقلالاً للمتوسل به، بل إن كلاً من التوسل الذي يقوم به، والإجابة من المتوسل به، إنما هو بإذن الله تعالى، فلو فرضنا مثلاً: أن أحداً طلب من عيسى بن مريم شفاءه من مرضه، وشافاه الله، فإن ذلك لا يعد عبادة لغير الله؛ لأن كل ما كان يفعله السيد المسيح فإنما هو بإذن الله سبحانه، فكذلك سائر أولياء الله. وحينما يواجه الوهابيون بتلك الأدلة وجدناهم يلوون عنان البحث إلى شيء آخر، وهو أن التوسل بالولي الحي صحيح ومشروع، ولكنه بالولي الميت شرك وغير مشروع!

ويرد كلامهم هذا: أنه إذا كان من الشرك التوسل بذات مقدسة، حتى لو كان المتوسل يعتقد بعدم استقلالها، فأى فرق - حيثئذ - بين أن يكون صاحب هذه الذات المقدسة حياً أو ميتاً؟ بل يلزم من ذلك القول أن يُقسَم الشرك إلى

شركٍ يجوز، وشركٍ لا يجوز، والحال أن كون الشرك كله ظلماً عظيماً مما يأبى عن التخصيص والاستثناء.

وهذا الالتواء في نفسه، مضافاً إلى مخالفته لما دلّ على شرعية التوسل بالأولياء الأموات، كما أشرنا إليه فيما سبق، يتضمّن إنكاراً لمضامين كثير من الآيات القرآنية التي تؤكد على حياة الشهداء مثل قوله سبحانه: {وَلَا نَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤]، والرسول ' هو إمام الشهداء، وكيف لا يكون حياً، والمسلمون جميعاً يسلمون عليه في صلواتهم بقولهم: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»؟! فهل يُعقل السلام على الميت الذي لا يعقل ولا يسمع وحكمه حكم الجدار - كما يزعمون -؟!

ويلزم من قول الوهابيين أيضاً: تكذيب الآيات التي تركّز على عدم قطع صلة الحياة الدنيا بالآخرة، وأنّ الأموات يسمعون كلام الأحياء ويرونهم بالقوة الروحية التي أودعها الله فيهم، بل إنّ الأموات يسمعون كلام الأحياء وإن لم يكونوا مؤمنين، وإلا، فلا يكون هناك معنى معقول للآيات الحاكية عن كلام الأنبياء ^٨ مع أمهم الذين أصابهم العذاب مثلما جاء في حقّ أمة شعيب X: { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ } (١١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (١٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ } [الأعراف]، وظاهر الآيات المذكورة أنّ شعيباً خاطب قومه وكلمهم بعد أن نزل عليهم العذاب وهلكوا! والكلام مع الأموات إذا لم يسمعه يكون لغواً. وحاشا لذلك النبي العظيم أن يأتي باللغو.

وجاء في حقّ أمة صالح X: { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ } (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ } [الأعراف: ٧٨-٧٩]، ودلالة هذه الطائفة من الآيات على

المطلوب كما مرّ آنفاً في الطائفة الأولى.

كما لا يكون معنىً لكلام النبي ' مع قتلى المشركين في قليب بدر، وهو من مسلمّات تاريخ الإسلام، وقد ذكره أصحاب الحديث والتاريخ. فقد جاء في صحيح البخاريّ أنّه وقف النبيّ على قليب بدر وخاطب الذين قُتلوا وألقيت أجسادهم في القليب: «لقد كنتم جيران سوء لرسول الله، أخرجتموه من منزله وطرّدتّموه، ثمّ اجتمعتم عليه فحاربتموه وقد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً». فقال له رجل: يا رسول الله ما خطابٌ لهامٍ سديت؟ فقال: ' «والله ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلّا أن أعرض بوجهي - هكذا - عنهم» (١).

إلى غير ذلك من الآيات البيّنات والروايات الواضحات، إذ أنّ فوصم هذه التوسّلات بالشرك وعبادة غير الله خروج عن جادة العلم والإنصاف؛ فإنّه لو سلّم - جدلاً - عدم جدوى الكلام مع الأموات؛ بدعوى أنّهم لا يسمعون ولا يضرّون ولا ينفعون، فغاية ما يوصف الكلام معهم: بأنّه لغو وغير مفيد، لا أن يوصف بأنّه عبادة لغير الله؛ فإنّ العبادة لها تعريف واضح واصطلاح شرعيّ خاصّ، كما يستفاد من آيات القرآن الكريم، وهو: خضوع العابد أمام موجود بعنوان أنّه إله أو ربّ، وأمّا مطلق الخضوع والتكريم بلا هذا القيد فليس من العبادة الشرعيّة في شيء، وإلّا، استلزم القول بأنّ خفض الجناح للوالدين - مثلاً - هو من مصاديق عبادة غير الله، أو أنّ سجود الملائكة لآدم × وخرور يعقوب × وأولاده سجّداً أمام يوسف × من عبادة غير الله. ولكنّ هذا اللازم باطل، فالملزوم مثله في البطلان.

:

ما ذكرتموه دفاعاً عن السلفيّة ودولتها والتأكيد على نفي شرعيّة البراءة من

المشركين في الحجّ بقولكم: «فرغ شعار البراءة من المشركين لا مكان له في الحجّ؛ لأنّ الذي يحجّ هم المسلمون، ولا مكان لرفع شعار البراءة من المشركين في الحجّ ولا في المملكة؛ لأنّ هذه المملكة دولة التوحيد في هذا الزّمان، فهي دولة سنّية سلفيّة المنهج، ليست بدولة سلفيّة حزبيّة، ويظنّ بعض المتطاولين بغير حقّ أنّه إذا لمز حكام هذه الدّولة وعلمائها بأنّهم وهابيّة أنّه أصاب مقتلاً أو شوّه سمعةً أو ضرّ شيئاً، ألا فليعلم أنّه لن يضرّ إلّا نفسه، فهم لا يتسمّون بهذه التسمية؛ لأنّهم لم يبتدعوا بدعة في العقيدة الإسلاميّة، وإنّما ينتسبون إلى أهل السنّة والجماعة كبقية المسلمين، فالمسلمون كلّهم أولهم وآخرهم إخوة لهم، والمسلمون كلّهم إخوة. والإمام الشيخ المجدّد محمّد بن عبد الوهاب (رحمه الله) لم يبتدع من العقيدة شيئاً خالف به سلف الأئمة وأئمة الإسلام، ولن يستطيع أحد أن يأتي من كتبه بمسألة تخالف ما عليه السلف الصالح في العقيدة. ولما كتب إليه بعض علماء عصره أن يبيّن لهم عقيدته لما تضاربت الأقوال من النّاقلين عنه، قال (رحمه الله): «أشهد الله ومن حضر من الملائكة، وأشهدكم أنّي أعتقد ما اعتقدته الفرقة النّاجية أهل السنّة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشرّه. وانتهى الغرض من الرّسالة وهي رسالة مطوّلة تشبه في معانيها وألفاظها العقيدة الواسطيّة لشيخ الإسلام ابن تيمية...».

ونلاحظ عليه:

أولاً:

أنّ رفضكم لشعار البراءة من المشركين في الحجّ يعتبر من مصاديق مكافحة شعار التوحيد. وذلك لأنّه: كما تقدّم، لا يوجد ما يمنع من البراءة من المشركين عند الحاجة على ما يُستفاد ذلك من القرآن الكريم، مضافاً إلى أنّ شعار البراءة يشكّل أحد جزأي التوحيد؛ فإنّ كلمة التوحيد لها جزءان، الأوّل: سلبّي: «لا

إله»، وهو نفى جميع المعبودات والقوى المضادة لله، والثاني: إيجابيّ: «إلا الله»، وهو يعني: إثبات الله وكلّ ما له صبغة إلهيّة، ومن أحسن من الله صبغة؟ ولا يتمّ التوحيد إلّا بكلا جزأيه. ولا شكّ أنّ القوى الاستكباريّة في هذا الزمان هي المصاديق الحقيقيّة للقوى المضادة لله، وإنّ نفيها ورفع شعار ضدها هو تنفيذ عمليّ لشعار التوحيد، وأيّ مكانٍ يليق برفع شعار التوحيد أكثر من الحجّ؟ وهو مؤتمر عالميّ إسلاميّ وملتقى جماهيريّ يضمّ كلّ قطاعات العالم الإسلاميّ. ثمّ إنّّه لا تتحقّق فلسفة الحجّ المستفادة من قوله سبحانه: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} [الحجّ: ٢٨]، - حيث إنّ المنافع مطلقة، تشمل مطلق المصالح وعامتها، من الدنيويّة والأخرويّة، والسّياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة، إلى غير ذلك - إلّا إذا طرحت مشاكل العالم الإسلاميّ وعرضت حلولها في موسم الحجّ، وإنّ أهمّ مشكلة هي سلطة الكفّار على الأمّة واحتلالهم لبعض بلداننا، وعلى رأسها فلسطين والقدس الشريف.

وثانيّاً:

إنّ وصف الوهابيّة بأنّها سنّة سلفيّة المنهج، واستنكاف وصفها وتسميتها بالوهابيّة والحزبيّة والطائفية لا يغيّر من الواقع شيئاً؛ فإنّ الواقع التاريخيّ لهذا التيار، هو أنّه نما في نجد في القرن الثاني عشر الهجريّ على أساس تكفير المسلمين حتّى يسلموا لأفكاره - التي أطلقها محمّد بن عبد الوهاب، تبعاً لابن تيميّة -، وإباحة دمائهم وأموالهم. وإنّ الذين تعرّضوا للقتل والتشريد ونهب الأموال من قبل الجيش الوهابي في بداية الأمر ليسوا هم إلّا أبناء السنّة والجماعة من أهل نجد ثمّ الحجاز خلال عشرات بل مئات المعارك والمجازر التي صنعوها خلال خمسين عاماً. وقد طفحت بالإشادة بتلك المعارك الكتب التي ألّفها الوهابيون أنفسهم وهواتهم من المؤلّفين. وإنّ أوّل قبر هدموه هو قبر زيد بن الخطّاب أخي الخليفة الثاني المحترم في ربوع أهل السنّة، ولم يكن قبراً من

قبور الشيعة، ولا الشيعة هم الذين تعرّضوا لهجمات سفك الدماء في الآونة الأولى. نعم، بعد أن أنشبت الوهابية مخالبتها في الحجاز، وهدمت ما في مكة وجدة من قبور أولياء يحترمهم كافة المسلمين، غزت البلدان المجاورة من العراق واليمن وغيرها وسفكت هناك دماء عشرات الألوف من الأبرياء من أتباع أهل البيت ^٨، كما هتكت حرمة الحائر الحسيني في كربلاء ونهبت ما فيه من ممتلكات خلال عام ١٢١٦هـ وإلى ١٢٢٥هـ. وقد تمّ كل ذلك بذريعة أنّ التوسّل والتبرّك شرك، وأنّ المتعاطين له مشركون وعبداء للأوثان. ولم ينشأ هذا الاعتقاد كلّهُ إلّا من سوء تفسيرهم للمفاهيم الإسلامية كالعبادة والتوسّل والشفاعة والتبرّك وغيرها. الأمر الذي حدا ببعض نخب هذه المملكة لتأليف كتب حول تصحيح تلك المفاهيم، مثل كتاب «مفاهيم يجب أن تصحّح»، للسيد محمد بن علوي المالكي، الذي توفي قبل سنوات في مكة.

وأما تكفير عامّة المسلمين فهذا شيء لا ينكره الوهابية أنفسهم؛ لأنّه ظاهر، بل صريح، كثير من رسائل وخطابات محمد بن عبد الوهاب، مضافاً إلى أمره بذبح المسلمين في نجد، وقد صرح بذلك مؤلّف كتاب «داعية وليس نبياً»، وهو من النخب الوهابية أيضاً. وعلى هذا، فكيف يمكن توصيف الوهابية بأنّها سنيّة، والحال أنّها تقول بتكفير أهل السنّة من غير الوهابية أيضاً!

وثالثاً:

إنّ انطباق رسالة محمد بن عبد الوهاب على رسالة العقيدة الواسطيّة لشيخه ابن تيمية لا يبرئ الوهابية عن انحرافهم عن أمة الإسلام والوسطيّة، بل هو ممّا يؤكّد ذلك. فإنّ ابن تيمية لم يصنع شيئاً إلّا القيام ببدع أثارت عليه غضب الأمة الإسلاميّة بحكّامها وعلمائها. ولما مات في السجن، لم يقم بإحياء أفكاره إلّا محمد بن عبد الوهاب بعد مرور حوالي أربعة قرون!

ولا يخفى: أنّ في خطبتكم نقاطاً أخرى قابلة للنقاش تتطلّب دراسة أوسع،

نترككم وإياها إلى مجال آخر، فعسى الله أن يحدث بعد ذلك أمراً.
وفي الختام..

ندعو الجميع إلى الاعتصام بحبل الله وترك التفرّق والتشرذم ورص صفوف
الأمة تجاه المكائد الشيطانية التي تقوم بها القوى الغربية والصهيونية للقضاء على
الإسلام والمسلمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على
محمد وآله الطاهرين، ورضي عن أصحابه المنتجبين.

* * *

الهوامش:

- (١) يراجع موقع (بوابة الحرمين الشريفين): www.alharamain.gov.sa.
- (٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢: ٦٠٢، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- (٣) ن. م. ص ٥٥١ - ٥٨٣.
- (٤) ن. م. ص ٥٩٣ - ٦٠٠.
- (٥) الأمين، السيّد محسن، كشف الارتياح: ص ٥٠، الطبعة الثانية، ١٣٨٢هـ.
- (٦) يُراجع: انتفاضة الحرم ١٤٤٠هـ - ١٩٩٧م، منظّمة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية: ص ٢٨-٧٣.
- (٧) راجع: نظرة على مذبحة الحرام: ص ١٦-٢٢، مركز الحجّ للدراسات والنشر.
- (٨) النوبختي، فرق الشيعة: ص ٧٢-٧٦.
- (٩) راجع: نجم الدين عمر بن فهد، إتحاف الوري بأخبار أمّ القرى ٢: ٣٧٤-٣٧٩، و ٣٩٤-٣٩٦.
- (١٠) موقع (بوابة الحرمين الشريفين) ١٨ / ١١ / ١٤٣٠هـ.
- (١١) راجع: الواقدي، المغازي ١: ٢٩٦-٢٩٧.
- (١٢) البخاري، صحيح البخاري ٤: ٢٠، باب فضل من أسلم على يديه رجل، ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ.
- (١٣) موقع (بوابة الحرمين الشريفين) خطبة صلاة الجمعة ١٨ / ١١ / ١٤٣٠هـ.
- (١٤) السيوطي، الدرّ المنثور ٥: ٥٠.

- (١٥) الطبراني، المعجم الأوسط: ص ٣٥٦-٣٥٧، والحاكم النيسابوري، المستدرک ٣: ١٠٨.
- (١٦) القزويني، سنن ابن ماجه ١: ٤٤١، ح ١٣٨٨٥، وأحمد بن حنبل، مسند أحمد، ٤: ١٣٨، والحاكم النيسابوري، المستدرک ١: ٣١٣، وقال الرفاعي - وهو وهابي - في كتابه «التوصل إلى حقيقة التوصل»: ص ١٥٨: لا شك أن هذا الحديث صحيح ومشهور.
- (١٧) الطبراني، المعجم الكبير ٩: ٣٠، ح ٨٣١١.
- (١٨) البخاري، صحيح البخاري ٢: ٣٤، باب الاستسقاء؛ والجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣: ٦٢، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٢٥ هـ.
- (١٩) الحاكم النيسابوري، المستدرک، باب ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله، ح ٨٦١٨.
- (٢٠) السهمودي، نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفاء ٢: ٢٥٣.
- (٢١) البخاري، صحيح البخاري ٥: ٧٦-٧٧، باب قتل أبي جهل.

دينامية ثقافة وحضارة

الإسلام وإيران

□ د: علي أكبر ولايتي (*)

منذ أمد بعيدٍ وهاجس الهوية الثقافية والحضارية للإسلام وإيران يختلج في صدري، بصفتي مسلماً إيرانياً. وبشكلٍ مستمرٍّ أبحث عن ضالتي في ثنايا الكتب والمقالات والمحاضرات. وحتى أكون منصفاً، أقول: إنني أدركت تدريجاً ضخامة الظلم الذي مورس بحق أمتنا وشعبنا وثقافتنا وحضارتنا، سواء بسوء نية الأجانب أم بتراخي الأقارب.

فالأجانب - من جهة - أنكروا فضائل المسلمين، والمسلمون - من جهة ثانية - تسامحوا كثيراً في تسجيل وإثبات وعرض إنجازاتهم العلمية والثقافية. والنتيجة كانت ذلك الاعتقاد الخاطئ، على المستوى العالمي بين المسلمين والإيرانيين، بأن الإفرنج هم أناس من نسيج أعلى من نسيجنا، ويتمتعون بمواهب ذهنية وفكرية خلافاً للشعوب الأخرى، ومنهم الشعوب المسلمة. فالإفرنج بدءاً من عصر الإغريق، فالروم، ثم عصر النهضة الأوروبية، كانوا

(*) مستشار مرشد الثورة الإسلامية في إيران، ووزير خارجية سابق.

طليعيين في الإبداع والانتاج، في حين أنَّ الشرقيين والمسلمين كانوا دائماً تابعين ومستهلكين ليس إلا. أمّا النتيجة العملية لهذا الاعتقاد الجارف، والذي رُوِّج له منذ نحو قرنين من الزمن، فهي أنَّ نستسلم لواقعنا المرير، وما يترتب من تبعات سياسية وثقافية على هذا الاستسلام.

هكذا نرى أنَّ النباهة الماكرة للتسلط الغربي، فضلاً عن حالة الغفلة التي غطّتنا، أوجدت تدريجاً قنوات في أمتنا يمكن أن نعتبرها سمات ثانوية نوعاً ما، وهي أن نعيد إلى أذهاننا ألا نسعى عبثاً. فليس لنا أن نحلم بالوصول إلى القمم الرفيعة للعلم والمعرفة، بل يجب أن نرضى بما قُسم لنا، وأن نتخطى حدود القسمة الأزلية!

لا أعتقد أن هناك ألماً أشدّ تأثيراً في قلب كل ملتزم وصاحب قضية من أن يرى كرامته العقائدية والقومية تداس بهذا الشكل. لذا، ومنذ اللحظة الأولى التي هوجمت أراضيها الشرقية والإسلامية من الغزاة الغربيين عسكرياً وثقافياً، ومنذ أن بدأوا بترويج ومأسسة قنوات الاستسلام والروحانية الانهزامية التي لم تكن إلا مصداقاً بارزاً للاستعمار، نرى رجالاً كباراً من أمتنا يقومون بين حين وآخر، ويطلقون نداء الصحوة بين الأمم الشرقية والإسلامية؛ ليستيقظوا ويقاوموا نزعة الإفرنج التسلطية والفوقية. فمنذ نحو مأتي سنة، بدأت أمواج الصحوة تزداد قوة واتساعاً يوماً بعد يوم. أمّا أهم إنجاز لهذه الحركة التاريخية، فيكمن في إعادة الثقة بالنفس إلى العالم الإسلامي بصورة تدريجية. إذ إن الادّعاء القديم القائل بتفوق الغربيين على الأمم الشرقية والمسلمة، على الرغم من تقدّمهم الهائل في مجال الدعاية، بوساطة الصوت والصورة والصناعات الإلكترونية، لا يواجه قبولاً سهلاً في الشرق وفي العالم الإسلامي. فأوراقهم أصبحت مكشوفة، والحيل المستخدمة من قبل السحرة التابعين لفراعة العصر لا تنطلي على أحد؛ فكأن العالم الإسلامي بدأ يتمتع بنوع من المناعة. لكن يجب

أن ننتبه إلى أنه هذه المناعة هي سياسية قبل أن تكون علمية. كما أن الاستعمار الثقافي كان نتيجة الاستعمار السياسي الذي كان بدوره يهدف إلى النهب الاقتصادي. لذا يجب أن نستفيد من الأرضية السياسية والثقافية التي مهّدت بواسطة أولئك الرجال المنادين لليقظة، ونسعى في الوقت نفسه لإعادة الثقة إلى هذا الهدف. وقد قام عدد من الكبار بجهود قيّمة. لكن البحث في هذا المجال يثبت أننا ما زلنا في بداية الطريق، وهناك مسافة شاسعة بيننا وبين الهدف المنشود. ولكن مما لا شك فيه أن الحركة قد بدأت، وهي مستمرة. والكتاب الذي قمنا بتأليفه في هذا المجال كان نتيجة جهود مضمينة، تأسيساً على فكرة تراودني منذ سنين ما زلت أعتبرها غير ناضجة تحتاج إلى البحث والتقييم بواسطة المفكرين وأصحاب الرأي، وخلاصة هذه الفكرة هي كما يلي: من خلال دراسة التاريخ الإسلامي نرى أن ثقافة وحضارة الإسلام قد اتخذتا لنفسيهما مساراً مضبوطاً ودقيقاً على أساس منطقيّ قابل للفهم قد يكون ترجمة لفلسفة التاريخ المبنية على قاعدة إعادة نفسه، بحيث نجد في الرسم البياني لقرون أو ألفيات، نقاطاً متشابهة قد تكون قابلة للانطباق بعضها مع بعض، ولو بشكل تقريبي.

في هذا الإطار يمكن لنا دراسة التاريخ الإسلامي في عشر مراحل كالآتي:

- يبدأ التاريخ الإسلامي بالدعوة النبوية من مكة المكرمة، وهذه هي بداية الحركة في ثقافة وحضارة الإسلام.
- هذه الحركة المهمة في التاريخ البشري سرعان ما تنتقل إلى يثرب، وتأخذ شكل الحكومة الإسلامية بعد تحويل يثرب إلى مدينة الرسول . ' قد نستنتج من هذه التسمية بصورة رمزية بأن هذه المرحلة تمثل الحجر التأسيسي للمدينة الإسلامية.

- الانتشار الإسلامي. وهذه المرحلة تنقسم إلى قسمين:

الأول: انتشار الدين الإسلامي في جزيرة العرب.

والثاني: انتشاره في العالم المتحضر آنذاك، والذي كان يشمل منطقة ما بين النهرين وإيران والروم ومصر والحبشة والهند وما وراء النهرين والصين وشمال إفريقيا، وأخيراً جنوب أوروبا. وكانت ذروة هذه المرحلة في القرنين الأول والثاني بعد الهجرة.

- التجاور بن الثقافة والحضارة الإسلامية الفتية والحضارات القديمة في العالم، ومحاولة فهم هذه الحضارات ونقلها إلى مجال الحضارة الإسلامية؛ هذه الحركة بدأت بشكلٍ جدّي من القرن الثاني للهجرة، واستمرت طيلة القرنين الثالث والرابع بالطرق التالية:

أ- الترجمة، وهي أهم طرق نقل الحضارات وأكثرها جدية. وقد كانت هذه الحركة، التي عبّر عنها في التاريخ الإسلامي بنهضة الترجمة، فريدة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحضارات القديمة؛ نظراً للسرعة ولكمية الكتب المترجمة. ونذكر أنه أباً وابناً له (هما حنين بن إسحاق وإسحاق بن حنين) قد قاما لوحدهما بترجمة أكثر من ٢٠٠ كتاب ورسالة من اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية.

ب- تأسيس مكتبات ومدارس ونقل الكتب من المجالات الحضارية المجاورة إلى مجال الحضارة الإسلامية.

ت- هجرة العلماء (أو بتعبير حديث: هروب الأدمغة) إلى المراكز العلمية والتعليمية في العالم الإسلامي.

- عصر الازدهار الذاتي للحضارة الإسلامية، بدءاً من القرن الثالث الهجري حتى القرن الخامس.

- عصر الازدهار العميق للثقافة الإسلامية والأدب العرفاني. وهنا يذكر أنّ العلاقة المتأصلة بين العرفان والأدب هي من عجائب الثقافة الإسلامية التي

تتمتع برصيدٍ عظيمٍ في هذه الناحية لا نجده في أية ثقافة أخرى؛ إذ إنّ شخصيات عظيمة في هذا المجال وصلوا إلى قمم رفيعة وتحولوا أنجماً ساطعة في سماء المعرفة لتاريخ البشرية. وازدهرت هذه المرحلة ابتداءً من القرن الرابع، ووصلت ذروة الازدهار في القرن السابع بعد الهجرة.

- عصر الفن والهندسة المعمارية؛ كأنّ من السنن المنطقية للتاريخ أن لا يكشف الفن والرسم والهندسة المعمارية عن وجوها إلا بعد أن تكون العلوم العقلية والتجريبية قد وصلت إلى نقطة الكمال، وبعد أن تكون معرفة الإنسان بالوجود والحياة قد تعمّقت، والفنون الأدبية قد اكتملت. ومما يثير الإعجاب أنّ الفنون، ولا سيما الهندسة المعمارية، قامت من بين الخراب والدمار اللذين أحدثتهما الصليبيون والتتار بضرباتهم الموجعة والمدمرة على العالم الإسلامي، فبشّرت بعودة الحياة إلى جسد الإسلام في العصر الصفوي - العثماني - الغوركاني. فليس من قبيل الصدفة أن يشهد الفن الإسلامي ذروة ازدهاره بين القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر الهجري في إيران والسلطة العثمانية، وكذلك في الهند.

- عصر الجمود: تعرّض العالم الإسلامي لهجومين كبيرين، من الصليبيين غرباً، ومن التتار شرقاً. واستمر الأول مئتي سنة، والثاني نحو ثلاث مئة سنة. ونتيجة لهذين الهجومين أُنْهَكَ المسلمون ودُمِّرَ ما بنوه من حضارة في مصر وفي الهلال الخصيب بيد الصليبيين، وفي ما وراء النهر وخراسان والعراق بيد التتار بوحشية قلّ نظيرها، فاهتزت أسس الحضارة الإسلامية بعد تدمير البلاد وقتل العباد، وتفشّت روحية الخيبة واليأس في الثقافة الإسلامية الرائدة. وعلى الرغم من وجود جوهر الحركة والتقدم والتطوّر في الذات الإسلامية، فإن هذين الهجومين تركا آثاراً مدمرة في جسد الحضارة الإسلامية أدّت إلى ظهور عصرٍ من الجمود فيها وصل ذروته في القرن الثامن والنصف الأوّل من القرن التاسع

الهجري.

- عصر تجديد النهضة: بعد هزيمة الصليبيين في الشام وفلسطين على يد صلاح الدين الأيوبي (١١٨٧م / ٥٨٣ق)، وهزيمة التتار في معركة عين جالوت على يد المماليك في مصر (١٢٦٠م)، ظهرت أجواء آمنة في الشام والروم وشمال إفريقيا مكّنت المسلمين من الحفاظ على ما تبقى من التراث الثقافي الإسلامي.

مضافاً إلى سيف صلاح الدين الأيوبي ومقاومة المماليك في مصر، يجب أن نشير إلى شخصيات فكرية كبيرة من المشرق تصرّفوا بحكمة وشجاعة من أجل تقليل الآثار المدمرة والحفاظ على ما يمكن حفظه من التراث والحضارة، منهم الشيخ نصير الدين الطوسي، والشيخ شمس الدين صاحب الديوان، وعطا مالك الجويني، والشيخ رشيد الدين فضل الله الهمداني، وآخرون ممن خاطروا وجازفوا بحياتهم ووضعوا رؤوسهم بين فكي الأسد. ومن المؤكد أنّ ما قام به هؤلاء لا يقل أهمية عما قام به المجاهدون في مصر والشام وفلسطين.

نتيجة التواصل بين البقية الباقية من التراث والثقافة في الأرض الإسلامية المحروقة بدأت البذور تدريجاً تنبت شجيرات ما لبثت أن تحوّلت إلى دوحات كبيرة في أرجاء العالم الإسلامي، فظهرت السلطنة العثمانية والدولة الصفوية وملوك غوركان، وتمّ تنظيم البيت الإسلامي سياسياً.

- الهجوم الاستعماري الغربي وبدء دورة جديدة من الجمود. فبعد عصر النهضة ظهرت دول قوية في أوروبا قامت بغزو العالم الإسلامي بحثاً عن مواد أولية رخيصة، وعن أسواق لمنتجاتها الصناعية. فالبرتغاليون غزوا أفريقيا والهند ومسقط وإيران. والبريطانيون هاجموا غرب أفريقيا وشرقها وجنوبها وجنوب شرق آسيا. أمّا الفرنسيون فهاجموا مصر وشمال أفريقيا وغربها. والإيطاليون بدورهم غزوا شمال وشرق أفريقيا. والهنديون أرسلوا جيوشهم

إلى جنوب آسيا وشرقها؛ هذه الظاهرة بدأت منذ القرن الخامس عشر الميلادي، ولكنّها وصلت ذروتها في القرن التاسع عشر.

الهجوم الثاني للإفرنج يجب أن نعبر عنه بالحرب الصليبية الثانية، علماً أنّ هذه الحرب كانت أكثر تعقيداً من الأولى. فهذه المرة جاء الصليبيون من دون أن يرفعوا راية الصليب، مستخدمين أسلحة نارية بدلاً من السيف والرمح. ولكن أسوأ ما في هذا الهجوم أنّ الغزاة هذه المرة تحركوا نحو ضرب ثقافة المسلمين وتخريب عقيدتهم الإسلامية وسائر الشعوب المغلوبة.

هذا التحرك ترك آثاراً سيئة جداً في العالم الإسلامي و- كما يقول محمد قطب - ساق المسلمين إلى عصر جاهلي جديد كشكل جديد من الاستعمار الفكري أو الاستعمار المزيّن بأدلة فكرية وفلسفية مبنية كلها على أساس فصل الدين عن المجتمع، مذكّرين في هذا الصدد بالتجربة الغربية كتجربة موفقة من أجل الخلاص سياسياً واجتماعياً من حكم الكنيسة والخروج من القرون المظلمة إلى عصر التنوير؛ فما عليكم أنتم المسلمون - إذ أردتم التقدم إلا أن تحذوا حذونا وتتركوا الإسلام جانبا!

والإفرنج بأساليبهم الدعائية هذه، والتي كانت أكثر تأثيراً وفاعلية من قذائف مدفعيتهم، استطاعوا أن يقنعوا عدداً من السذج المخلصين، وجماعة من الخائبين سياسياً واجتماعياً في المجتمعات الإسلامية، بصوابية نظرتهم، فظهرت ظاهرة غريبة جداً في العالم الإسلامي؛ إذ تطوع جماعة من أبناء المسلمين بالعمل مجاناً كمروجين لهذه النظرة الغربية. لم يكن بإمكان الغربيين أن يبدعوا خطة أكثر فاعلية لتحويل ثقافة المسلمين مما قاموا به، ولذلك استمروا في تطبيق هذه الخطة، ولكن بأساليب مختلفة. على أنّ هذه المرحلة من الجمود كانت أكثر جدية من مرحلة الجمود الأولى التي ظهرت بعد الغزو الصليبي والتتاري؛ لأنّ الغزاة في تلك المرحلة، وإن غلبوا المسلمين عسكرياً، فإنهم تأثروا بثقافة المسلمين،

واعتنقوها نوعاً ما، ولكنهم في مرحلة الجمود الثانية غلبوا المسلمين ثقافياً، فجاؤا بالتكنولوجيا مشفوعة بثقافة الإلحاد والابتعاد عن الدين. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ الهجوم الفكري الغربي لتغيير ثقافة المسلمين كان بمنزلة الصعقة الكهربائية على الجهاز العصبي للعالم الإسلامي؛ هذه الصعقة - بغض النظر عن آثارها السلبية - أوجدت أمواجاً حياتية أدت بدورها إلى سلسلة متصلة من حركات تاريخية في عرض جغرافيا العالم الإسلامي عبّر عنها بالصحوّة الإسلامية أو الدعوة إلى العودة إلى الإسلام.

تختلف تسمية هذه الظاهرة وتحليلها باختلاف الزاوية التي من خلالها ننظر إليها. ولذلك نرى أنَّ المفكرين المسلمين استخدموا مصطلحات مختلفة، كل حسب نظريته. من هذه التسميات: طلب الإصلاح، والسلفية، والعودة إلى الذات، ومكافحة الخرافة، والتجديد، ومجابهة الاستعمار، ووحدة المسلمين، والصحوّة الإسلامية.

إنَّ اختيار مصطلح الصحوّة الإسلامية وتخصيص فصل مهم من المجلد الرابع من كتابنا لهذه الظاهرة يدلّ على جامعية هذا المصطلح وتقاربه مع الفصول الأخرى. والنقطة الأكثر أهمية من التسمية، هي اكتشاف نوع من التشابه بين مختلف المراحل لتاريخ الثقافة والحضارة الإسلامية في الدورة المعاصرة، فكأنَّ الرسم البياني للحضارة الإسلامية يعيد منحاه، ممَّا يذكرنا بنوع من فلسفة التاريخ القائلة بأنَّ التاريخ يعيد نفسه، أو القول بأنَّ الإسلام يكتنز في داخله إمكانية إعادة بناء ذاته. والشاهد على ذلك هو موقع الإسلام في العصر الراهن؛ إذ يعترف القاصي والداني بأنَّ الدين الإسلامي هو أكثر الأديان جاذبية بين الاستنتاج من كُُلِّ هذا بأنَّ هذا الدين ما زال حياً، وهو - مثله مثل سائر

الكائنات الحية - قادر على تطهير ذاته من الداخل وترميم خلاياه البالية وإخراج المواد الفاسدة أو المفسدة من داخله، وهو يمتلك جهاز مناعة يمكنه من الدفاع عن نفسه مقابل كل عنصر دخيل مضر لنموه وسموه وقدرته على تحويل مواهبه الذاتية من القوة إلى الفعل. ويمكن تقسيم الدورة الجديدة من الصحوة الإسلامية إلى مراحل عدة:

- الدعوة: كما أنَّ الإسلام بدأ بالدعوة النبوية، كذلك في عصر الصحوة نرى عدداً كبيراً من الدعاة والمفكرين بدأوا بالدعوة إلى إحياء الإسلام، منهم الأمير عبد القادر والسيد جمال الدين الأسد آبادي (المعروف بالأفغاني)، والشيخ محمد عبده، والسيد أحمد خان، والشيخ فضل الله النوري، وعبد الرحمن الكواكبي، والشيخ شامل، ومحمد رشيد رضا، والعلامة محمد إقبال اللاهوري، والسيد حسن مدرس، والإمام حسن البنا، وسيد قطب، وأبو الأعلى المودودي، والسيد محسن الأمين العاملي، وأخيراً الإمام روح الله الخميني؛ هؤلاء كلهم دعوا الناس إلى العودة إلى الإسلام، فلبى الناس دعوتهم ودخلوا في البيعة الإسلامية أفواجاً. والنتيجة نهضة شاملة على مستوى العالم الإسلامي لإحياء الدين والقيم الدينية نعبر عنها بالصحوة الإسلامية.

إنَّ البحث في التاريخ المعاصر وإلقاء نظرة دقيقة إلى الوقائع في الزمن الحاضر يكشف بوضوح أنَّه ليس هناك أية دولة إسلامية إلا وفيها أثر من الصحوة الإسلامية والعودة إلى الإسلام. وهذا الواقع، إن دلَّ على شيء، فإنَّها يدلُّ على النجاح الباهر لأولى مراحل النهضة الإسلامية أو الولادة الجديدة للإسلام. وإبرازاً لأهمية هذه المرحلة وخطورتها، نرى كيف أنَّ الطامعين في ثروات العالم الإسلامي وورثة الاستعمار قد شتموا عن سواعدهم لمجابهة هذه النهضة والقضاء عليها، ولكن هذه المرَّة تحت شعارات جديدة، مثل الدفاع عن السلام والأمن والديمقراطية وحقوق الإنسان، ودائماً في إطار نظرية صدام

الحضارات، خصوصاً أنّه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والتطورات التالية، أخذت هذه المجابهة منحى عسكرياً بكُلِّ ما للكلمة من معنى.

- تأسيس الحكومة الإسلامية: بناء على التقسيم الأوّلي، فإنّ المرحلة التي تلي عصر الدعوة يجب أن تكون مرحلة تأسيس الحكومة الإسلامية. ولقد بدأت محاولات بقوة في كلا الساحتين السنية والشيعة على صعيدي النظرية والعملية في هذا الصدد. ففي الساحة السنية كانت الدعوة إلى إحياء الخلافة الإسلامية تشكّل المحور الأصلي لإقامة الحكومة الإسلامية بواسطة المفكرين الإسلاميين. فمثلاً محمد رشيد رضا، وهو من المؤسسين للفكر السلفي، طرح موضوع الخلافة بشكل جدي، وكان اقتراحه العملي إقامة الحكومة الإسلامية الشاملة بمركزية الموصل، ومبايعة الإمام الهادي، إمام الزيدية في اليمن بصفته خليفة المسلمين.

أما في الساحة الشيعية، فقد أصدر آية الله النائيني نظريته حول الحكومة الإسلامية في كتابه المعروف تنبيه الأمة وتنزيه الملة، ثم طرح الإمام الخميني نظرية ولاية الفقيه في شكل معاصر لإقامة الحكومة الإسلامية.

وفي القسم الثاني من هذه المرحلة، نشاهد محاولات عملية لإقامة الحكومة الإسلامية. ففي شمال نيجيريا قام عثمان دان فوديو بتأسيس حكومة إسلامية استمرّت نحو مئة سنة، وذلك في بداية القرن التاسع عشر الميلادي. وهناك محاولات أخرى ناجحة في الساحة السنية يمكن أن نشير إلى ما قام به الدكتور حسن الترابي في السودان بمشاركة الفريق حسن عمر البشير لإسقاط نظام جعفر النميري العلماني وإقامة حكومة إسلامية بهدف تطبيق الشريعة. وفي تركيا حاول حزب الرفاه بقيادة نجم الدين أربكان إيجاد حكم إسلامي، ولو بصورة غير معلنة؛ وذلك خوفاً على مشروعه من جنرالات الجيش، واستطاع، من خلال اتباع أساليب مختلفة، تشكيل حكومة ائتلافية مع السيدة طانسو تشيلر،

من إنجازاتها الرمزية كانتا السماح للنساء بارتداء الحجاب، وإقامة الصلوات جماعة في الدوائر الحكومية، وكذلك توسيع دائرة النشاط لمدارس (إمام - خطيب).

أما في الجزائر، فإنّ جبهة الإنقاذ الإسلامية بقيادة السيد عباس مدني أخذت تتمتع بشعبية واسعة؛ إذ حصلت على أكثرية الأصوات في انتخابات البلديات في المدن الجزائرية.

أما في الساحة الشيعية، فقد قام آية الله السيد عبد الحسين اللاري بتأسيس حكومة إسلامية في جنوب إيران على أساس مبدأ ولاية الفقيه، وذلك في أوائل القرن العشرين الميلادي. كذلك يمكن اعتبار تأسيس حكومة گيلان بواسطة الميرزا كوچك خان الجنگلي في إطار حزب الاتحاد الإسلامي محاولة - ولو غير كاملة - لإقامة حكومة إسلامية.

وفي باكستان، أيام حكم الجنرال ضياء الحق، تمّ التصويت على مشروع تطبيق الشريعة في البرلمان وتغيير اسم الدولة إلى جمهورية باكستان الإسلامية. وأخيراً يمكن اعتبار إقامة الجمهورية الإسلامية في إيران أبرز مصداق لتأسيس الحكومة الإسلامية في عصرنا الحاضر.

- انتشار الدين الإسلامي: بعد مرحلتَي الدعوة وإقامة الحكومة في الدورة الأولى للمسار التكاملي للحضارة الإسلامية في القرن الأول الهجري، جاءت مرحلة انتشار الإسلام في أرجاء العالم آنذاك. وكذلك في الدورة الثانية نشاهد واقعاً مشابهاً في مسار إحياء الحياة الإسلامية في عصرنا الجديد. فسرعة انتشار الإسلام في أميركا وأوروبا وإفريقيا في العقود الأخيرة تعتبر مؤشراً مهماً حسب مقتضيات الزمن المعاصر في هذا المجال.

إعادة بناء الثقافة والحضارة الإسلاميتين: في الظروف الراهنة، وبعد الصحوّة الإسلامية ونهضة المسلمين، نرى أنّ الثقافة الإسلامية تعيد إنتاج

نفسها بسرعة. وفي ظل عملية الإحياء الثقافي، نرى أنَّ حيل السحرة في بلاط فراغنة العصر لم تعد تغوي الناس. فالقيم المستوردة من الغرب خسرت بريقها ليس لدى المثقفين فحسب، بل حتى لدى التجمعات المليونية لعامة المسلمين. فحاملوا مشاعل الثقافة الإسلامية قاموا بالتصدي للمنظرين الغربيين من خلال تأليف كتب قيمة مبنية على الفكر والثقافة الإسلامية الغنية، منها جاهلية القرن العشرين والمستقبل للإسلام للسيد قطب، وفلسفتنا واقتصادنا لآية الله السيد محمد باقر الصدر، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن النووي، ومبادئ الفلسفة والمنهج الواقعي للعلامة طباطبائي، ومؤلفات قيمة لآية الله مطهري؛ وهذه كلها نماذج تنظرية من أعمال المفكرين الإسلاميين لإيجاد الأطر الضرورية لإعادة إنتاج الثقافة الإسلامية، إضافة إلى محاولات جدية من بعض الشعوب المسلمة للحصول على التكنولوجيا المتطورة، مما يوجب الخوف لدى المستعمرين الغربيين، وكلها تبشر بطلوع الفجر مجدداً في أفق الحضارة الإسلامية.

* * *

إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب

نقاش هادئ على ضوء نشر الرسوم المسيئة للرسول

الكريم

(القسم الأول)

□ الأستاذ: نبيل علي صالح (*)

التهنئة

لا يزال ملفُ العلاقة بين الشرق والغرب، وبالتحديد العلاقة بين الغرب والحضارة الإسلامية، حياً ومتفاعلاً ومتحولاً على أوجه ومسارات متعددة، مستقيمة أحياناً، ومتعرجة أحياناً أخرى كثيرة، تتخللها منعطفات حادة ومتوترة وخطيرة جداً.

وقد لاحظنا مدى اتساع رقعة الانقسام والتناوب الحضاري بين الفريقين، وازدياد التعقيدات في طبيعة العلاقة الإشكالية القائمة بينهما (بين الغرب والإسلام) بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١م، وما تبعها من إسقاط نظامي طالبان والعراق، والحرب الغريبة - الأمريكية الطويلة ضد ما يسمى

(*) باحث وكاتب سوري مهتم بشؤون وإشكاليات الثقافة العربية، بكالوريوس في هندسة الطاقة الكهربائية.

بالإرهاب الدولي! التي كرّست في ذهنية الغرب عموماً تلك النظرة النمطية القديمة السائدة تاريخياً عن الدين الإسلامي من حيث كونه - كما يزعمون - دين الأصولية والعنف والإرهاب، وأنّه يخترن في داخل منظومته الفكرية والتشريعية مبادئ العنف وإلغاء الآخر.

في مقابل هذه النظرة السلبية شبه المتأصلة فكرياً وعملياً في وعي ولا وعي الغرب الثقافي التاريخي، والتي يظهر أنّها لا تزال تتراكم وتتكدّس يوماً بعد يوم مع تحولات الواقع الدولي وتغيرات السياسة والاقتصاد والاجتماع العالمي.. وإزاء ما أحدثته وما يمكن أن تحدثه تلك الإشكالية لاحقاً من منعكسات وتأثيرات مستقبلية غير محمودة العواقب على قضية التفاعل الإيجابي التكاملي والحوار العقلاني الهادئ والتلاقي الحضاري السلمي بين مختلف الشعوب والأمم المكوّنة لعالمنا الأرضي كله..

ولعلنا نذكر هنا - كمثال وشاهد حيّ على العلاقة المتأزمة - ما قامت به منذ فترة بعض الدوائر الثقافية والإعلامية الغربية من إعادة نشر لمجموعة رسوم كاريكاتورية مسيئة لنبي الإسلام '، بنيت بمجملها - كما قلنا - على ما هو متراكم ومخترن تاريخياً وتقليدياً في داخل ذهنية الغرب من صور مشوهة وغير حقيقية عن واقع الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية.

إزاء كلّ ذلك، سنحاول في هذه الدراسة استعراض وتحليل هذه العلاقة المتأزمة بين الغرب والإسلام (حضارياً وسياسياً)، وإبراز الصورة الحقيقية للإسلام كدين ورسالة إنسانية ليس لها من غاية وهدف حياتي سوى المعرفة (معرفة الذات والخالق والوجود) والتكامل الروحي والوجودي (وصول الإنسان إلى كماله الممكن له)، من خلال إعادة بناء الإنسان على صورة فطرته الأولى النقية التي فطر الله تعالى الناس عليها: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠)؛ وذلك في محاولة لتغيير تلك

النظرة القائمة حالياً والناجمة بمعظمها عن مستجدات السياسة وتداخلاتها، ومحاولات قسر الدين لصالح اللعبة السياسية هنا وهناك.

:

ما هو الغرب؟! وما يتشكل، بالمعنى المعرفي والعملي؟! هل هو مجرد حالة ذهنية افتراضية؟! أم أنه واقع سياسي حقيقي تشكل تاريخياً بالاستناد لجملة عوامل ومكونات فكرية واجتماعية تداخلت فيها الجغرافية والمصالح الاقتصادية والسياسية؟!!

ثم ما هو موقع ودور العامل الديني في صياغة وتشكيل الحضارة الغربية؟! وهل له موقع محوري أم ثانوي في تنظيم العلاقات المجتمعية السياسية والعملية في الغرب؟! وهل صحيح أن هذا الغرب - الذي كرس مبدأ العلمنة وفصل الدين عن الدولة منذ قرون عديدة - لم يعد دينياً في تعاملاته وعلاقاته مع باقي الثقافات والحضارات القائمة ومنها ثقافتنا الإسلامية؟! بل يتعاطى معها من منظور المصالح المتبادلة الخاضعة لمنطق السوق التداولي؟!..

في الواقع نريد منذ البداية أن نحدد ما نقصده بالغرب، وهو هنا الغرب بالمعنى الجغرافي (وليس بالمعنى السياسي - الثقافي فقط المتداول حالياً في مختلف الأوساط الدولية)، الذي يتحرك في الواقع العالمي - في مجمل علاقاته وتشعباته الدولية - كأبي نظام سياسي آخر بما يحقق تطلعاته وأغراضه، ويضمن مصالحه ومصالح شعوبه ومجتمعاته.

والملاحظ هنا أن الكثير من المؤرخين والمفكرين أعطوا لمفهوم الغرب دلالة فكرية وصفة مفهومية نقلته من المعنى الجغرافي⁽¹⁾ إلى معنى آخر جديد طغت عليه الرؤية الثقافية التي باتت تنظر إلى الغرب من منظور كونه واقعاً مفاهيمياً غير مرتبط بمنطقة جغرافية محددة كما كان عليه الحال في السابق. وبهذه النظرة

أصبحت اليابان - الواقعة في أقصى الشرق - من الدول الغربية^(١) المهيمنة على العالم اقتصادياً، باعتبارها أحد الدول الصناعية الكبرى التي تشكّل مع كُُلٍّ من الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وكندا مجموعة السبعة الكبار الذين يسيطرون على اقتصاد العالم، ويديرون عجلته، ويتحكمون بمصيره. وهذا توجهٌ فكريٌّ وتوسيعٌ أيديولوجي وليس جغرافياً، يركز على ما تقوم به تلك الإدارات السياسية الغربية من فرض إرادتها ومعاييرها ونظمها الحضارية على الآخر.

أما الغرب الحضاري والتنويري (غرب فلسفة الأنوار العقلية) الذي أبدع وأنتج وأضاف (ولا يزال يبدع ويضيف) أشياء جديدة (فكرية وعلمية وتقنية وصناعية هائلة وو..الخ)^(١)، فهو ليس موضع نقاشنا وانتقادنا هنا، بالرغم من وجود كثير من الملاحظات الفكرية النقدية على طبيعة الرؤى والتصورات المفاهيمية التي يعتقدها ويعتقها حول الوجود والإنسان.

ويبدو لنا حالياً أنَّ النظرة إلى هذا الغرب - باعتباره فضاءً سياسياً وسياًقاً حضارياً - هي النظرة القائمة والمهيمنة لدى قطاعات واسعة من نخبنا ومفكرينا وأفراد مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وبهذا المعنى يصبح الغرب صفة تطلق على مجمل هذا المناخ «الحضاري - الثقافي» المتشكل تاريخياً في أوروبا بعد حدوث تحولات وصراعات سياسية واجتماعية عنيفة عاصفة، (من قبيل: حروب أهلية ونزاعات طائفية مذهبية - مواجهات شرسة بين ممثلي الدين والعلماء على خلفية العنف الكنسي العاري «محاكم التفتيش»^(١) الذي مورس بحق هؤلاء العلماء ممن وضعوا قوانين ونواميس علمية واكتشفوا نظريات وسنن حياتية وكونية مخالفة لرؤى ومقدسات الكنيسة والاكليروس المسيحي - تطورات علمية واكتشافات قانونية) أفضت بمجمّلها إلى خلق تيارات الحداثة والعلمنة والتنوير الأوروبي التي أقرّت وكوّنت المبادئ التالية:

- حرية الفرد المطلقة وعدم وجود أية سلطة مهيمنة عليه سوى سلطته الذاتية الضميرية الخاصة به. وبذلك تمّ إلغاء دور وتأثير الطقوسية الدينية المسيحية على الأفراد والمجتمعات التي كانت تدور في فلك رجال الدين ممن كانوا يمتلكون زمام المبادرة والحكم بالتكاتف والتعاقد مع السلطات الزمنية التي كانت قائمة في ذلك الوقت.

- واعتمدت مبدأ (وعقيدة) العلمنة كثقافة ومنهج عملي حيادي تجاه الأديان والطوائف..

- وأبعدت الدين عن ساحة الفعل الوجودي العملي، وحجّته وأرجعته إلى وضعه الطبيعي السابق كحالة من حالات الإيمان الفردي الذاتي الذي لا علاقة له بمجريات الواقع من حوله.

وبمعنى آخر فقد أقام الغرب وجوده الرمزي والمفاهيمي على الفلسفة العقلية والعلمية المرتكزة على العقل والتجربة والحس والرؤية العيانية. وهي نظرة كونية وفلسفة حياتية عن الوجود والإنسان مختلفة ومغايرة للنظرة الكونية الإسلامية التي كرّست مبدأ الخلافة والأمانة (خلافة الإنسان): ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] - (أمانة الصلاح والبناء والرشد الحيائي والوجودي): ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والغرب كدول وتيارات وواقع (جغرافي - سياسي) ليس واحداً متوحداً إلا بالجهة الجغرافية التي تعيش عليها حالياً معظم المجتمعات الغربية المتدينة مسيحياً، وهي الجهة الواقعة إلى الغرب من مركز الحضارة الإسلامية (مهبط الأديان والرسالات: فلسطين - شبه الجزيرة العربية)، كما أنّ الطبائع بين مختلف التيارات والأنظمة الفكرية المسيطرة هناك متفاوتة ومتغيرة، والأمزجة مختلفة ومتقلبة.. فما يمكن أن تشاهده وتتفاعل إيجاباً أو سلباً معه في انجلترا مثلاً قد

يبدو مختلفاً عن فرنسا، وهما بدورهما مختلفان عن ألمانيا وإيطاليا.. فنحن إذاً نلاحظ وجود حالة تنوّع في طبيعة النظرة للأديان والثقافات. أي: أنّه يوجد أكثر من تيار ثقافي وديني مؤثر في العالم الغربي فيما يخصّ العلاقة مع الإسلام، ومع الحضارة العربية الإسلامية:

فهناك التيار الديني المتطرف (المشابه - في السياق العام - للتيارات الأصولية المتشددة والمتعصبة في اجتماعنا الديني الإسلامي، التي تلغي الآخر) الذي لا يزال ينظر إلى الإسلام بنفس النظرة القروسطية القديمة التي كانت تعتبر الإسلام ديناً غير سماوي، وأنّ محمداً ليس نبياً، وأنّ عقائده التي جاء بها عبثية، ولا معنى لها؛ لأنّها تنكر الحقائق المسيحية^(١). والواضح أنّ هذا التيار ضعف في الغرب الحديث، ولم يعد له أتباع كثيرون، بسبب رسوخ قيم الحداثة العقلية التي أفضت إليها قيم ومبادئ عصر النهضة الأوروبي.

طبعاً لا يمكننا غصّ النظر هنا عن التحريض شبه الدائم الذي تقوم به وتغذّيه باستمرار نخب سياسية وثقافية ومراكز قوى صهيونية ويهودية متطرفة منتشرة في العالم الغربي ضدّ الإسلام والمسلمين. وقد ساهم هذا المناخ السلبي - المتولد تاريخياً^(٢) والموجود أصلاً في داخل البيئة الثقافية الغربية تجاه العرب والمسلمين - في إبقاء حالة الشك وعدم الثقة بين أتباع الديانتين (المسيحية والإسلام)، بما يخدم مصالح القوى السابقة في إذكاء عوامل التنابذ والخلاف بينهما، ويحقّق مكاسبها الخاصة في استدامة الصورة النمطية العنيفة للمسلم في الذهنية الغربية عموماً.

وهناك أيضاً التيار العلماني المسيطر حالياً على واقع وحياة وسياسات المجتمعات الغربية عموماً، والمتحرّر تقريباً من نمطية وأوهام التفكير الديني المسيحي واليهودي القديم (الذي لا يعكس حقائق بمقدار ما يحرف وقائع ويختلق أحداثاً، ويقرّر قيماً ومبادئ)...

وهذا التيار الحداثي الغربي ليس مهتماً^(١) - بصورة عامة - بأقوال وأفكار وثقافة المتدينين والأديان عموماً، بل إنه ينظر بحيادية تامة إلى الأديان كلها، ويقرّ مبدأ الدولة العلمانية المدنية، وضرورة الخضوع لسلطتها ونظامها العام الذي لا يميّز بين أتباع دين وآخر.. فالجميع متساوون أمام القانون الوضعي، ولكلّ حقّه في التعبد، وحرّيته التعبير وفي الولاء والالتزام بأيّ طقس ديني.. فالدساتير التي توصّل إليها الغرب الحديث علمانية تكفل الحريات الخاصة والعامة لكافة مواطنيها وحتى للمقيمين على أراضيها.

أمّا الجذر الأساسي الذي ارتكز عليه الغرب في تطوّره الفكري، فهو الحضارة اليونانية القديمة - حضارة العقل والمنطق - التي شكّلت الوعاء الحضاري الأهم الذي استقت منه أوروبا (والغرب عموماً) شرارات - إذا صحّ القول - تطوّرها وازدهارها والمداмик الأولى لتقدمها اللاحق بعد مرورها بأدوار كثيرة ثقافية وسياسية ومجتمعية أهلية شديدة التعقيد والتنوع. كما كان للمسيحية تأثيرٌ كبيرٌ في ذلك أيضاً، خصوصاً بعد تبنيها واحتضانها من قبل الحضارة الرومانية.

ومن المعروف تاريخياً أنّ الحضارة الرومانية قامت على أجزاء واسعة من القارة الأوروبية، وكان سقوطها في القرن الخامس الميلادي مدخلاً لكثيرٍ من التغيرات والتحوّلات في تلك القارة كان من أبرزها ما حدث إبان عصر الهجرات؛ حيث عانت كثيراً تحت ضغط صعوبة الحياة والمعيشة التي سادت خلال العصور المظلمة.

وأيضاً كان للحضارة الإسلامية - التي شعت في الأندلس - دور حيويّ مهم في انبثاق النهضة الأوروبية التي تجلّت من خلال ذلك الدور المميز للفكر الإسلامي في الأندلس - لا سيما عبر فكر ابن رشد - ليس فقط في إيصال (ولكن في إعادة قراءة) الفلسفة الإغريقية، على عكس ما تحاول المصادر الغربية إشاعته

والترويج له من أنَّ الأسطورة المؤسسة للغرب تشكلت فقط على مرجعية يونانية - رومانية، ومن دون وجود أيّ دور أو فضل للمصادر الشرقية أو غير المسيحية الأخرى (المصرية، الهندية، الإسلامية...) على الحضارة الأوروبية^(١). وبعد دخول عصر النهضة الأوروبي، وفترة الممالك الجديدة، وبداية تحرر المجتمعات من ربقة الحكم الديني الكنسي الظالم، بدأت عصور الاستكشاف، وانطلقت الاختراعات العلمية، وازداد الاهتمام بالعلوم الإنسانية والتطبيقية. وكانت البرتغال أوّل من بدأ بالاستكشاف في القرن الخامس عشر الميلادي وتبعتها بعد ذلك إسبانيا، ومن ثمّ جاءت بعدها فرنسا والمملكة المتحدة وهولندا.. حيث لاحظنا كيف قامت كلّ من هذه الدول باستعمار الشعوب الفقيرة والاستيلاء على أراضيها ونهب خيراتها وموادها الخام الهائلة وتحويلها لاحقاً إلى أسواق لتصريف منتجاتها في قارات آسيا وأفريقيا والأمريكيتين^(٢).

وبعد انتهاء عصر الكشوفات الجغرافية، وتدفق الثروات من أراضي المستعمرات، أصبح الشغل الشاغل عند الغرب هو في كيفية نشر أفكاره وبث قيمه ومفاهيمه حول الديمقراطية وكيفية تطبيقها. فانطلقت الشعوب الأوروبية للمناداة بالحرية والمساواة الفردية، وكان أبرز حدث توج تلك الأفكار والتوجهات هو الثورة الفرنسية التي خلقت مناخاً ثقافياً وسياسياً جديداً في أوروبا، وأشاعت أفكار الثورة على الإقطاعيين أو رجال الدين في مختلف مناطق القارة. كما وأدى نشوء القوميات - بمعناها الحديث - إلى تعزيز الصراع الدائر بين القوى العظمى في أوروبا على دول العالم الحديث. وكان من أشهر تلك الصراعات ما حدث عند استلام نابليون بونابرت السلطة في فرنسا، حيث أنشأ ما عرف باسم الإمبراطورية الفرنسية التي سرعان ما انهارت. وبعد سقوط نابليون هدأت القارة الأوروبية نسبياً، وبدأ في تلك الفترة انهيار الممالك ونظم الحكم القديمة^(٣).

وبعد ذلك - تحديداً في القرن الثامن عشر الميلادي - بدأت الانطلاقة الفعّالة للتنوير والحداثة الغربية، وانطلقت الثورة الصناعية في المملكة المتحدة (بريطانيا العظمى)، وكان من أهمّ نتائجها تحويل الاقتصاد الأوروبي تدريجياً من الاعتماد الكلي على الزراعة والمنتجات الزراعية فقط إلى الاعتماد على الصناعة أيضاً، بعد اختراع الآلة البخارية، والمحرك، واكتشاف الفحم الحجري الذي كان عصب الصناعة آنذاك.

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية حتى نهاية الحرب الباردة، كانت القارة الأوروبية مقسّمة إلى كتلتين ومنقسمة على ذاتها إلى حلفين سياسيين واقتصاديين رئيسيين هما: الحلف الشرقي (الكتلة الشيوعية) المتركزة في أوروبا الشرقية بزعامة الاتحاد السوفياتي السابق، والحلف الغربي (حلف الأطلسي) الرأسمالي، المركز في غرب القارة الأوروبية وبعض أجزائها الجنوبية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. وبعده حدثت جملة تحولات قادت إلى سقوط الكتلة الشيوعية بعد تهديم سور برلين وإعادة توحيد ألمانيا وتوحد أوروبا اقتصادياً وسياسياً تقريباً.

:

تنحو مجمل السياسات والاستراتيجيات والخطط الدولية الغربية التي تمارسها العديد من الإدارات السياسية الغربية فيما يخص طبيعة العلاقات بينها وبين دول وشعوب المنطقة العربية والإسلامية التي يتحرك فيها الإسلام كقوة محرّكة أساسية فكرياً وروحياً، تنحو منحى فكرياً تاريخياً، بات يمثل ناظماً ومعيّاراً عقدياً يحرك ويوجه مسارات تلك الإدارات، على تعددها وتنوعها واختلافاتها ومواقعها. ويظهر لنا أكثر أنّ هناك مجموعة دوافع (ومحرّضات) (غير سياسية واقتصادية على أهميتها) حضارية ودينية تبرز أمامنا كمحدّد

لطبيعة العلاقة القائمة بين الغرب والإسلام من جهة أنَّ الغرب السياسي (العلماني التنويري!) يجعل - في أحيان كثيرة - الدين والهوية والثقافة معايير جوهرية (مخفية في لا شعوره) في نسج وتنظيم العلاقة مع الدول العربية والإسلامية. وكأنني أستنتج أنَّ السياسة لدى الغرب حالياً باتت - وهي التي كانت تقوم على المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة بين الأمم والشعوب بصرف النظر عن المعتقد والهوية - عاملاً ثانوياً في تنظيم العلاقة بينه وبين العالم العربي والإسلامي، ولم تعد معيار بناء العلاقات بين الدول والشعوب المختلفة.

هذا من جهة الغرب، أمّا من جهتنا نحن في عالمنا العربي والإسلامي الكبير، فقد تشكلت جملة عناصر واعتبارات فكرية وعملية وتاريخية خلقت وكونت لدى الرأي العام العربي - بشكل عام - مفاهيم نمطية ثابتة محددة للعلاقة مع الآخر الغربي، يمكن إبرازها في الآتي:

أولاً: طغيان حالة العداء السافر للثقافة الغربية لدى الغالبية العظمى من الشعوب العربية والمسلمة، من حيث اعتبارهم تلك الثقافة دنيوية مادية مستهلكة للروح والجسد، وأنّ البديل الحضاري الجاهز لها هو الثقافة الإسلامية التي توازن بين الروح والمادة، وتهدف إلى تحقيق العدالة في الأرض، ونشر قيم الخير والتسامح للإنسانية جمعاء. وقد تکرّست عملية رفض الفكر والثقافة الغربية لاحقاً نتيجة كل تلك التراكمات التاريخية التي سيطرت على الذهن العام الشعبي العربي المسلم تجاه الغرب من حروب صليبية واستعمار قديم وحديث. وحالياً تتم تغذية هذا التصور المسبق عبر ما تقوم به بعض المواقع الغربية من حملات عدائية استفزازية سافرة ضد رموز الإسلام، كما حدث مؤخراً مع نشر الرسوم المسيئة في الدانمارك، وعرض فيلم الفتنة في هولندا، وفي غيرها من الدول الغربية.

ثانياً: عدم التمييز بين السياسة والثقافة، بين السياسي والثقافي، وطغيان

العامل السياسي الآني المتغير على العامل الثقافي الثابت والأساسي في ضبط وتحديد طبيعة ومسار العلاقة مع الغرب من كلا الفريقين (الغربي والعربي)، خصوصاً من جهة العرب والمسلمين حيث إنّ التيار الغالب عندهم - على مستوى النخب والشعوب - لا يزال يؤمن ويعتقد اعتقاداً ثابتاً وراسخاً بأنّ الإسلام دين ودولة، ولا فصل بينه وبين الحياة والواقع الحيّاتي المعاش بتحولاته وتغيراته المتعددة والمتنوعة.

ثالثاً: عدم إيجاد حلٍّ دائمٍ وعادلٍ لأمّ القضايا السياسية الإشكالية القائمة حالياً، وهي: قضية الصراع العربي الإسرائيلي (التي يمكن اعتبارها بحقّ أحد أهمّ قنوات ومنافذ التوتر والعنف في العالم حالياً)، حيث لم تعتمد مختلف الإدارات الغربية - المسؤولة تاريخياً وعملياً عن اغتصاب فلسطين - إلى إلزام إسرائيل بإرجاع الأراضي المحتلة. وقد ثبتّ هذا التعاطي السلبي في داخل ذهنية العرب والمسلمين عموماً الحالة العدائية ضدّ كلّ ما هو غربي عموماً، وكوّس صورة الغرب - وخاصة الولايات المتحدة زعيمة العالم الحر - كعدو مساند لإسرائيل ومشارك معها ضدّ مصالح العرب والمسلمين.

رابعاً: وجود اتّجاه ثقافي وإعلامي عربي وغربي حاد يعتبر أنّ الغرب والإسلام في حالة صدام حضاري دائم (ما يسمى بصدام الحضارات التي يتّجه إليها العديد من المفكرين والمؤرخين الغربيين، وتحظى بتأييد كبير من نخب وتيارات عربية وإسلامية)، وأن لا سبيل للحوار والتلاقي بين حضارتين مختلفتين ومتمايزتين، تبحران في اتجاهين مختلفين، إحداهما ثقافة العقل والتجربة والحس والعمل، وثانيتهما، حضارة القول والنص والروح والفكر المجرد.

خامساً: ازدياد حدّة الفجوة القائمة تاريخياً بين الغرب والحضارة الإسلامية من خلال ظهور مجموعة متغيرات سياسية وتحولات اقتصادية دولية حادة كالعولمة مثلاً، وما رافقها ونتج عنها من تعميق لركائز وأسس الثقافة الغربية

السائدة، من ليبرالية سياسية، وحرية تداول السلطة، وحرية تداول السلعة والمعلومة، واقتصاد السوق المفتوح، إلى الحريات العامة المطلقة للفرد والمجتمع والأمة ككل، والتي باتت تعد في عالم اليوم اللغة المسيطرة والمتحكمة في كل مفاصل العمل الاقتصادي والسياسي العالمي، أي: أنها أصبحت عناصر أولية للتعامل والتبادل بين الدول والحضارات.. وهذا ما شكّل (ويشكل باستمرار) ضغطاً قوياً على الأسس والبنى الفكرية والمكونات الثقافية للدين الإسلامي باعتباره يخترن معطيات وينبني على مقدمات وقواعد تشريعية منهجية ثقافية صارمة مختلفة - في الجذر المكون والفكر المؤسس، وتالياً في السلوك الممارس - عما هو قائم في داخل الثقافة الغربية القائمة على العلمنة والحرية.

:

لم يكن للعرب والمسلمين عموماً أيّ احتكاك عملي واضح ومعروف مع الغرب بعد خروجهم المذلّ من الأندلس إلا في حالات نادرة، وهم - بعد ذلك - لم يستوعبوا ما حدث في الغرب من تطورات هائلة كرّست وجود بون وفارق كبير بينهما.

وقد حدثت القطيعة مع الغرب بفعل المؤسسات الدينية التي كانت مسيطرة منذ نهاية العصر العباسي، وكذلك في العصرين السلجوقي والفاطمي (٨٧٨-١٠٧٥م)، وفي العهد الأيوبي (١١٦٩-١٢٦٠) وفي عهد المماليك (١٢٦١-١٥١٧). وبعد ذلك تكرّست هذه القطيعة بعد أن تمّ احتلال العالم العربي من قبل العثمانيين^(١) (تحديداً مؤسستهم الدينية المغلقة التي رفضت الاتصال بالغرب الكافر، واستطاعت عزل السلطان عبد العزيز الذي تجرّأ وطالب بفتح النوافذ على المسلمين) الذين عزلوا الثقافة العربية، وحالوا بينها وبين التلاقح مع باقي الحضارات والثقافات الغربية.

وبعد ذلك بدأت بواكير الاتصال مع الغرب تظهر وتتوضح أكثر فأكثر.. ويمكننا هنا الإشارة سريعاً إلى بعض الأحداث التاريخية الحديثة نسبياً التي ساهمت في خلق أجواء الاحتكاك الحضاري بين الغرب والإسلام، وبداية تظهير تلك «الإشكالية - الأزمة» بينهما في تاريخنا الحديث، ومنها:

- الحملة الفرنسية على مصر التي حدثت في العام ١٨٧٩م، وما تلاها من اتصال واحتكاك بين مصر وأوروبا.

وقد كان لهذا الاتصال دور أساسي في صياغة معالم كثيرة من الفكر السياسي والاجتماعي الحديث في مصر، وظهور عدد من التيارات الفكرية المصرية والعربية.

ويمكننا تشبيه تلك الحملة بالصدمة الكهربائية التي سرت في عروق ودماء العرب والمسلمين^(١)، وقد ظهرت أولى نتائجها على العرب عبر مناداة جيل النهضة «العربية - الإسلامية» في القرن التاسع عشر بالديمقراطية، والعدالة، والمساواة، وضرورة الأخذ بأسباب العلم. ولم تكن تلك المناداة إلا أثراً من آثار حملة نابليون على مصر في نهاية القرن الثامن عشر^(٢).

- تجربة محمد علي باشا^(٣)، حيث يسجل التاريخ كيفية تولي محمد علي السلطة عام ١٨٠٥ بفرمان من الباب العالي نزولاً عند رغبة الشعب المصري بالرغم من اشتداد العقبات والعراقيل الكثيرة الداخلية التي واجهت محمد علي، ولكنه تغلب عليها ودان له حكم البلاد، وانطلق بعدها ليبنى مصر الحديثة من جيش واقتصاد وتعليم (بعثات علمية إلى فرنسا).

وقد تمكن الباشا محمد علي - خلال فترة حكمه - من بناء دولة عصرية في ذلك الوقت على النسق الأوروبي، واستعان في مشروعاته الاقتصادية والعلمية بخبراء أوروبيين، ومنهم بصفة خاصة السان سيمونيون الفرنسيون الذين أمضوا في مصر بضع سنوات في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، وكانوا

يدعون إلى إقامة مجتمع نموذجي على أساس الصناعة المعتمدة على العلم الحديث. وكانت أهم دعائم دولة محمد علي العصرية: سياسته التعليمية والتثقيفية الحديثة. فقد آمن محمد علي بأنه لن يستطيع أن ينشئ قوة عسكرية على الطراز الأوروبي المتقدم (ويزودها بكل التقنيات العصرية، وأن يقيم إدارة فعالة، واقتصاد مزدهر يدعمها ويحميها) إلا بإيجاد تعليم عصري راقى يحل محل التعليم التقليدي. وهذا التعليم العصري يجب أن يُقتبس من أوروبا.

وبالفعل فإنه قام منذ ١٨٠٩م بإرسال بعثات تعليمية إلى مدن إيطالية (ليفورنو، ميلانو، فلورنسا، وروما) لدراسة العلوم العسكرية، وطرق بناء السفن، وتعلم الطباعة. وأتبعها ببعثات إلى فرنسا، كان من أشهرها بعثة ١٨٢٦م التي تميز فيها إمامها المفكر والأديب رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان له دوره الكبير في مسيرة الحياة الإصلاحية الفكرية والتعليمية في مصر.

- الحركة الإصلاحية والنهضة العربية الحديثة^(١)، التي انطلقت في الوطن العربي أولاً، وحاولت النهوض بواقع العرب والمسلمين من خلال دعوتها إلى إزالة عوامل التخلف الضعف والاهتراء التي لحقت بها من جرّاء انتشار البدع والخرافات والأساطير التي التصقت بالإسلام زوراً وبهتاناً، فأصبحت هي الدين الحقيقي الذي يدعو إليه ويمارسه الناس في مجتمعاتنا العربية والإسلامية. وقد ركّزت الحركات الإصلاحية المعبرة عن النهضة العربية - على مختلف مشاربها ودعواتها - على ضرورة العودة إلى القرآن والسنة كأساس لوحدة المسلمين، وأهمية تنقية الدين الإسلامي من الشوائب والانحرافات الكثيرة التي لحقت به عبر عصور الانحطاط العربية، كما وركّزت على الأهمية الكبرى لفتح باب الجهاد، وبخاصة الجهاد ضد الاستعمار.

وقد ساهمت هذه الحركة النهضوية النشطة في إحداث صدمة حقيقة في داخل المجتمعات العربية والإسلامية المغلقة آنذاك؛ لإيقاظهم من السبات

وحالة الموات المجتمعي الطويل الذي عاشوا فيه لقرون عديدة من دون أن يكون لهم أي أثر أو دور ما على خارطة العالم في ذلك العصر. كما جاءت تلك الحركة - في جانب داخلي منها - رداً على سياسات التتريك والإلغاء التي مارسها المستعمر العثماني بحق العرب على مدى أربعة قرون من الزمن هي المدة التي قضاها الأتراك في بلداننا العربية. فكانت الدعوة التي أطلقها رواد الإصلاح في مواجهة تلك السياسات منطلقة من ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية، والاستفادة من تفوق العرب في العلم والاقتصاد.

وقد شكّل دعاة هذا الاتجاه (الوطني - الإسلامي) عدداً من الجمعيات الثقافية والعلمية، حاول أعضاؤها عن طريق الخطب والمحاضرات إبراز فضل العرب والإسلام في الآداب والعلوم الإنسانية ككل، ووجوب عمل العرب على استعادة أمجادهم التاريخية العظيمة التي كان الإسلام ناظمها وقوتها الدافعة.

وكان من أبرز رواد وأعلام تلك النهضة - التي أسست لاحقاً لمجمل مشاريع النهوض العربي والإسلامي بمختلف توجهاتها وانتماءاتها ومشاربها - كل من:

- رفاة الطهطاوي^(١).
 - وبطرس البستاني^(٢).
 - وعلي مبارك^(٣).
 - والمصلح جمال الدين الأسدآبادي، المعروف بالأفغاني^(٤).
 - والشيخ محمد عبده^(٥).
 - وعبد الرحمن الكواكبي^(٦)، وغيرهم..
- وهؤلاء جميعاً كان لهم دورٌ محوريٌّ ونوعيٌّ كبيرٌ مثمر في الدعوة إلى الإصلاح في بدايات الاتصال مع الغرب من خلال تفتحهم العقلي وانفتاحهم

الفكري العملي الذي تمثّل عبر احترام منهج العقل وتحرير الفكر الديني من قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد، وذلك بهدف إصلاح المجتمع عن طريق تحسين نظم التعليم وإصلاح التربية والثقافة الإسلامية.

* * *

الهوامش:

(١) تعتبر أوروبا إحدى قارات العالم السبع. وهي تعدّ - من الناحية الجغرافية - شبه قارة أو شبه جزيرة كبيرة. يمتدّ الجزء الغربي منها من أوراسيا بين جبال الأورال والقوقاز وبحر قزوين من الشرق والمحيط الأطلسي من الغرب، والبحار الأبيض المتوسط والأسود ومنطقة القوقاز من الجنوب، والمحيط القطبي الشمالي من شمال القارة. وهي قارة صغيرة نسبياً مقارنة ببقية القارات ما عدا قارة أستراليا الأصغر منها. أما مساحة أوروبا فتبلغ حوالي ١٠.٧٩ مليون كم^٢، وهذا ما يشكل ما نسبته ٧.١ ٪ من مساحة الكرة الأرضية. وهي أيضاً تصنّف ثالث قارة من حيث عدد السكان في العالم؛ إذ يزيد عدد سكانها عن ٧٠٠ مليون نسمة، وهو ما نسبته ١١ ٪ من سكان الأرض. (راجع موقع موسوعة ويكيبيديا على الانترنت).

(٢) أخذ مصطلح «الغرب أو العالم الغربي» معاني متعددة، فقد كان يقتصر في الماضي على القارة الأوروبية، وبعد ذلك أضيفت إليه المستعمرات التي احتلتها قوى الاستعمار الغربي. ويمكننا القول حالياً بأنّ هذا المصطلح أصبح يستعمل للإشارة إلى تلك الدول التي تتميز بعادات وتقاليدها ونظم فكرية وسلوكية معينة تختلف عما هو سائد في غيرها من العوالم الأرضية الأخرى. وأمّا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من تقسيم للعالم إلى ثلاثة أقسام أو محاور أصبح يطلق على العالم المتقدم بالعالم الأول، وهو يضمّ عدداً من الدول الكبرى المتحالفة مع بعضها البعض ضمن ما يسمى بـ «حلف الناتو» الذي يشمل دول أوروبا الغربية مع الولايات المتحدة الأمريكية. وأصبح مصطلح «العالم الثاني» يطلق على الدول الشيوعية، مثل روسيا والصين وغيرها من الدول المتضامنة والمتحالفة معها مثل كوبا. أمّا دول العالم الثالث فقد صنفت بالدول المتخلفة التي كانت - في معظمها تقريباً، ونظرياً على الأقل - حيادية تنمي إلى منظمة دول عدم الانحياز. وهكذا أصبح مصطلح «العالم الغربي» يطلق فقط على دول العالم الأول للدلالة على تطوّره وتقدمه وأسبقته في العلم والمدنية والرقى والتقدم والتحضّر التي

ستولد في - وعي ولا وعي الغرب - ثقافة التفوق والعظمة، والتي ستتجسد من خلال الهجمة الاستعمارية الأوروبية. أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد لاحظنا كيف بدأ الوعي الغربي يراجع تاريخه وماضيه المأساوي عسى ولعل ينجح في بناء علاقات من نوع آخر مع من اقترف بحقهم جرائم في الماضي، وهو بصدد وضعهم تحت مظلته. لكن هذا التطور لم يزحزح القناعة بالتفوق على الآخرين حتى الآن.

(٣) تحتزن الحضارة الغربية في داخلها عناصر وجوانب إيجابية كثيرة، فهي تمثل خلاصة الحضارات البشرية (تراكم الخبرات والمعارف والتطورات) التي تعاقبت على وجه الأرض. وحققت وحدها الإنجازات الحضارية والعلمية والتقنية منذ القرن الثامن عشر، مثل الآلة البخارية والكمبيوتر والتقدم الطبي والديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية. ولكن لا أحد ينكر أنه قد رافق ذلك فوضى بيئية وسياسية واجتماعية وثقافية ومعنوية، وتفاوت هائل في مستوى الحياة بين أبناء الشعوب الأوروبية وبين أبناء الشعوب الأخرى، ومنها شعوبنا العربية والإسلامية...

(٤) وهي عبارة عن مجالس كنسية أسستها الكنيسة الكاثوليكية في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي (تحديداً عام ١٢٣٣م) بقرار من البابا جرينوار التاسع على خلفية الاتهامات الجائرة الجاهزة التي كانت توجهها الكنيسة آنذاك للعلماء والمفكرين، ولكل من يخرج عن أفكارها ومقدساتها التقليدية بشأن الكون والوجود والحياة. وكانت تلك المحاكم - التي يرأسها رجل دين من كبار الأساقفة - تقوم بإجراء محاكمات صورية ضد العلماء (من تثبت عليه منهم تهمة الهرطقة) بالاستناد إلى مجموعة نصوص دينية قديمة، وكانت العقوبات تصل إلى الإعدام والحرق. والمقصود بالهرطقة هنا: أي انحراف ولو بسيط، عن العقائد المسيحية الرسمية. وهذا يقدم لنا صورة عن ذروة التعصب وعدم التسامح الذي كان سائداً في عالم الغرب عندما كان الدين المسيحي مالكاً لناصرية الفرد والمجتمع والدولة آنذاك.

(٥) بالرجوع إلى كتاب البدع ليوحنا الدمشقي الذي توفي في العام ٧٥٤م، أي: بعد وفاة الرسول 'بحوالي ١٢٠ سنة، نلاحظ أن هذا الرجل يصنف في الكتاب المذكور الإسلام باعتبار أنه الزندقة رقم ١٠٠، كما ولا يعتبر الرسول الكريم محمداً ' نبياً، ويضيف بأن عقائد الإسلام غير ذات معنى بسبب تناقضها مع عقائده المسيحية. وفي كتاب آخر له (محاورة بين مسلم ومسيحي) يدافع يوحنا الدمشقي عن المسيحية - وهذا من حقّه كمؤمن بها - ويحذّر أتباعها في سوريا (التي كانت آنذاك مسيحية الديانة) من اعتناق الإسلام. وبعد يوحنا الدمشقي بقرون عديدة جاء القديس توما الأكويني محاولاً إسقاط الإسلام من ذهنية أتباعه، وغير أتباعه،

منطلقاً من الأفكار الخاطئة والتحريفية التالية التي لا يصدقها إلا جاهل وساذج، (والتي لن نستفيض في الرد عليها وتفنيدها، فقد سبقنا إلى ذلك كثيرون من علماء الإسلام الكبار ممن أشبعوا هذا الجانب درساً وبحثاً وتحليلاً وتفصيلاً، كما أنَّ المقام هنا ليس مقام الرد والاحتجاج على آراء الاستشراق الغربي).

(٦) نشير هنا إلى أنَّ التاريخ يقدم لنا نماذج عديدة وأمثلة وافرة لهذا التشويه المتعمد للدين الإسلامي، حيث إنَّه - ومنذ ما قبل الحروب الصليبية - بقيت صورة الإسلام والمسلمين في الوجدان الغربي سلبية على وجه العموم إلا في حالات نادرة، تحرك العقل فيها ليفكر قبل أن يقطع تقليدياً. وقد بلغت جهود التنفير من الإسلام والتحريض عليه ذروتها في تلك الفترة، وكان ذلك جزءاً من حملة التعبئة المضادة التي استهدفت استقطاب واستنفار شعوب أوروبا ودفعها للانضمام إلى الجيوش الجائرة التي اتجهت نحو القدس لتخليص مهد المسيح ﷺ من أيدي المسلمين «البرابرة»! و«الأشرار»!

(٧) لقد بات الدين منذ عصر النهضة عاملاً ثانوياً في واقع ومستقبل الدول الغربية، وأصبح الدور الذي يلعبه هناك هامشياً للغاية. وبالتالي فليست لديها - في الإطار العام - حساسيات عقيدية ولا ثارات ضد الإسلام. بالرغم من وجود عقليات بدائية من كلا الطرفين لا تزال تحاول إعادة الأمور إلى ما كانت عليه سابقاً.

(٨) لقد اعترف بعض كبار المفكرين في الغرب بفضل الإسلام في تهيئة الظروف اللازمة لهذا النهوض، وأكدوا أنَّه لولا مفكرو وفلاسفة الإسلام - الذين اطلعوا وفسروا وهضموا فلسفة الإغريق - لم يكن من الممكن للنهضة الأوروبية أن تقوم بمدِّ خيوط نسب مميزة مع ذلك الإرث الحضاري الكبير التي تدَّعي صلتها المباشرة به. ولكن الذي حدث تاريخياً هو إنكار وجود أي دور للحضارة الإسلامية في نقل وشرح التراث اليوناني، ولحقه عملية سحق وتدمير منظمة لكلِّ ما قام المسلمون بتشيدته وإنجازه في الأندلس. فعقب طرد المسلمين واليهود منها حوّل الأوروبيون الأندلس المسلمة (التي كانت معقلاً للتسامح والعلم في أوروبا) إلى معقل للتطهير العرقي من خلال استحداث تعبير (نقاء الدم). فكان على كلِّ من يتقدّم للحصول على وظيفة عمومية أن يثبت نقاء عائلته من الإسلام واليهودية وذلك منذ أربعة أجيال على الأقل. وهذه القاعدة القانونية لم يتوقف العمل بها في إسبانيا إلا في ١٨٦٥ م.

(٩) تحركت الهيمنة الاستعمارية الغربية انطلاقاً من مزاعم وأوهام ثلاثة هي، الدين (المسيحية)، والنقاء العرقي، والتفوق العرقي. وقد استخدمت هذه المسوغات لتبرير غزو مختلف العوالم

الأرضية، وإخضاعها والسيطرة عليه.

(١٠) راجع: الإمبراطورية الفرنسية، موسوعة ويكيبيديا.

(١١) حدث الاحتلال العثماني بداية في مصر والشام في العام ١٥١٧م.

(١٢) يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٢م)، «بأن العرب لم يعوا الهوة السحيقة التي تفصل بينهم وبين الغرب، إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية، وتعرفوا من خلالها على المنجزات العلمية الغربية، وعلى المنجزات الحضارية الأوروبية. وأتتهم قبل هذه الحملة كانوا في سبات عميق، وكانوا ما زالوا يعتبرون أنفسهم خير أمة أخرجت للناس، فوجدوا أمامهم أمة -فرنسا- أكثر منهم علماً، وأبرز تقدماً، وأكبر عقلاً، وأغزر خيراً، فصدّموا صدمة كبيرة».

(١٣) لقد كان من أهم نتائج هذه الحملة على الصعيد العلمي، اصطحاب نابليون بوناپرت معه مجموعة كبيرة من العلماء والمترجمين في شتى صنوف العلم والمعرفة. كما وجلب معه أيضاً مطبعتين حديثتين باللغتين الفرنسية والعربية. كما استطاع أحد العلماء الذين استقدمهم معه (شامبليون) فك رموز اللغة المصرية القديمة (الميروغليفية) التي كانت غامضة بعد اكتشاف حجر رشيد. وأما على الصعيد الاجتماعي فقد تعرف العرب للمرة الأولى على بعض النظم الإدارية والقانونية والمدنية التي كانت سائدة في الغرب، واطلعوا على كثير من عاداته وتقاليده (بسلبياتها وإيجابياتها) التي كانت مجهولة تماماً بالنسبة إليهم. كما وبنبغي علينا ألا ننسى هنا الإشارة المهمة إلى أن تلك الحملة قد لفتت نظر الشعب المصري (والعربي عموماً) إلى أهمية بلدهم.. حيث أثارت لديهم حماسة وطنية ووعياً قومياً، ووحدتهم في مواجهة المحتل الذي جاء لينهب الخيرات والثروات ويتحكم بالموارد والطاقات الموجودة عندهم، وإن كان لقدمه الكثير من الآثار والنتائج العلمية الإيجابية التي ذكرناها آنفاً.

(١٤) هو محمد علي باشا الذي عاش بين (١٧٦٩-١٨٤٩م). ويعدّ بحق باني مصر الحديثة وحاكمها الفعلي ما بين ١٨٠٥-١٨٤٨م، وقد حكم مصر خلال مرحلة حرجية من القرن التاسع عشر، واستطاع أن ينقلها من عصور التردّي إلى أن أصبحت دولة قوية يعتد بها.

(١٥) اصطلاح العلماء والمفكرون الأوائل إطلاق هذه الصفة (النهضة) على هذا الحراك الفكري والسياسي الذي عمّ البلاد العربية منذ بدايات القرن الثامن عشر (تحديداً بين سنة ١٨٢٠ و١٩١٤م)، حيث تنبه العرب إلى ما فيه من تخلف وتأخر عن باقي الأمم، وأدركوا ضرورة إحياء الماضي - بما فيه من أصالة وتراث عربي إسلامي أصيل ومنفتح - والعمل على تجاوز التخلف من أجل بناء مستقبل أفضل.

(١٦) عاش رفاعة الطهطاوي بين عامي (١٨٠١-١٨٧٣م)، وقد ألّف كتابيه المشهورين: (تخليص

الإبريز في تلخيص باريز، ومناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية) بعد عودته من باريس. ويبدو أنَّ الأفكار التنويرية التي طرحها فيها (من قبيل: التقدم العلمي، والنهوض الحضاري، والديمقراطية السياسية، وأهمية التربية، ووجوب إشراك الشعب في الحكم) لم تكن واردة لديه إلا بعد أن سافر إلى فرنسا، وتفاعل هناك مع تيارات النهضة والتنوير، واستفادته منها بما يلائم حضارته الإسلامية.

(١٧) ولد بطرس البستاني في بيروت/ لبنان عام ١٨١٩، وتوفي في ١٨٨٣. وهو أديب لبنانيّ يعتبر من أعظم أركان النهضة العربية. اشترك مع فانديك في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية و أنشأ «المدرسة الوطنية» في بيروت عام ١٨٦٣م، وكان أول من نادى بتعليم المرأة. ومن أهم كتبه وآثاره «قاموس محيط المحيط». وقد اعتبره كثير من المفكرين والمصلحين أحد أهم رواد الصحافة العربية الأولين، حيث نشر عدة صحف شهيرة، هي: «نفيّر سورية»، و«الجنان»، و«الجنة»، و«الجنينة».

(١٨) عاش علي مبارك بين عامي (١٨٢٤ - ١٨٩٣م)، ودعا إلى التركيز على المعرفة والعلم الحديث، وقال بأهمية العدل والعلم كأساسٍ راسخٍ للتقدم، وقد انطلق في موقفه هذا بعدما اطلع على الواقع في أوروبا التي انتقلت - في ظلّ العلم والتفكير العلمي - من الوحشية إلى الآدمية، وكانت مظاهر هذه الآدمية ما تركته الحملة الفرنسية في مصر من آثار حضارية وعلمية.

(١٩) هو جمال الدين الحسيني الأسديّ الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧م)، أستاذ الإمام محمد عبده. وهو أحد أهمّ الأعلام البارزين في عصر النهضة العربية وأحد الدعاة للتجديد الإسلامي. وكانت أفكاره الإصلاحية المستنيرة تتمحور حول الديمقراطية والعدالة والمساواة وضرورة الأخذ بأسباب العلم والتربية الحديثة. حيث إنّ جوهر الإسلام يؤكد على ضرورة الأخذ بأسباب العلم والتطور والتقدم.

(٢٠) هو محمد عبده بن حسن خير الله، عاش بين عامي (١٨٤٩ - ١٩٠٥م). وفي سنة ١٨٦٦م التحق بالجامع الأزهر، وفي سنة ١٨٧٧م حصل على الشهادة العالمية، وفي سنة ١٨٧٩م عمل مدرّساً للتاريخ في مدرسة دار العلوم. وفي سنة ١٨٨٢م اشترك في ثورة أحمد عرابي ضد الإنجليز، وبعد فشل الثورة حكم عليه بالسجن ثم بالنفي إلى بيروت لمدة ثلاث سنوات، وسافر بدعوة من أستاذه جمال الدين الأفغاني إلى باريس سنة ١٨٨٤م حيث أسس هناك صحيفة العروة الوثقى، وفي سنة ١٨٨٥م غادر باريس إلى بيروت، وفي ذات العام أسس جمعية سرية بذات الاسم (العروة الوثقى)، قيل: إنها ذات صلة بالمحافل الماسونية العالمية تحت زعم التقريب بين

الأديان. وفي سنة ١٨٨٦م اشتغل بالتدريس في المدرسة السلطانية، وفي بيروت تزوج من زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى. وفي سنة ١٨٨٩م قفل محمد عبده عائداً إلى مصر بعفو من الخديوي توفيق، ووساطة تلميذه سعد زغلول وإلحاح نازلي فاضل على اللورد كرومر كي يعفو عنه ويأمر الخديوي توفيق أن يصدر العفو وقد كان، وقد اشترط عليه كرومر ألا يعمل بالسياسة فقبل بذلك. وفي سنة ١٨٨٩م عين قاضياً بمحكمة بنها، ثم انتقل إلى محكمة الزقازيق ثم محكمة عابدين ثم ارتقى إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف عام ١٨٩١م، وفي (٣) يونيو عام ١٨٩٩م عين في منصب المفتي، وتبعاً لذلك أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى. وفي (٢٥) يونيو عام ١٨٩٠م عين عضواً في مجلس شورى القوانين. وفي سنة ١٩٠٠م أسس جمعية إحياء العلوم العربية لنشر المخطوطات، وزار العديد من الدول الأوروبية والعربية. وقد وافته المنية في العام ١٩٠٥م، عن سبع وخمسين سنة، بعد حياة حافلة بالعمل الإصلاحي الدعوي. ومن أهم مؤلفاته (رسالة التوحيد، تحقيق وشرح البصائر القصيرية للطوسي، تحقيق وشرح دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة للجرجاني، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، وفيه ردٌّ على أرنست رينان سنة ١٩٠٢م، شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام). (راجع موسوعة ويكيبيديا على الانترنت).

(٢١) عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢م) مفكر وعلامة سوري. وهو رائد من رواد التعليم وعلم من أعلام الحركة الإصلاحية العربية والإسلامية في بدايات القرن العشرين.. وهو كاتب ومؤلف ومحامي وفقه شهير. ولد في حلب السورية كانت لعائلته شأن كبير في حلب. وقد ألف العديد من الكتب القيمة، وترك لنا تراثاً أدبياً مهماً. ومن أبرز وأهم كتبه: (طبائع الاستبداد، وأم القرى).. كما ألف العظمة لله وصحائف قريش. وقد فقد مخطوطين مع جملة أوراقه ومذكراته ليلة وفاته، وله الكثير من المخطوطات والكتب والمذكرات التي طبعت. وما زالت سيرة وكتب ومؤلفات عبد الرحمن الكواكبي مرجعاً هاماً لكل باحث ومفكر يكتب ويتحدث عن واقع وإشكاليات النهضة العربية الإسلامية. وكانت وفاته في القاهرة (وهو مكان دفنه) متأثراً بسمّ دسّ له في فنجان القهوة عام ١٩٠٢م. (راجع موسوعة ويكيبيديا).

سياسة الإمام علي عليه السلام

في محاربة الفقر

□ الشيخ محمد عيدان العبادي (*)

عليه السلام

مشكلة الفقر في زمن الإمام علي عليه السلام كانت تتردد حول مشكلة الفرد في عدم تأمين حاجاته المعيشية من مأكل وملبس ومسكن وقدرة شرائية. ويمكن تشخيص هذه الظاهرة من خلال زهد الإمام عليه السلام في هذه الجوانب تأسيًا بضعفاء الناس.

لقد كانت الأحاديث والخطب والرسائل والمواقف المختلفة التي سطرها الإمام في مواجهة الفقر تنم عن وجود آلية للكسب غير المشروع، والإثراء عند فريق من الناس على حساب فئات أخرى، الأمر الذي شكّل في وجود تفاوتٍ مفرط بين الأغنياء والفقراء.

هذه الظاهرة الاجتماعية ساهمت في إيجادها عوامل مختلفة لعل أبرزها غياب الروح الاجتماعية المتعاونة والمتحسسة لأوجاع الفقراء، والتوزيع غير العادل للثروة، والإسراف والتبذير وما إلى ذلك.

(*) باحث إسلامي / العراق.

الدولة كانت تملك ثرواتٍ كبيرةً بالقوّة وبالفعل، أمّا المجتمع فكان بحاجةٍ إلى سياسةٍ وتثقيفٍ من أجل تفعيل دوره في محاربة الفقر وبناء مجتمعٍ ينعم بالرفاهية. وقد عمل الإمام عليّ عليه السلام في هذا الاتجاه، من أجل إزالة الفقر وآثاره.

الإنسان يطمح أن يعيش عيشةً راضيةً في بلدٍ آمن، ولقد صوّر النبي الأعظم ' لعليّ عليه السلام شكلاً مبسطاً لحياةٍ متواضعةٍ رغيدةٍ قائمةٍ على ثلاثة أضلاعٍ حياتيةٍ ضرورية، وهي:

١. المسكن الواسع، «دار قوراء»^(١).

٢. المرأة الحسنة، «جارية حسنة».

٣. وسيلة النقل، «فرس قباء»^(٢).

وقد جاء هذا الشكل الهندسي في قوله ' لعليّ عليه السلام: «يَا عَلِيُّ الْعَيْشُ فِي ثَلَاثَةِ دَارٍ قَوْرَاءَ وَجَارِيَةٍ حَسَنَاءَ وَفَرَسٍ قَبَاءَ»^(٣).

وطأة الفقر ثقيلةٌ على الفقراء المعدمين، وقد وضع الإمام عليه السلام خطوات تساعد في التخفيف من سطوته عليهم، وذلك من خلال ما ورد في الأحاديث، وذلك كما يلي:

١. قلة العيال، أو ما يُسمّى تحديد النسل، وبنصّ كلامه عليه السلام: «قَلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيُسَارَيْنِ»^(٤).

٢. التقدير الحسن، أو البرمجة، كما جاء عنه عليه السلام: «التَّقْدِيرُ نِصْفُ الْعَيْشِ»^(٥)، وقوله: «قَوَائِمُ الْعَيْشِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، وَمَلَكَهُ حُسْنُ التَّذْيِيرِ»^(٦).

٣. التفكير الإيجابي، والابتعاد عن الهم أو التفكير السلبي، وذلك كما يُستفاد من قوله عليه السلام: «الْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ»^(١).

٤. الاقتصاد، أو الابتعاد عن الإسراف، قال عليه السلام: «كَمْ مِنْ مُتْعِبٍ نَفْسُهُ مُقْتَرٍ عَلَيْهِ وَمُقْتَصِدٍ فِي الطَّلَبِ قَدْ سَاعَدَتْهُ الْمَقَادِيرُ»^(٢).

إنَّ هذه الأطر الأربعة لها دورٌ مؤثّرٌ في النهوض بوضع الإنسان المعاشي، أو الحدّ من حالة الفقر التي تلقي بظلالها القاتمة عليه.

عليه السلام

وهاك أساليب أشهرها الإمام عليه السلام في وجه الفقر أكثر تأثيراً بما أسلفنا ذكره، نستعرض منها ما يلي:

١. مواساة الفقراء:

كان الإمام عليه السلام يتصرّف كقائدٍ يتحسس معاناة ضعفاء الناس ممّن لا تسعفه الحيلة في العيش برفاهية كباقي أفراد المجتمع؛ فقد روي أنّ رجلاً من الكوفة سأله: لماذا اقتصر في عيشه على الطعام الغليظ والملبس الخشن، وترك قصر الإمارة، وسكن في أفقر منزلٍ في أهل الكوفة، فأجاب عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي إِمَاماً لِحَلْقِهِ فَفَرَضَ عَلَيَّ التَّقْدِيرَ فِي نَفْسِي وَمَطْعَمِي وَمَشْرَبِي وَمَلْبَسِي كَضُعْفَاءِ النَّاسِ كَيْ يَقْتَدِيَ الْفَقِيرُ بِفَقْرِي وَلَا يُطْغِيَ الْغَنَى غِنَاهُ»^(١).

إنَّ هذه الكلمات والواقع الذي ارتضاه الإمام عليه السلام تعني أنّ رجل الدولة الأوّل يرى نفسه في مثل أدنى أحوال الناس وضعفائهم؛ مواساة لهم، فهو القائد الزاهد.

ويلاحظ من خلال كلماته أنّه يعيش بعمقٍ في أجواء تلك الطبقة المعدمة، ويتحسس أوجاع العوز الذي اكتنف أحوالهم، فيقول: «فوالله ما ضرب الله عباده بسوطٍ أوجع من الفقر»^(٢)، ويقول أيضاً: «ولو تمثّل لي الفقر رجلاً لقتلته،

فالفقر هو الموت الأكبر»^(١).

هذه الأقوال لا يخاطب فيها الفقراء ليزيدهم بؤساً على بؤسهم؛ بل يخاطب فيها الأغنياء، ومن على شاكلتهم من أجل أن يلتفتوا إلى أولئك الذين زويت عنهم الدنيا، وذلك عن طريق العمل بوظائفهم الدينية، ودعم موارد الدولة، وتنميتها ومساعدتها في إزالة المشكلات، ومنها مشكلة الفقر.

٢. بعث الأمل في نفوس الفقراء:

ربما راود الفقراء شعوراً قاتماً كاليأس والقنوط الذي يتبعه الانطواء والكسل، مما يجعلهم في عزلة اجتماعية. فأنبرى أمير المؤمنين عليه السلام لمحاربة دواعي هذا اليأس؛ ببعث الأمل في نفوس الفقراء، وفتح منافذ التطلع إلى رحاب سعة الحياة المفتوحة، فقد قيل له عليه السلام: لَوْ سُدَّ عَلَى رَجُلٍ بَابُ بَيْتٍ وَتُرِكَ فِيهِ مِنْ أَيْنَ كَانَ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ؟ فَقَالَ: «مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ»^(١).

نعم، إنَّها ثقافة الأمل والحياة، وطرد اليأس والقلق الذي يساور النفوس، وجعل الإنسان يعيش حالة التعادل بعيداً عن التوتر، وتراكم الهموم؛ فهو يقول عليه السلام: «الرِّزْقُ رِزْقَانِ رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ كَفَاكَ كُلُّ يَوْمٍ مَا فِيهِ فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمْرِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ عَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمْرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِهِمْ لَمَّا لَيْسَ لَكَ وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غَالِبٌ وَلَنْ يُطِئَ عَنْكَ مَا قَدْ قُدِّرَ لَكَ»^(١).

وفي حديث آخر، نجده يدفع بذلك الرهط المبتلى بمعسور عيشه إلى رحاب النظر الحسن، فيقول مذكراً لهم: «مَنْ ضَيَّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرِ ذَلِكَ اخْتِبَاراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً»^(١).

فالإمام عليه السلام من خلال ما تقدّم يرفع مستوى التطلع عند الفقراء، ويزيح حالة اليأس التي تعتمل في نفوسهم.

٣. رعاية الفقراء والمحتاجين:

الفقر والحرمان من المفردات التي لا يخلو منها عصر، وفي زمن الإمام عليه السلام بذل عناية خاصة للفقراء والمحتاجين، فأوصى بهم في رعاية حقهم وتفقد أحوالهم، وجعل لهم قسماً من موارد الدولة. جاء في عهده لملك الأشر: «ثُمَّ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً وَاحْفَظِ اللَّهُ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى وَكُلُّ قِدِ اسْتُرْعِيَتْ حَقَّهُ وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ فَإِنَّكَ لَا تُعَذِّرُ بِتَضْيِيعِ النَّافَةِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لَهُمْ وَتَفْقِدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ وَتَحْفَرُهُ الرِّجَالُ» (١).

إنَّ رعاية الإمام عليه السلام للفقراء تتجاوز الإنفاق المالي عليهم إلى حفظ كرامتهم وإعزازهم بالإقبال عليهم، وتفقد أحوالهم، والعطف عليهم عطف احترام لا استرحام، وهذا أحد حقوقهم.

إنَّ أمر رعاية الفقراء والمحتاجين لا يقتصر على المسلمين فقط؛ بل جميع الناس بغض النظر عن هويتهم وانتمائهم، فعن أَبِي حَمْزَةَ: «عَنْ رَجُلٍ بَلَغَ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: مَرَّ شَيْخٌ مَكْفُوفٌ كَبِيرٌ يَسْأَلُ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا هَذَا فَقَالُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَصْرَانِي قَالَ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام اسْتَعْمَلْتُمُوهُ حَتَّى إِذَا كَبُرَ وَعَجَزَ مَنَعْتُمُوهُ أَنْفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ» (٢).

هذا الإنفاق على الفقير لا يعني أنَّ الإمام عليه السلام قد أعطى الرجل النصراني جرعةً أو دواءً مؤقتاً بالإنفاق عليه؛ وإنَّما يريد أن يقول إنَّ هذا الرجل يمتلك حقوقاً، وعلينا تمكينه ومساعدته حتَّى يعيش بين الناس كالأسياء، والدولة تقوم بهذا الواجب، وتضمن له مصدر عيشه بكرامة.

وهو القائل للناس: «فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ»^(١)، أي: أنه يوفر لهم الإمكانيات التي تساعدكم على العمل والإنتاج من خلال رأس المال الذي في عهدة الدولة. ففي هذا المطلب يظهر أن الإمام عليه السلام قد أولى الفقراء والمحتاجين رعايتهم واهتم بشؤونهم.

٤. الجد والعمل:

لقد كفل الله الرزق لعباده: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وقدر الباري تعالى الأرزاق بعدله وحكمته، فجعل لكل منهم نصيباً مما اكتسب، قال عليه السلام: «وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا وَقَسَمَهَا عَلَى الضَّيِّقِ وَالسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا»^(٢).

من خلال الآيات والحديث يمكن التعرف على نكتة ظريفة في المقام، وهي أن هناك فرقاً بين الرزق الذي تكفل به الله تعالى، وبين العمل الذي يقوم به الإنسان، فالرزق بسطه الله في الأرض، ولكن على الإنسان السعي والعمل لاستخراجه والاستفادة منه بشكل صحيح ومناسب.

وفي قوله عليه السلام: «قَدْ تُكْفَلُ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ»^(٣) إشارة واضحة إلى ما ذكرناه آنفاً من أن الرزق مكفول ومضمون، وعلى الإنسان العمل للحصول عليه.

وكثيراً ما كان يكرر عليه السلام: «الْعَمَلُ الْعَمَلُ...»^(٤)، سواء كان دنيوياً أم أُخروياً، وهو يقول ويعمل، فهو القائل: «اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه»^(٥).

وقد عُرف عنه عليه السلام أنه ما إن يفرغ من عملٍ حتى يلج في عملٍ آخر دأباً متوالياً، وبهذا الصدد ورد: أنه لما كان يفرغ من الجهاد يتفرغ لتعليم الناس،

والقضاء بينهم، فإذا فرغ من ذلك اشتغل في حائطٍ له يعمل فيه بيده، وهو مع ذلك ذاكر لله جلّ جلاله.

إنّ هذا الجدّ المتجدّد وراءه روحٌ ساميةٌ مدركةٌ تمام الإدراك أنّ الحياة لها وجهان: دنيوي وأخروي، وهو يعمل في دنياه لآخرته؛ ولذا تجده في أثناء العمل في بستانه قد التاط قلبه بذكر الآخرة، وردّد ذلك على لسانه.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَضْرِبُ بِالْمُرِّ وَيَسْتَخْرِجُ الْأَرْضِينَ... وَأَنَّهُ أَعْتَقَ أَلْفَ مَمْلُوكٍ مِنْ مَالِهِ وَكَدَّ يَدَهُ»^(١).

ونستطيع أن نُشير إلى ملاحظةٍ مهمّةٍ تتعلّق بالعمل ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام، وهي أن يكون العمل وفقاً للاستعداد الذي يمتلكه الشخص وقابليته الجسمية والفكرية، فيأخذ من الدنيا بحسب خصائصه وتخصّصه الذي به يمتاز. ويتولّى عمّا لا يوافق أهليته؛ وإلاّ فإنّ الكسب واللهاث وراء كلّ كسبٍ ربما أضاع على الآخرين حقوقهم في امتلاك فرص العمل، فقد نُقل عنه عليه السلام قوله: «خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْهَلُ فِي الطَّلَبِ»^(٢).

والإمام حثّ الناس على مشاركة مَنْ أقبل عليه الرزق، وتأسيس علاقة معه؛ لأنّ ذلك مدعاةٌ لسريان الرزق، وانفتاح أبوابه، فقال عليه السلام: «شَارِكُوا الَّذِي قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ فَإِنَّهُ أَخْلَقَ لِلْغِنَى وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ الْحُطِّ عَلَيْهِ»^(٣).

والحاصل: أنّ الإمام عليه السلام دعا إلى العمل، وبادر إليه للخروج من نفق الفقر.

٥. التعاون والتكافل:

دعا الإمام عليه السلام غير مرّة الأغنياء لكي يكون في أموالهم حقٌّ للفقراء، وقد دعاهم دعوة اختيارٍ في بذل ما فاض عن أيديهم من أجل انتشال الفقير من فقره المدقع. وحثّهم على ذلك راجياً لهم منقلب الخير في الآخرة، وردّد على

أسماهم: «طُوبَى لِمَنْ... وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ»^(١).

فالإمام عليه السلام يريد أن يرفع درجة التعاون بين الناس من أجل تكوين صورة عن المدينة المتعاونة العفيفة، قال عليه السلام: «مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعِ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَبًا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ وَأَحْسَنُ مِنْهُ تَبَهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ اتِّكَالًا عَلَى اللَّهِ»^(٢).

إنها عفة اجتماعية متبادلة يسطرها تواضع الأغنياء، وتعفف الفقراء في عالم الاختبار والاختيار، وقد نجحوا جميعاً؛ هذا بشكره، وذاك بصبره.

إنَّ الملك الحقيقي هو الله تعالى، إِلَّا أَنَّهُ قد يَحُولُ الله بعض عباده ويخصهم بالنعم، فإذا ما كانوا في خدمة خلقه أقرها وزادها، وأما إذا حجبوها عن خلقه فإنه ينزعها عنهم، وينقلها إلى غيرهم، كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَخْصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَيَقْرُهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَدَّلُوهَا فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ»^(٣).

إنَّ تكديس الثروة واحتكارها يؤدي إلى منع الآخرين من الحصول على حقوقهم، نعم للمرء أن يمتلك ثروة شخصية، ويستخدمها استخداماً إيجابياً، لكن في تلك الأموال الوفيرة في جانب، ضياعها على الآخرين في جانب آخر: «فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مَنَعَ بِهِ غَنِيٌّ»^(٤)، «وما رأيت نعمة موفورة إِلَّا وفي جانبها حق مضيع»^(٥).

فالإمام عليه السلام لم يقل: ما جاع فقير إِلَّا بغنى الأغنياء؛ بل يقول بما مَنَعَ به أولئك الرهط من المترفين، فذلك الفقر ناتج عن ذلك المنع والبذخ والتمتع بحقوق الآخرين.

وقبل الحديث الأسبق يوجد قوله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ»^(٦). فقوله: «فِي أَمْوَالِ» دلالة على أَنَّ في ضمن أموال الأغنياء يوجد فضل وزيادة تكفل للفقراء أقواتهم في عيشهم.

فالإمام عليه السلام يطرح مفهوم قوت الفقير وما يمكنه أن يعيش به، لا أَنَّهُ يطرح

المشاركة الكاملة للفقير في أموال الغني بحيث يتساوى الغني والفقير، ويضيع حقّ الأغنياء وشأنهم.

إنّ الأمر الَّذي يدعو إليه هو نوعٌ من تعاون وتكافل من أجل أن يعيش الناس في رحبة الحياة بمنأى عن الافتقار والهوان، مع الاحتفاظ بخصوصية كلّ طرفٍ وشأنه.

هذه الصورة المصغّرة المختصرة عن ماهية التعاون الَّذي يديه الأغنياء للفقراء في إطار المجتمع الإنساني الكريم.

لا شكّ أنّ الفقر تبدّى صورته على ضعفاء الناس إذا لم يتمّ تداركه بخطواتٍ عملية ترفع عن كاهل تلك الطبقة المحرومة عبأه الثقيل.

إنّ آثار الفقر تتجسّد في أوساط المجتمع بأشكالٍ مختلفة منها: اليأس والقنوط؛ حيث إنّ الفقر يجعل الإنسان يضيق ذرعاً بحياته، وتنقلب أوقاته إلى ضجرٍ؛ قال ﷺ: «الْفَقْرُ هُوَ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ»^(١). وذكر البعض: «أنّ الله تعالى أعلم موسى ﷺ أنّه سيّمت عدوّه، ثمّ رآه يسفّ الخوص، فقال: يا ربّ وعدتني أن تميتّه؟! فقال: قد فعلتُ، إنّي قد أفقرته؛ ولهذا قالوا: الفقر هو الموت الأحر»^(٢).

كما أنّ للفقر آثاراً نفسية واجتماعية تخرّيبية؛ ولذا وردت أحاديث تنذر بالشؤم عن قدومه على الناس، كقوله ﷺ: «الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ»^(٣).

إنّ حالة الفقر تنشأ عنها أحاسيس سلبية تدميرية ينعكس أثرها في داخل المجتمع، بل أكثر من ذلك فإنّها تصيب المرء بالشلل الفكري، فتغيب فطنته، ويفقد توازنه الاجتماعي، قال ﷺ: «الْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ وَالْمَقِلُّ

غَرِيبٌ فِي بَلَدَتِهِ»^(١).

وقال لابنه محمد: «يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهُ فَإِنَّ الْفَقْرَ مَنَقَصَةٌ لِلدِّينِ مَذْهَبَةٌ لِلْعَقْلِ دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ»^(٢).

من أجل هذه الآثار وتداعياتها السلبية كان الإمام عليه السلام يرى أَنَّ الفقر ظاهرة سلبية ينبغي محاربتها واستئصال شأفتها، وقوله: «لو تَمَثَّلَ لي الفقر رجلاً لقتلته» دعوة صريحة للمجتمع في أن ينبري لمحاربته.

* * *

الهوامش:

- (١) دار قوراء: واسعة، انظر: الصحاح، مادة قور.
- (٢) الخيل القب: الضومر، الصحاح، مادة قب.
- (٣) الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٦١، باب النوادر، الحديث: ٥٧٦٢، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٣ هـ.
- (٤) نهج البلاغة، الحكمة: ١٤١، شرح: محمد عبده، دار الدخائر، قم، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ.
- (٥) من لا يحضره الفقيه ٤: ٤١٦، مرجع سابق.
- (٦) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ٣٧٠، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، قم، ط: ١.
- (٧) نهج البلاغة، الحكمة: ١٤٣، مرجع سابق.
- (٨) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٥: ٨١، باب الإجمال في الطلب، الحديث ٦، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط: ٣، ١٣٦٧ ش.
- (٩) انظر: الكافي ١: ٤١٠، وما بعدها، مرجع سابق.
- (١٠) انظر: القرشي، باقر شريف، النظام السياسي في الإسلام ٢٤٧، نشر: دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ.
- (١١) المصدر نفسه.
- (١٢) نهج البلاغة: (٣٤٨)، ص: ٤٧٨، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤١٤، قم.
- (١٣) المصدر نفسه: ٤٨٥.

- (١٤) المصدر نفسه: ٤٧٩.
- (١٥) المصدر نفسه: الكتاب: (٥٣).
- (١٦) شيخ الطائفة الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام ٦: ٢٩٣، كتاب القضايا والأحكام، باب: بَابُ مِنَ الزِّيَادَاتِ فِي الْقَضَايَا وَالْأَحْكَامِ، الحديث: (١٨)، الطبعة الرابعة ١٤٠٧، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران.
- (١٧) نهج البلاغة: الخطبة (٣٤).
- (١٨) المصدر نفسه: الخطبة (٩١).
- (١٩) المصدر نفسه: الخطبة (١١٤).
- (٢٠) المصدر نفسه: الخطبة (١٧٦).
- (٢١) الشَّيْخُ الْمُفِيدُ، مُحَمَّدُ بْنُ النُّعْمَانِ الْعُكْبَرِيِّ، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ١: ٣٠٣، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت، ط: ٢، ١٤١٤ هـ.
- (٢٢) الكافي ٥: ٧٤، كتاب المعيشة، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة ^٨ في التعرض للرزق، الحديث: ٢، مرجع سابق.
- (٢٣) نهج البلاغة، الحكمة: (٣٩٣).
- (٢٤) المصدر نفسه، الحكمة: (٢٣٠).
- (٢٥) المصدر نفسه، الحكمة: (١٢٣).
- (٢٦) المصدر نفسه، الحكمة: (٤٠٦).
- (٢٧) المصدر نفسه، الحكمة: (٤٢٥).
- (٢٨) المصدر نفسه، الحكمة: (٣٢٨).
- (٢٩) جرداق، جورج، روائع نهج البلاغة: ٨٣، مركز الغدير للدراسات، ط: ٢، ١٤١٧ هـ.
- (٣٠) نهج البلاغة، الحكمة: (٣٢٨).
- (٣١) المصدر نفسه، الحكمة: (١٦٣).
- (٣٢) ابن أبي جمهور الإحسائي، محمد بن علي، عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية ١: ٤٦ (الهامش)، تحقيق: مجتبی العراقي، مطبعة سيد الشهداء، قم، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.
- (٣٣) نهج البلاغة، الحكمة: (٥٦).
- (٣٤) نهج البلاغة: (٣)، ص: ٤٠٥، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٤١٤، قم.
- (٣٥) نهج البلاغة، الحكمة: (٣١٩).

أول ما نزل من الكتاب

إطلالة على الروايات والنصوص التاريخية

(القسم الأول)

□ الشيخ أحمد أبو زيد (*)

من المسائل العويصة التي شغلت بال المفسرين والمشتغلين في علوم القرآن: تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم على قلب رسول الله . وليس ذلك بسبب ندرة ما روي في تحديد الأمر، كما أنه ليس بسبب العجز عن حلّ التعارض الموجود بين هذه الروايات، بل بسبب الاختلاف القائم في فهم الآيات القرآنية التي يُمكن الاستفادة منها من أجل الانتهاء إلى نتيجة مُقنعة.

وسنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على هذه المسألة ضمن محورين: الأول: سرد الروايات والنصوص التاريخية الواردة بصدد تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم.

الثاني: حلّ معضلة نزول القرآن الكريم، بين كونه في ليلة القدر بحسب ما تقرّره آيات سورة القدر، وبين كون آيات سورة العلق - النازلة في شهر رجب -

(*) كاتب وباحث إسلامي / لبنان.

هي أول ما نزل منه.

:

اختلفت الأنظار في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم، وأبرز الأقوال في ذلك - كما يقرّر المرحوم السيّد مصطفى الخميني^(١) - أربعة:

١- {أَفْرَأَيْتَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١]، وهو المروي عن عائشة.

٢- {يَتَأْتِيَهَا الْمُدِّثُرُ} [المدثر: ١]، وهو المروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري^(٢)، وهو ما ورد في صحيح مسلم^(٣). وإن ذهب المحققون - كما قرره بعضهم - إلى أنّه أول ما نزل بعد فترة الوحي^(٤).

٣- سورة الفاتحة بتمامها، وقد نُسب هذا القول في (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) إلى أكثر المفسرين، ثم نزلت من بعدها سورة القلم^(٥).

٤- أول آيات سورة العلق على صعيد الآيات، وسورة الفاتحة على صعيد السور.

لكن يكاد يجمع المفسرون على أنّ أول ما نزل من القرآن الكريم هو سورة العلق - أو قل أول خمس آيات منها -، ولهذا قال صاحب تفسير كتاب الله العزيز: إنّ العامّة على أنّ أول ما نزل من القرآن {أَفْرَأَيْتَ الَّذِي خَلَقَ}^(٦)،

وهو إجماع جمهور المفسرين^(٧)، الأمر الذي يظهر من التفاسير التالية: تفسير مقاتل بن سليمان^(٨)، الأصفي في تفسير القرآن^(٩)، أطيّب البيان في تفسير القرآن^(١٠)، البلاغ في تفسير القرآن بالقرآن^(١١)، برتوى از قرآن^(١٢)، التبيان في تفسير القرآن^(١٣)، تبين القرآن^(١٤)، ترجمه بيان السعادة^(١٥)، تفسير الصافي^(١٦)، تفسير الكاشف^(١٧)، التفسير المبين^(١٨)، تفسير المعين^(١٩)، تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة^(٢٠)، تفسير جوامع الجامع^(٢١)، تفسير عليين^(٢٢)، تفسير منهج الصادقين في إلزام المخالفين^(٢٣)، خلاصة المنهج^(٢٤)، مقتنيات الدرر وملقطات

الشمس^(١)، أحكام القرآن^(٢)، التحرير والتنوير^(٣)، التفسير القرآني للقرآن^(٤)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم^(٥)، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان^(٦)، تيسير الكريم الرحمن^(٧)، جامع البيان في تفسير القرآن^(٨)، الجامع لأحكام القرآن^(٩)، جواهر الحسان في تفسير القرآن^(١٠)، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل^(١١)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن^(١٢)، لطايف الإشارات^(١٣)، معالم التنزيل في تفسير القرآن^(١٤)، معاني القرآن^(١٥)، تفسير ابن عربي^(١٦)، لكن ماذا تقول الروايات والمصادر التاريخية؟! إن من السليم منهجياً أن نفرّق بين روايات الفريقين، وسنبداً بروايات الإمامية:

١- منها ما ورد في عيون أخبار الرضا ×: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ عنه، قال: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَعْبُدٍ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ، قال: قال الرضا ×: سمعت أبي يحدث عن أبيه: '«إِنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ نَزَلَتْ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»، وآخر سورة نزلت {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}»^(١).

وأحمد بن علي بن إبراهيم بن هاشم مشهور، وهو من مشايخ الصدوق ع، وقد ذكره مترضياً له^(٢)، وأبوه علي بن إبراهيم المعروف^(٣)، وكذلك جده إبراهيم بن هاشم^(٤). أمّا علي بن معبد والحسين بن خالد فلم يرد لهما توثيق.

٢- وفي تفسير القمّي: عن أحمد بن محمد الشيباني، عن محمد بن أحمد، عن إسحاق بن محمد، عن محمد بن علي، عن عثمان بن يوسف، عن عبد الله بن كيسان، عن أبي جعفر × قال: نزل جبرئيل على محمد ' فقال: يا محمد اقرأ، قال: وما أقرأ؟! قال: {أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}^(١).

ولن نطيل الحديث حول هذه الرواية؛ لأنّ التفسير المنسوب إلى عليّ بن إبراهيم خليط بين عدّة تفاسير، ولا يُمكن الاعتماد عليه، إلّا على مبنى يكاد لا يصمد أمام النقد.

ولكنّ بعيداً عن ذلك، فلا دلالة في هذا الحديث على كون الآية الكريمة المذكورة أوّل ما نزل من عند الله تعالى؛ لورود هذا التعبير في أحاديث أخرى حول آيات يُقطع بتأخرها:

منها: ما ورد في تفسير فرات الكوفي، حيث جاء: «فرع رأسه إلى السماء وهو يقول: اللهم أشبع آل محمد، فهبط جبرئيل × فقال: يا محمد! اقرأ، قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} ٥ عَيْنًا يَشْرَبُ { إلى آخر ثلاث آيات} (١).

ومنها: ما ورد في إرشاد القلوب: «فما استتمّ رسول الله ' كلامه حتّى نزل جبرائيل × من عند الله فقال: يا محمد! اقرأ، قال: وما أقرأ! قال: اقرأ: {إِنَّمَا أَوْلَايُكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}» (٢).

٣- ما ذكره النعمانيّ تلميذ الكلينيّ في كتابه في تفسير القرآن: حدّثنا أحمد بن محمد بن سعيد ابن عقدة، قال: حدّثنا أحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفيّ، عن إسماعيل بن مهران عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة عن أبيه عن إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق ' يقول: وسئل صلوات الله عليه عن أوّل ما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن، فقال ×: «أوّل ما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن بمكّة سورة {أَفْرَأَيْتَ الَّذِي خَلَقَ}» (٣).

وأحمد بن محمد بن سعيد جاروديّ ثقة (٤)، وأحمد بن يوسف بن يعقوب الجعفيّ لم يُوثّق في كتب الرجال، ولكنّ لما كان ذا كتابٍ وأصل، وكان شيخ رواية، وروى عنه الثقات، أمكن استفادة وثاقته أو حسنه على الأقل (٥)، وإسماعيل بن مهران ثقةٌ مُعتمد (٦)، ولكنّ المشكلة في الحسن بن عليّ بن أبي

حمزة البطائني، فهو كذابٌ غالٍ^(١)، وكذلك أبوه علي بن أبي حمزة وإن كان أوثق منه كما ذكر ابن الغضائري^(٢). فالحديث لا يُعتمد عليه، وإن كانت دلالة واضحة.

٤- جاء في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ×: قال الإمام الحسن ×: قُلْتُ لأبي علي بن محمد ×: كيف كانت الأخبار في هذه الآيات التي ظهرت على رسول الله ' بمكة والمدينة؟! فقال يا بني! استأنف لها النَّهار. فلما كان من غدٍ قال: يا بني.... ونظر إلى جبرئيل الروح الأمين المطوق بالنور طاوس الملائكة، هبط إليه وأخذ بضبعه وهزّه وقال: يا محمد! اقرأ. قال: وما أقرأ؟! قال يا محمد! { أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ^(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ^(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ^(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^(٥) }، ثم أوحى إليه ما أوحى إليه ربّه عزّ وجلّ، ثم صعد إلى علوّ. ونزل محمدٌ ' من الجبل وقد غشيه من تعظيم جلال الله وورد عليه من كبير شأنه ما ركبه الحمى والنّافض، وقد اشتدّ عليه ما يخافه من تكذيب قريشٍ في خبره ونسبهم إياه إلى الجنون، وأنّه يعتريه شياطين. وكان من أوّل أمره أعقل خلق الله وأكرم برياه وأبغض الأشياء إليه الشّيطان وأفعال المجانين وأقوالهم، فأراد الله عزّ وجلّ أن يشرح^(٦)، وهو ما ورد في شرح نهج البلاغة^(٧).

٥- في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر × في قوله: { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى }، وذلك أنّ جبرئيل أبطأ عن رسول الله ' وأنّه كانت أوّل سورة نزلت { أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }^(٨).

٦- ما ذكره اليعقوبيّ في تاريخ اليعقوبيّ، حيث قال: «وكان أوّل ما نزل على رسول الله: { أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }»^(٩).

٧- ما نقل في مصادرنا الشيعيّة عن غير الأئمة^(١٠)، مثل ابن عباس وعكرمة وغيرهم، وهو غير معتبر سنداً عندنا:

- أ- من قبيل ما نقل عن ابن عباس: «أول ما أنزل بمكة {اقرأ باسم ربك}» (١).
- ب- ما جاء في شواهد التنزيل: حدثونا عن أبي الشيخ الأصبهاني [قال: أخبرنا بهلول الأنباري: حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الرازي، حدثنا عمر بن هارون، حدثنا عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس. وحدثنا أبو نصر المفسر، حدثنا عمي أبو حامد إملاء سنة سبع وأربعين] ثلاث مائة، قال: حدثنا أبو يوسف يعقوب بن محمود المقرئ، حدثنا محمد بن يزيد السلمي، حدثنا زيد بن أبي موسى، حدثنا عمر بن هارون، عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه قال: أول ما نزل بمكة: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} (٢).
- ج- وما في شواهد التنزيل أيضاً، حدثني عبد العزيز بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: «أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن {اقرأ باسم ربك الذي خلق}» (٣).
- هـ- الحافظ: حدثنا محمد بن علي الثقفني، قال: حدثني علي بن الحسين بن واقد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني يزيد، عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن: أن أول ما أنزل الله من القرآن بمكة: {اقرأ باسم ربك} (٤).
- و- الدورقي: حدثنا أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، حدثنا علي بن الحسين بن واقد، عن أبيه قال: حدثني يزيد النحوي عن عكرمة والحسن، قالوا: ما أنزل الله من القرآن بمكة: {اقرأ باسم ربك} (٥).

ستعرض في ما يلي لروايات بدء نزول الوحي من خلال مصادر أهل السنة، وسنرى التفاوت في طبيعة السرد، حيث يبدأ الحديث عن أسطورة ورقة بن نوفل:

١- ما ورد في سيرة ابن هشام: حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه

ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر [شهر] رمضان، خرج رسول الله ['] إلى حراء، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمها الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل × بأمر الله تعالى. قال رسول الله [']: فجاءني جبريل وأنا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغطني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ؟ قال: فغطني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغطني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: { أَقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ (١) الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } . قال: فقرأتها، ثم انتهت، فانصرف عني وهبت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً... وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها، فقالت: يا أبا القاسم! أين كنت؟! فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا بن عمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة (١).

٢- ورد في صحيح البخاري: «وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ['] من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه وهو التعبّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقْرَأْ، قال: قلت: ما أنا بقارئ! قال: فأخذني فغطني

حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ! قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} ^(١) خلق الإنسان من علق ^(٢) اقرأ وربك الأكرم ^(٣) الذي علم بالقلم الآية، فرجع بها رسول الله ['] يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأاً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟! فأخبره رسول الله ['] خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً، يا ليتني أكون فيها حياً؛ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله [']: أَوْخَرَجِيَّ هم؟! قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي ^(٤).

٣- ما ذكره في دلائل النبوة، عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، قالت: «إن أول ما نزل من القرآن: {اقرأ باسم ربك الذي خلق}» ^(٥).

٤- ما نقله ابن سعد في طبقاته الكبرى، عن الزهري، عن محمد بن عباد بن جعفر قال: سمعت بعض علمائنا يقول: كان أول ما أنزل على النبي ﷺ: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} ^(٦).

٥- وقد جمع هذه الروايات في أنساب الأشراف، وسنورها في ما يلي:

أ - عن الزهري، قال: فَتَرَ الوحي عن النبي [١]: وكان أول ما أنزل عليه: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

ب - عن مجاهد، عن ابن عباس: إِنَّ أول ما نزل من القرآن: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

ج - عن عبد الله بن شداد، قال: أول سورة نزلت من القرآن: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

د - روى الواقدي، عن عيسى بن وردان، عن أبي كريب، عن أبيه، أنه وجد في كتاب ابن عباس: أول السور المكية: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

هـ - عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة فقلت: أي القرآن أنزل أولاً؟ قال: يا أيها المدثر، قلت: وأي أول سورة نزل من القرآن أولاً؟ قال: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

و - قال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله الأنصاري فقلت: أي القرآن أنزل أولاً؟ قال: يا أيها المدثر. فقلت له: (و) أي أول سورة نزل من القرآن أولاً؟ قال: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

ز - عن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد - يعني مسجد البصرة - يقرئنا القرآن، وعنه أخذت هذه السورة: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، وكانت أول سورة أنزلت على محمد [١].

ح - عن أبي صالح قال: أول ما نزل من القرآن: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

ط - عن مجاهد قال: أول ما نزل من القرآن: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

ي - عن عبيد بن عمير قال: أول ما نزل من القرآن: {أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (١).

٦- ما ذكره ابن خلدون في تاريخه لدى حديثه عن بدء الوحي، حيث قال: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، فأصابته تلك الحالة بغار

حراء وألقى عليه: {اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }، وأخبر بذلك كما وقع في الصحيح (١).

٧- ذكر الجاحظ ذلك في كتاب الحيوان، حيث قال: قوله تعالى {اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}. هذه السورة أول ما نزل من القرآن كما ثبت في الصحيحين (١).

٨- ذكر صاحب تاريخ حلب أن أول ما نزل من القرآن العزيز سورة: (اقرأ) (١).

!!'

÷

١- يقول ابن هشام عن ابن إسحاق في تتمة رواية بدء نزول الوحي: ثم قامت - أي خديجة ÷ - فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله [']، أنه رأى وسمع، فقال ورقة بن نوفل: قدّوس قدّوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدّقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ['] فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله ['] جواره وانصرف صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقى ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال: يا ابن أخي! أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله [']، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذّبه ولتؤذيه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ['] إلى منزله (١).

وتتكرر هذه الرواية في تاريخ الطبري^(١)، وأسد الغابة^(٢)، والبداية والنهاية^(٣)، وتاريخ دمشق^(٤)، وتفسير ابن كثير^(٥)، وأعلام النبوة للهاوردي^(٦)، ومصادر أخرى^(٧).

٢- ما نقله البخاري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، وهي مصدر معظم روايات أهل السنة في هذا المجال، وهو ما نقله في البداية والنهاية نفسه^(٨) وتاريخ الذهبي، وسننقل هنا نص الذهبي، قالت: «أول ما بُدئ به النبي ['] من الوحي الرؤيا الصالحة، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنّث فيه، أي يتعبّد الليالي ذوات العدد ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتّى فاجأه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني الثالثة حتّى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} حتّى بلغ إلى قوله: {مَا لَمْ يَعْلَمْ}، قالت: فرجع بها ترجف بوادره حتّى دخل على خديجة فقال: زمّلوني، فرملوه حتّى ذهب عنه الرّوع فقال: يا خديجة ما لي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت عليّ، فقالت له: كلاً! فوالله لا يخزيك الله، إنّك لتصل الرّحم وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتعين على نوائب الحقّ، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الخطّ العربيّ، فكتب بالعربيّة من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً قد عمي، فقالت: اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره، فقال ورقة: هذا النّاموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟! قال: نعم، لم يأت أحد بما جئتُ به إلّا عودي وأوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرّاً مؤزّراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي^(٩).

٣- ما جاء في إمتاع الأسماع: حيث رجع بها [١] ترجف بوادره، فأخبر بذلك خديجة عليها السلام وقال: قد خشيت على عقلي، فثبتته وقالت: أبشر! كلاً والله لا يخزيك الله أبداً، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحْمَ، وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ وتعين على نوائب الدهر (١).

٤- ونقل الواحدي النيشابوري في أسباب النزول عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة أن رسول الله [١] كان إذا برز سمع منادياً يناديه: يا محمد، فإذا سمع الصوت انطلق هارباً، فقال له ورقة بن نوفل: إذا سمعت النداء فاثبت حتى تسمع ما يقول لك. قال: فلما برز سمع النداء: يا محمد، فقال: لبيك، قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال: قل: {أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ { حتى فرغ من فاتحة الكتاب، وهذا قول علي بن أبي طالب (١).

ورد ورقة بن نوفل في عدة موارد، أولها: تزويج خديجة بنت خويلد من رسول الله (١) حيث كان خاطبها إلى أبي طالب × (١)، وثانيها: ما نحن فيه. والملاحظ أن الروايات التي تتحدث عن دور ورقة بن نوفل لا تتفق على تفاصيل الرواية، وربما فهم من بعضها أن ورقة لم يدرك نبوة النبي (١)، وإلا لكان أول المؤمنين بها والمدافعين عنها (١)، بينما تنص بعضها خلاف ذلك، من قبيل إمتاع الأسماع (١). بل تذكر مصادر أنه أدرك تعذيب بلال، وإن أظهر النص إيمان ورقة بما ثبت عليه بلال؛ حيث جاء في أعلام النبوة للرازي: «كما روى من حديث بلال: أن ورقة بن نوفل مرّ على بلال وقد أخذه أمية بن خلف الحجمي وألقاه على ظهره في الرّمضاء ووضع الحجر على بطنه وهو يقول: هذا

دأبي ودأبك أو أن تكفر بمحمد، وبلال يقول: أحد أحد، وورقة بن نوفل يقول: نعم يا بلال! أحد أحد. فصبر على ذلك ولم يرجع عن الإسلام»^(١)، وهو ما جاء في مصادر أخرى، من قبيل أنساب الأشراف^(٢) والاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله ' والثلاثة الخلفاء^(٣). اللهم إلا أن يصح ما جاء في بعض المصادر من أنه توفي في السنة الثالثة للهجرة^(٤).

واللطيف أن بعض المصادر قد أقحمت أبا بكر في هذه العملية لتظهر فضله، فكأنه آمن بدعوة النبي ' قبل أن يتأكد ' نفسه من صحتها، حيث جاء في أنساب الأشراف: «ثم إن خديجة قالت لأبي بكر الصديق: انطلق مع محمد إلى ورقة بن نوفل؛ فإنه رجل يقرأ الكتب، فليذكر له ما يسمع. فانطلقا، حتى أتيا ورقة»^(٥).

يقول الشيخ الطبرسي في مقام الاستدلال على رد هذه الروايات: «لأن الله تعالى لا يوحى إلى رسوله إلا بالبراهين النيرة والآيات البينة الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع ولا يفرق»^(٦).

ويزيد السيد محسن الأمين: وفي هذا أيضاً ما فيه كما سبق عن مجمع البيان من أن الله تعالى لا يوحى إلى رسوله إلا بالبراهين النيرة، ولم يكن ورقة أعرف بالله وبآياته منه ' حتى يأتي إليه ويستثبت منه. ويوشك أن تكون هذه الروايات كروايات الغرائب الآتية وسهوه في الصلاة وشبه ذلك^(٧).

وللشيخ محمد حسن المظفر تعليق على روايات نوفل، حيث انتقد هذه الروايات بأمور:

- كيف يقول النبي ' مراراً: «ما أنا بقارئ» ويتحمل المشاق، ولم يسأل جبرئيل عما يراء قراءته؟! وهل هو من كتاب أو غيره؟! فلعل له بأحد الوجوه علماً أو عذراً!

- ثم كيف يجوز لجبرئيل إيذاء النبي ' وترويعة وهو يراه عاجزاً عن إتيان ما أمره به، فهل جاء معنفًا أو معلّمًا؟!

- لا يمكن أن يجهل رسول الله ' أنّه رسول الله وقد علم برسالته قبل وقتها الكهّان والرهبان، ولو جهل بها لكان غيره أولى بالجهل بها في تلك الحال، فيلغو فيها إرساله.

- وأي رسالة لمن يحقّقها بقول نصراني، ويتعرّفها بقول امرأة، حتّى تثبته عليها بذلك الطريق الوحشي؟! وعلى ذلك: يكون ورقة وخديجة أول الناس إسلاماً والسابقين فيه حتّى على رسول الله '، وهذا بالخرافات والكفر أشبه! () .

أمّا العلامة الطباطبائي + فيقول: «والقصّة لا تخلو من شيء، وأهون ما فيها من الإشكال شكُّ النبي ' في كون ما شاهده وحياً إلهياً من ملك سماويّ ألقى إليه كلام الله، وتردّده - بل ظنّه - أنّه من مسّ الشياطين بالجنون. وأشكل منه سكون نفسه في كونه نبوةً إلى قول رجل نصراني مترهب، وقد قال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي}، وأي حجة بيّنة في قول ورقة؟ وقال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، فهل بصيرته ' هي سكون نفسه إلى قول ورقة؟ وبصيرة من اتّبعه سكون أنفسهم إلى سكون نفسه إلى ما لا حجة فيه قاطعة؟ وقال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}، فهل كان اعتمادهم في نبوتهم على مثل ما تقصّه هذه القصّة؟

والحقّ: أنّ وحي النبوة والرسالة يلزم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمة أهل البيت () .

وأضاف السيّد فضل الله إلى كلامهم أنّ هذه القصّة أثارت الكثير من تعليقات بعض الكتّاب لدى النصاري، الذين حاولوا أن يجعلوها شاهداً على أنّ رسالة الإسلام كانت من إحياء ورقة الذي لا بدّ من أن يكون حدّث النبي

ببعض أحاديث التوراة والإنجيل، بالمستوى الذي استطاع فيه أن يحصل على استيعاب كبير لثقافة النصرانية واليهودية، لبدأ نشاطه الرسالي في دين الإسلام من خلال ذلك. وبذلك اعتبر الإسلام بدعة نصرانية في حركة تحريف وابتداع. ولاحظ على ذلك: أن هؤلاء الذين انطلقوا من هذه الرواية للقصة ليطلقوا لخيالهم العنان في البناء عليها في إرجاع الإسلام إلى إحياء ورقة النصراني، لم يلاحظوا أن الرواية تؤكد على وفاة ورقة في وقت قريب من الحادثة، كما تتحدث عن إيمانه به، وأمنيته بأن يمتد به العمر لينصره نصراً مؤزراً، مما لا يجعل هناك أية فرصة للمزيد من الدراسة عليه. ولكنه خيال هؤلاء الكتاب الذين حاولوا إثارة مثل هذه التخيلات التي يريدون من خلالها الإساءة إلى أصالة الإسلام وإلى صدق الوحي.

كما رأى فيها خيالات القصّاصين والرواة الذين أرادوا أن يضعوا على لسان الصحابة أو زوجات النبي بعض ما يُرضي خيالات الناس لهذا الحدث العظيم، من دون التفات إلى ملامح الكذب في مثل هذه القصة، مع ملاحظة مهمة، وهي أن اختلاف هذه الروايات بشكل واضح يُوحى بالخلفيات التي تكمن وراء ذلك، والله العالم^(١).

أما السيّد جعفر مرتضى فلا ينكر ثقل الوحي عليه ، بل ينكر اضطرابه وخوفه .

ولم يستبعد السيّد مرتضى أن يكون الهدف من جعل تلك الترهات الخطّ من كرامة النبي الأعظم ' والطعن في قدسيّته ومقامه في نفوس الناس وتصويره لهم على أنّه رجلٌ عاديّ مبتذل.

ثمّ لاحظ أنّ عمدة رواة قضية ورقة بن نوفل هم من الزبيريين وحزبهم، كعروة بن الزبير، الذي اصطنعه معاوية ليضع أخباراً قبيحة في الإمام علي ×، وكإسماعيل بن حكيم مولى آل الزبير، ووهب بن كيسان، ثمّ أم المؤمنين عائشة

خالة عبد الله بن الزبير. ثم إنَّ خديجة ÷ هي بنت خويلد بن أسد، وورقة هو ابن نوفل بن أسد، والزبير هو ابن العوّام بن خويلد بن أسد. فتكون النسبة بين الجميع واضحة المعالم، وبالتالي يكون لأقارب عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد - ومن ثمّ للزبيريين بشكلٍ عامّ - دورٌ حاسم في انبعاث الإسلام؛ إذ لولا هم لقتل النبيّ ' نفسه، أو على الأقلّ لم يستطع أن يكتشف نبوة نفسه (١).

ونضيف إلى كلام السيّد مرتضى ما تذكره بعض المصادر السنّية حول رغبة قتيلة بنت نوفل من بني أسد بن عبد العزّي بن قُصيّ بن كلاب (أخت ورقة بن نوفل) بالزواج منه '، حيث تقول إنّ عبد المطلب انصرف آخذاً بيد عبد الله، فمرّ به - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزّي، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد، وهي عند الكعبة.

قال الزبير: وكان عبد الله أحسن رجل رُئي في قريش قطّ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله! قال: مع أبي. قالت: لك مثل الإبل التي نُجرت عنك وقع عليّ الآن، قال: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، فخرج به عبد المطلب حتّى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، وهو يومئذ سيّد بني زهرة سنّاً وشرفاً، فزوّجه ابنته آمنه بنت وهب، وهى يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً (٢)، فهل للزبيريين دورٌ في صياغة هذه القصّة أيضاً؟!

:

..

المعروف لدى الشيعة - ويكاد يقوم عليه الإجماع - أنّ رسول الله ' قد صدع بالرسالة يوم السابع والعشرين من رجب، وله يومئذ أربعون سنة، وهو ما ذكره في إعلام الوري (٣).

وأكد عليه العلامة المجلسي في بحار الأنوار من خلال الأحاديث التي أوردها؛ فعن أبي عبد الله × قال: «في اليوم السابع والعشرين من رجب نزلت النبوة على رسول الله ^(١)». ونقل عن المناقب لابن شهر آشوب عن ابن عباس وأنس: «أوحى الله إليه يوم الإثنين السابع والعشرين من رجب وله أربعون سنة» ^(٢)؛ «وصدع ^(٣) بالرسالة يوم السابع والعشرين من رجب وله يومئذ أربعون سنة» ^(٤).

إذاً: فالمروي عن أئمة أهل البيت ^٨ أن رسول الله ^(٥) بعث بالنبوة في السابع والعشرين من شهر رجب يوم الإثنين وعمره أربعون سنة، وهو ما ذكره المتأخرون في مؤلفاتهم، من قبيل السيّد محسن الأمين في أعيان الشيعة ^(٦) والشيخ السبحاني في سيرة سيّد المرسلين ^(٧).

بينما اختلف أهل السنة في زمان بعثته ^(٨) على خمسة أقوال:

١- لسبع عشرة خلت من شهر رمضان.

٢- لثمان عشرة خلت من رمضان.

٣- لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان.

٤- للثاني عشر من ربيع الأول.

٥- لسبع وعشرين من رجب وعلى الأخير اتفاق الإمامية ^(٩).

وقد أورد الطبري في تاريخه بسنده عن أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي، أنه كان يقول - فيما بلغه وانتهى إليه من العلم: أنزل الفرقان على رسول الله ^(١٠) لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان. وقال آخرون: بل أنزل لأربع وعشرين ليلة خلت منه. ثم ذكر من قال ذلك: حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، قال: حدّثني محمد بن إسحاق، حدّثني من لا يتّهم، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة بن دعامة السدوسي، عن أبي الجلد، قال: نزل الفرقان لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان.

وقال آخرون: بل نزل لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، واستشهدوا لتحقيق ذلك بقول الله عز وجل: {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ} [الأنفال: ٤١]، وذلك ملتقى رسول الله ' والمشركون ببدر، وأن التقاء رسول الله ' والمشركون ببدر كان صبيحة سبع عشرة من رمضان (١).

وهو ما ورد في إمتاع الأسماع؛ حيث نقل القول بأن: أول ما أتى جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له برسالة الله يوم الإثنين لسبع عشر خلت من رمضان، فعلمه الوضوء والصلاة، وعلمه {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: ١] (٢).

وفي السيرة الحلبية نقلاً عن بعضهم: أن القول بأنه في ربيع الأول يوافق القول بأنه بعث على رأس الأربعين؛ لأن مولده صلى الله عليه وآله وسلم كان في ربيع الأول على الصحيح: أي وهو قول الأكثرين. وقيل: كان ذلك ليلة أو يوم السابع والعشرين من رجب (٣).

وكذلك في نهاية الإرب في فنون الأدب وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وله يومئذ أربعون سنة ويوم، فأثابه جبريل ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الإثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان في حراء، وهو أول موضع نزل فيه القرآن (٤).

وقد انسحب هذا القول على المعاصرين، ومن هنا ذكر الشيخ الزحيلي أنه كان أول ما نزل {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، وذلك يوم الإثنين لـ ١٧ ليلة خلت من رمضان سنة ٤١ من ميلاده ' في غار حراء (٥).

وقد نقل السيد جعفر مرتضى العاملي في الصحيح من سيرة النبي الأعظم استدلال القائلين بأنه ' قد بعث في شهر رمضان المبارك وليس في رجب بأن النبي ' إنما بعث بالقرآن، والقرآن قد أنزل في شهر رمضان كما قال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١]، {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ

أَلْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥] ^(١)، وهو ما ذكره الشيخ جعفر السبحاني أيضاً ^(٢).

يقول السيّد جعفر مرتضى العاملي: إنّه «لا مانع من أن يكون ' قد بعث وصار نبياً في شهر رجب، كما أخبر به أهل البيت ^٨ وهيئ ليتلقّى الوحي القرآني: {إِنَّا سُلِّقَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ٥]، ثمّ بدأ نزول القرآن عليه تدريجاً في شهر رمضان المبارك. كما أنّه لا مانع من أن تكون حقائق القرآن ومعانيه قد نزلت عليه ' دفعة واحدة، ثمّ صار ينزل عليه تدريجاً» ^(٣).

وقد نقل الشيخ جعفر السبحاني المحاولات التي قدّمها محدّثو الشيعة ومفسّروهم في التوفيق بين هذين المسارين:

١- إنّ الآيات المذكورة إنّما تدلّ على أنّ القرآن نزل في شهر رمضان، وبالذات في ليلة مباركة منه هي ليلة القدر، ولكنّها لا تتعرّض لذكر محلّ نزول هذه الآيات، وأتّما أين نزلت؟ وهي بالتالي لا تدلّ أبداً ومطلقاً على أنّها نزلت في تلك الليلة على قلب رسول الله '، فيحتمل أن يكون للقرآن نزولاتٍ متعدّدة، إحداها نزول القرآن على رسول الله ' تدريجاً، والآخر نزوله الدفعي من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور.

وعلى هذا: فما المانع من أن تكون بعض آيات القرآن من سورة العلق قد نزلت على النبي ' في السابع والعشرين من شهر رجب، ثمّ نزل القرآن بصورته الجمعيّة الكاملة في شهر رمضان من مكانٍ معيّن أسماه القرآن باللّوح المحفوظ، إلى موضع آخر عبّر عنه في بعض الروايات بالبيت المعمور.

ويؤيّد هذا الرأي قول الله تعالى في سورة الدخان: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ} [الدخان: ٣]، فإنّ هذه الآية - بحكم رجوع الضمير فيها إلى الكتاب - تصرّح بأنّ الكتاب العزيز بأجمعه نزل في ليلة مباركة في شهر رمضان،

ولا بدّ أن يكون هذا النزول غير ذلك النزول الذي تحقّق في يوم المبعث الشريف؛ لأنّه في يوم المبعث لم تنزل سوى آياتٍ معدودة لا أكثر. معين وخلاصة الكلام: أنّ الآيات التي تصرّح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليلة مباركة (ليلة القدر) لا يمكن أن تدلّ على أنّ يوم المبعث الذي نزلت فيه بضع آيات أيضاً كان في ذلك الشهر نفسه؛ لأنّ الآيات المذكورة تدلّ على أنّ مجموع القرآن - لا بعضه - قد نزل في ذلك الشهر، في حين لم تنزل في يوم المبعث سوى آياتٍ معدودة كما نعلم. وفي هذه الصورة يحتمل أن يكون المراد من النزول الجمعيّ للقرآن هو نزول مجموع الكتاب العزيز في ذلك الشهر من اللّوح المحفوظ إلى البيت المعمور.

٢- ما بذل العلامة الطباطبائيّ جهداً كبيراً لتوضيحه وبيانه، وخلاصته: أنّ المقصود من إنزال القرآن في شهر رمضان هو نزول حقيقة القرآن على قلب النبيّ '؛ لأنّ للقرآن - مضافاً إلى وجوده التدريجيّ - واقعيّة أطلع الله تعالى نبيّه العظيم عليها في ليلة معيّنة من ليالي شهر رمضان المبارك. وحيث إنّ النبيّ ' كان قد عرف من قبل بجميع القرآن الكريم لذلك نزلت الآية تأمره بأن لا يعجل بقراءته حتّى يصدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً؛ اذ يقول تعالى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ} [طه: ١١٤]. فللقرآن الكريم - على هذا - وجود جمعيّ علميٍّ واقعيٍّ، وهو الذي نزل على الرسول الكريم ' مرّة واحدة في شهر رمضان، وله وجود آخر، وهو وجود تدريجيّ كان بدء نزوله على النبيّ ' في يوم المبعث، واستمرّ تنزّله الى آخر حياته الشريفة على نحو التدريج.

٣- وهو قائمٌ على التفكيك بين نزول القرآن والبعثة؛ وخلاصته: أنّ بعثة الرسول ' بالرسالة في شهر رجب لا يلازم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً؛ فحيث إنّ النفس الإنسانيّة لا تستطيع في الوهلة الأولى تحمّل مراتب

الوحي جميعها دفعةً واحدة، بل لا بدّ أن يتحمّلها تدريجاً، فلهذا يجب القول بأنّ النبيّ ' قد سمع يوم المبعث (اليوم السابع والعشرون من شهر رجب) النداء السماويّ الذي يخبره بأنّه رسول الله فقط، ولم تنزل في مثل هذا اليوم آية آية قطّ، وقد استمرّ الأمر على هذا المنوال مدّةً من الزمان. ثمّ بعد مدّة بدأ نزول القرآن الكريم على نحو التدريج ابتداءً من شهر رمضان. وعليه: فما المانع من أن يبعث رسول الله ' في شهر رجب، وينزل القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس ذلك العامّ؟

والإجابة وإن كانت لا توافق كثيراً من النصوص التاريخيّة (لأنّ كثيراً من المؤرّخين صرّحوا بأنّ الآيات الخمس من سورة العلق نزلت في يوم المبعث نفسه) إلّا أنّ هناك - مع ذلك - رواياتٍ ذكرت قصّة البعثة بسماع النبيّ ' للنداء الغيبيّ، ولم تذكر شيئاً عن نزول قرآنٍ أو آيات. وهذه الإجابة تختلف عن الإجابة الرابعة التي تقول بأنّ مبعث النبيّ ' كان في شهر رجب، وكان نزول القرآن الكريم بعد انقضاء الدعوة السريّة التي استغرقت ثلاثة أعوام^(١).

وهذا التفريق موجودٌ في الحقيقة في روايات أهل البيت^٨؛ ففي الكافي عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله × قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة: ١٨٥]، وإنّا أنزل القرآن في عشرين سنة بين أوّله وآخره، فقال ×: نزل القرآن جملةً واحدةً في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ نزل في طول عشرين سنة. ثمّ قال ×: قال النبيّ ' : نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لستّ مَضِيّين من شهر رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خَلَوْنَ من شهر رمضان، وأنزل القرآن في ليلة ثلاث وعشرين^(١).

وروى القمّي عن الباقر × في قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ} [الدخان: ٣]، قال ×: أي: أنزلنا القرآن، واللييلة المباركة ليلة القدر، أنزل الله القرآن فيها إلى البيت المعمور جملةً واحدة، ثم نزل من البيت المعمور على رسول الله ' في طول عشرين سنة^(١).

:

أتضح إلى هنا مجموعة أمور:

- ١- أن الروايات الشيعة الواردة في مقام تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم لا تتمتع بقوة سندية.
- ٢- لا يوجد في الروايات الشيعة: «ما أنا بقارئ» أو «لست بقارئ» إلا في ما جاء في العدد القوي^(٢) والمناقب^(٣) وبحار الأنوار^(٤)، ولكنها جميعاً غير مسندة، ويبدو أنها منقولة عن المصادر السنية التي نقلتها بكثرة، كما في البخاري وإمتاع الأسماع^(٥).
- ٣- يوجد في الروايات الشيعة حديث عن عظيم ما حلّ برسول الله '، ولكن بعبارة «غشيه من تعظيم جلال الله وورد عليه من كبير شأنه ما ركه الحمى والنافض»، وأنّ الخوف الذي حلّ به كان ناتجاً عن خوف تكذيب قريش له^(٦)، لا عن شكّه في صحّة ما رآه كما في المصادر السنية.
- ٤- لا حديث في مصادر الشيعة عن تطمين خديجة ÷ بالنحو الوارد في مصادر أهل السنة، حيث يبدو للقارئ فيها أنّ خديجة ÷ كانت مطمئنة، بينما كان ' في شكٍّ وترديد، كما يظهر من إمتاع الأسماع مثلاً^(٧). هذا فضلاً عن اطمئنان أبي بكر بالنبوة أكثر منه '.
- ٥- لا حديث في مصادر الشيعة عن قصّة ورقة بن نوفل إلا نقلاً عن المصادر

السَّنة^(١)، وقد خلصنا من خلال التحليل إلى أنَّها أسطورة من نسج خيال الزبيريين ومصالحهم.

٦- اختلف أهل السنة في زمان بعثة الرسول ' على خمسة أقوال: ١٧، ١٨، ٢٤ من شهر رمضان، ١٢ ربيع الأول و ٢٧ رجب. والآخر هو اتفاق الإمامية، حيث أجمعوا على كون البعثة في ٢٧ رجب.

٧- المعروف في حلّ معضلة التوفيق بين كون البعثة في شهر رجب وتصريح القرآن الكريم بنزوله في شهر رمضان أنَّ النازل في شهر رمضان المبارك هو الحقيقة القرآنية التي نزلت على قلب رسول الله '، وإن كان هذا الجواب غير مرضيٍّ لدى بعض.

وسنستعرض إن شاء الله مفصلاً في القسم الثاني من هذا المقال المحاولة القائمة على التفريق بين الإنزال والتنزيل، لنرى مدى متانة أدلتها ونجاحها في حلّ المعضلة القائمة.

* * *

(١) تفسير القرآن الكريم ١: ١٧-١٨.

(٢) تفسير كتاب الله العزيز: ١: ٦١-٦٢.

(٣) صحيح مسلم: ١: ١٣٩.

(٤) مواهب الرحمن (المدرس): ١: ٤٢-٤٣.

(٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٤: ٧٧٥.

(٦) تفسير كتاب الله العزيز: ١: ٦٢.

(٧) بيان المعاني: ١: ٥٠.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤: ٧٦١.

(٩) الأصفى في تفسير القرآن: ٢: ١٤٥٩.

(١٠) أطيب البيان في تفسير القرآن: ١٤: ١٦٢-١٦٣.

- (١١) البلاغ في تفسير القرآن بالقرآن: ١: ٥٩٧.
- (١٢) پرتوی از قرآن: ٤: ١٧٥ - ١٧٦.
- (١٣) التبيان في تفسير القرآن: ١٠: ٣٧٨ - ٣٧٩.
- (١٤) تبیین القرآن: ١: ٦٢٠.
- (١٥) ترجمه بیان السعادة: ١٤: ٥٨٤.
- (١٦) تفسير الصافي: ٥: ٣٤٨.
- (١٧) تفسير الكاشف: ٧: ٥٨٥ - ٥٨٧.
- (١٨) التفسير المبين: ٨١٤.
- (١٩) تفسير المعين: ٣: ١٦٩٥.
- (٢٠) تفسير بيان السعادة في مقامات العباد: ٤: ٢٦٥.
- (٢١) تفسير جوامع الجامع: ٤: ٥١٢.
- (٢٢) تفسير عليين: ٥٩٧.
- (٢٣) تفسير منهج الصادقين في إلزام المخالفين: ١٠: ٢٩٣.
- (٢٤) خلاصة المنهج: ٦: ٣٢١.
- (٢٥) مقتنيات الدرر وملقطات الثمر: ١٢: ١٨١.
- (٢٦) أحكام القرآن: ٤: ١٩٥٤ - ١٩٥٥.
- (٢٧) التحرير والتنوير: ٣٠: ٣٨٣.
- (٢٨) التفسير القرآني للقرآن: ١٦: ١٦٢٢.
- (٢٩) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١٥: ٤٥٣.
- (٣٠) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٦: ٥٢٨.
- (٣١) تيسير الكريم الرحمن: ١١١٩ - ١١٢٠.
- (٣٢) جامع البيان في تفسير القرآن: ٣٠: ١٦١ - ١٦٣.
- (٣٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢١: ١١٧ - ١١٩.
- (٣٤) جواهر الحسان في تفسير القرآن: ٥: ٦٠٨.
- (٣٥) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: ٢: ٤٩٦.
- (٣٦) الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ١٠: ٢٤٢ - ٢٤٣.
- (٣٧) لطايف الإشارات: ٣: ٧٤٧.

- (٣٨) معالم التنزيل في تفسير القرآن: ٥: ٢٧٩.
- (٣٩) معاني القرآن: ٣: ٢٧٨.
- (٤٠) تفسير ابن عربي: ٢: ٤٤٥.
- (٤١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٦؛ بحار الأنوار: ٨٩: ٣٩.
- (٤٢) معجم رجال الحديث: ٢: ١٥٥، الرقم ٦٧٥.
- (٤٣) رجال النجاشي: ٢٦٠؛ فهرست الطوسي: ٢٦٦؛ خلاصة العلامة: ١٠٠.
- (٤٤) رجال النجاشي: ١٦؛ فهرست الطوسي: ١١؛ رجال الطوسي: ٣٥٣؛ خلاصة العلامة: ٤.
- (٤٥) تفسير القمي: ٢: ٤٣٠؛ بحار الأنوار: ٣٦: ١٧٦.
- (٤٦) تفسير فرائد الكوفي: ٥٢٤؛ بحار الأنوار: ٣٥: ٢٤٩.
- (٤٧) إرشاد القلوب: ٢: ٢٢٠ - ٢٢١؛ الطرائف: ١: ٤٧؛ العمدة: ١١٩؛ المناقب: ٣: ٣.
- (٤٨) بحار الأنوار: ٩٠: ١٠.
- (٤٩) رجال النجاشي: ٩٤؛ فهرست الطوسي: ٦٨؛ رجال الطوسي: ٤٠٩.
- (٥٠) تنقيح المقال: ٨: ٢٦٨، هامش المحقق.
- (٥١) رجال النجاشي: ٢٦؛ فهرست الطوسي: ٢٧؛ رجال الطوسي: ٣٥٢؛ اختيار معرفة الرجال: ٥٨٩: ١.
- (٥٢) رجال النجاشي: ٤٤٣.
- (٥٣) رجال ابن الغضائري: ١: ٥١.
- (٥٤) بحار الأنوار: ١٧: ٣٠٧.
- (٥٥) شرح نهج البلاغة: ١٣: ٢٠٨.
- (٥٦) تفسير القمي: ٢: ٤٢٨.
- (٥٧) تاريخ يعقوبي: ٢: ٣٣.
- (٥٨) بحار الأنوار: ٣٥: ٢٥٦.
- (٥٩) شواهد التنزيل: ٢: ٤٠٩.
- (٦٠) المصدر السابق: ٢: ٤١١.
- (٦١) المصدر السابق: ٢: ٤١٣.
- (٦٢) المصدر السابق: ٢: ٤١٣.
- (٦٣) السيرة النبوية: ١: ٢٣٦ - ٢٣٨.

- (٦٤) صحيح البخاري: ٢: ١، ٦: ٢٠٠؛ الدرّ المنثور في تفسير المأثور: ٦: ٣٦٨.
- (٦٥) دلائل النبوة: ٢: ١٥٥.
- (٦٦) الطبقات الكبرى: ١: ١٥٤.
- (٦٧) أنساب الأشراف: ١: ١٠٨ - ١١٠.
- (٦٨) تاريخ ابن خلدون: ٢: ٤٠٩ - ٤١٠.
- (٦٩) حياة الحيوان الكبرى: ٢: ٢٠٨.
- (٧٠) كنوز الذهب في تاريخ حلب: ٢: ٨.
- (٧١) السيرة النبوية: ١: ٢٣٦ - ٢٣٨.
- (٧٢) تاريخ الطبري: ٢: ٢٩٣ - ٣٠٠.
- (٧٣) أسد الغابة: ١: ٢٥، ٦: ٨١ - ٨٣.
- (٧٤) البداية والنهاية: ٣: ٣.
- (٧٥) تاريخ مدينة دمشق: ٦٣: ٦ - ٧.
- (٧٦) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): ٨: ٤٢١ - ٤٢٢.
- (٧٧) أعلام النبوة (الماوردي): ٢٣٧.
- (٧٨) الدرّ المنثور في تفسير المأثور: ٦: ٣٦٨ - ٣٦٩؛ نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٦: ١٧٠ - ١٧٣؛ التفسير المظهر: ١٠: ٣٠٠ - ٣٠٢.
- (٧٩) البداية والنهاية: ٣: ٢ - ٣.
- (٨٠) تاريخ الإسلام: ١: ١١٧ - ١١٩.
- (٨١) إمتاع الأسماع: ١: ٣٠ - ٣١.
- (٨٢) أسباب النزول: ٢١.
- (٨٣) السيرة الحلبية: ١: ٢٠٢؛ بحار الأنوار: ١٦: ١٤.
- (٨٤) تاريخ الإسلام: ١: ١١٧ - ١١٩.
- (٨٥) إمتاع الأسماع: ٣٤.
- (٨٦) أعلام النبوة: ٢٤٨.
- (٨٧) أنساب الأشراف: ١: ١٨٦.
- (٨٨) الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله^٣ والثلاثة الخلفاء: ١: ١٩٤.
- (٨٩) إنارة الدجى في مغازي خير الورى ٣٠: '.

- (٩٠) أنساب الأشراف: ١: ١٠٦.
- (٩١) مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠: ٥٨٠.
- (٩٢) أعيان الشيعة: ١: ٢٢٤-٢٢٥.
- (٩٣) دلائل الصدق لنهج الحق: ٤: ١٣٧-١٤٢.
- (٩٤) تفسير الميزان: ٢٠: ٣٢٩.
- (٩٥) من وحي القرآن: ٢٤: ٣٢٨-٣٣٣.
- (٩٦) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ط-قديم): ٢: ٣٠٩-٣١٤.
- (٩٧) إمتاع الأسماع: ٤: ٤١؛ البداية والنهاية: ٢: ٢٤٩؛ تاريخ الخميس: ١: ١٨٥؛ دلائل النبوة: ١: ١٠٢؛ سبل الهدى والرشاد: ١: ٣٢٦؛ سيرة ابن إسحاق: ٤٢؛ السيرة الحلبية: ١: ٥٨؛ السيرة النبوية (ابن هشام): ١: ١٥٦؛ الاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله ' والثلاثة الخلفاء: ١: ١٠٧.
- (٩٨) إعلام الوری: ١: ٤٦.
- (٩٩) بحار الأنوار: ١٨: ٢٠٤.
- (١٠٠) بحار الأنوار: ١٥: ٢٨١.
- (١٠١) أعيان الشيعة: ١: ٢٢٤-٢٢٥.
- (١٠٢) سيرة سيّد المرسلين: ١: ٣٤٣-٣٤٨.
- (١٠٣) بحار الأنوار: ١٨: ١٩٠.
- (١٠٤) تاريخ الطبري: ٢: ٢٩٣-٣٠٠.
- (١٠٥) إمتاع الأسماع: ١: ٣٠-٣١.
- (١٠٦) السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) ١: ٣٤٠.
- (١٠٧) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٦: ١٦٩.
- (١٠٨) المنير في العقيدة والشرعة والمنهج: ١: ١٩.
- (١٠٩) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ط-قديم): ٢: ٢٤٤.
- (١١٠) سيرة سيّد المرسلين: ١: ٣٤٣.
- (١١١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم (ط-قديم): ٢: ٢٤٤-٢٥٠.
- (١١٢) سيرة سيّد المرسلين: ١: ٣٤٣-٣٤٨.
- (١١٣) الكافي: ٢: ٦٢٨، الحديث ٦.

- (١١٤) تفسير القمّي ١: ٦٦.
- (١١٥) العدد القويّة: ٣٣٧.
- (١١٦) المناقب ١: ٤٦.
- (١١٧) بحار الأنوار ١٨: ١٧٣، ١٩٦.
- (١١٨) إمتاع الأسماع ١: ٣٠-٣٧، ٣: ٣.
- (١١٩) بحار الأنوار ١٨: ١٧٣.
- (١٢٠) إمتاع الأسماع ١: ٣٠-٣١.
- (١٢١) بحار الأنوار ١٨: ١٩٥.

تنمية المعارضة السلمية

في منهج الإمام الشهيد الصدر عليه السلام

□ السيد شهاب الدين الحسيني (*)

المقدمة

تبني الإمام الشهيد الصدر عليه السلام رأياً في المعارضة يختلف عن المرتكزات الذهنية السائدة في تقويم وتقييم آرائه ومواقفه، فهو يتبنى المعارضة السلمية من أجل تقرير المفاهيم والقيم الإسلامية في واقع الحياة وجعلها حاکمة على الأفكار والممارسات التي يقوم بها الحاكم والأمة على حدّ سواء.

ويرى أنّ الدولة ظاهرة نبوية، ويرفض من خلال نظريته الإسلامية نظرية القوة والتغلّب، ونظرية التفويض الإلهي الإجمالي، ونظرية العقد الاجتماعي، ونظرية الدولة عن العائلة، ويرى أنّ الدولة والحكومة غير منفصلة عن الدين، وهي اختصاص النبي أو الإمام أو الفقيه العادل الكفوء في عصر الغيبة، ويرى بأنّ الفقيه العادل الكفوء هو الحاكم المنصوب من قبل الله تعالى ورسوله والإمام المعصوم تنصيباً عاماً، وتقع على الأمة مسؤولية الاختيار الواعي له عن طريق البيعة والانتخاب واختياره في حال تعدّد المؤهلين لمنصب الحاکمية،

(*) باحث إسلامي / العراق.

وللأمة حقّ الاعتراض إن خالف الحاكم ثوابت الدستور الإسلامي.

ويرى أنّ الدولة على ثلاثة أنواع:

الأول: الدولة القائمة على قاعدة فكرية مضادة للإسلام، وهذه الدولة هي دولة كافرة.

الثاني: الدولة التي لا تملك لنفسها قاعدة فكرية معيّنة، حيث تقوم على أساس إرادة الحاكم وهواه، أو المسخرة لإرادة أمة أخرى ومصالحها، وهذه الدولة هي دولة كافرة أيضاً.

الثالث: الدولة الإسلامية، وهي الدولة التي تقوم على أساس الإسلام، وهي بدورها على أنحاء.

- الدولة المعصومة.

- الدولة التي تعارض في بعض تشريعاتها القاعدة الإسلامية، أو تعارضها في التنفيذ.

- الدولة التي تخالف القاعدة الإسلامية عن عمدٍ مستندة إلى هوى خاص أو رأيٍ مرتجل.

ويرى الإمام الشهيد وجوب معارضة الدولة الكافرة أو الدولة الإسلامية التي يشد حكامها عن القاعدة الإسلامية في التشريع والتنفيذ، ووجوب المعارضة مشروطاً بملاحظة النتائج الإيجابية ومراعاة مصلحة الإسلام العليا كعقيدة وكيان وأفراد؛ للحيلولة دون حدوث فتنة داخلية أو إراقة دماء دون الحصول على مكاسب ملموسة.

فهو يتبنّى المعارضة السلمية كأصل وأساس، وتبقى المعارضة العسكرية كخيارٍ استثنائيٍّ محدود النطاق، بحيث لا تزجّ جميع الطاقات في هذه المعارضة.

ومن الناحية العملية فإنّه ضيق من دائرة المواجهة المسلّحة باعتماد أساليب الخلايا الجهادية والتنظيم السري، والعمل على تقويض رأس النظام العراقي من

قبل مجاميع خاصّة مرتبطة به بنحو من الارتباط.

وكان تصعيده للمواجهة مع النظام منطلقاً من فهمٍ واعٍ لسياسة النظام التي تخطّط لتصفيته جسدياً في جميع الأحوال والظروف؛ ليكون لدمه دورٌ ملموسٌ في تقويض أركان النظام، وهذا ما تحقّق في ذكرى استشهاده؛ بحيث إنّ ضعف النظام من الداخل ساعد في زواله من قبل القوات الأجنبية.

من السّنن التاريخية التي لا تختلف ولا تتخلف أنّ الإنسان يختلف مع أخيه الإنسان في مختلف القضايا وعلى جميع المستويات الفكرية والعاطفية والسلوكية، وهذه حقيقة موضوعية لا تقبل الجدل، فالإنسان بغرائزه الروحية والمادية، وبطاقته النفسية والعقلية، وإمكاناته الذاتية يختلف عن غيره، ومن هنا كانت التعددية ظاهرة طبيعية لا يمكن إلغاؤها أو شطبها أو تحميلها ما لا يطاق. وبسبب هذه التعددية تتولّد الخلافات والنزاعات التي تتخذ طابع الرفق أحياناً والعنف أحياناً أخرى، تتخذ طابع التنافس المشروع تارةً وغير المشروع تارةً أخرى، وخاصّة حينما يكون التعصّب والأناية محرّكاً للفكر والموقف العملي، ويتجلّى العنف والإلغاء والشطب في المجال السياسي حينما يختلف الحاكم مع المحكومين، فيواجه المعارضة بالإرهاب والقمع ظناً منه أنّه السبيل الوحيد لإلغائها وشطبها.

وفي مجال العلاقة بين الحاكم والمعارضة كان الإمام الشهيد محمد باقر الصدر يتبنّى رأياً مخالفاً للمركزات الذهنية السائدة في تقويم وتقييم آرائه ومواقفه، فهو يتبنّى المعارضة السلمية الهادئة والهادفة لإصلاح الواقع وتغييره. وفي البدء نتطرّق إلى رأيه عليه السلام في خصائص الحاكم، وشكل الحكومة، ثمّ ننتقل إلى بيان رأيه في معارضة الحاكم والحكومة المخالفة للثوابت الإسلامية.

من خلال النظرة الشمولية للفهم الحقيقي للدين أو الإسلام، خصوصاً باعتباره النظام الشامل لجميع جوانب الحياة الإنسانية، يرى الإمام الصدر رحمته الله أنَّ الدولة ظاهرة نبوية، فيقول: «من ناحية تكوّن الدولة ونشئها تاريخياً نرفض إسلامياً المذهب الفردي، أو مذهب عدم التدخّل المطلق (أصالة الفرد)، والمذهب الاشتراكي أو (أصالة المجتمع)، ونؤمن بأنّ وظيفتها تطبيق شريعة السماء التي وازنت بين الفرد والمجتمع، كما أنّ النظرية الإسلامية ترفض الملكية، أي: النظام الملكي، وترفض الحكومة الفردية بكلّ أشكالها، وترفض الحكومة الأرستقراطية، وتطرح شكلاً للحكم يحتوي على كلّ النّقاط الإيجابية في النظام الديمقراطي مع فوارق تزيد الشكل موضوعيةً وضماناً لعدم الانحراف. فالأُمة هي مصدر السيادة في النظام الديمقراطي، وهي محطّ المسؤولية أمام الله تعالى في النظام الإسلامي، والدستور كله من صنع الإنسان في النظام الديمقراطي، بينما تمثّل الأجزاء الثابتة من الدستور شريعة الله تعالى وعدالته التي تضمن موضوعية الدستور وعدم تحيّزه»^(١).

وعلى ضوء ذلك، فالدولة والحكومة غير منفصلة عن الدين، بل هي دولة وحكومة دينية مهمتها إقرار مفاهيم الدين أو الإسلام في واقع الحياة وجعلها حاکمة على جميع الطبقات والشرائح الاجتماعية والسياسية، بلا فرق بين الحاكم والمحكومين. فهم جميعاً مكلفون بهذه المسؤولية، ولكلّ دوره في تحقيقها في الواقع، ومن هنا يكون الإشراف على الدولة والحكومة من مهمّة النبي أو الإمام، سواء كان مبسوط اليد أو غير مبسوطها، وكذلك النائب عن الإمام بالنيابة العامة، وهو الفقيه الجامع للشرائط، وهو الثابت من خلال آراء الإمام الصدر رحمته الله، كما ورد عن: «إنّ المرجعية الرشيدة هي المعبر الشرعي عن الإسلام،

والمرجع هو النائب العام عن الإمام من الناحية الشرعية، وعلى هذا الأساس يتولّى ما يلي:

أولاً: أن المرجع هو الممثل الأعلى للدولة، والقائد الأعلى للجيش.
ثانياً: المرجع هو الذي يرشح أو يمضي ترشيح الفرد أو الأفراد الذين يتقدمون للفوز بمنصب رئاسة السلطة التنفيذية^(١).
والخلافة العامة للأمة: «على أساس قاعدة الشورى التي تمنحها حق ممارسة أمورها بنفسها ضمن إطار الإشراف والرقابة الدستورية من نائب الإمام»^(٢).

الحاكمية في عصر الغيبة من اختصاص الفقيه الجامع للشرائط، والمتمثل في المرجع، فهو يمثل خطّ الشهادة على الأمة على أساس أن المرجعية امتداداً للنبوة والإمامة.

ومن أهم مسؤولياته:

- أن يحافظ على الشريعة والرسالة.
 - أن يكون في بيان أحكام الإسلام ومفاهيمه مجتهداً.
 - أن يكون مشرفاً ورقياً على الأمة^(٣).
- وهذا الرأي مطابق للآراء الواعية لجمع من فقهاء المذاهب الأخرى الذين يتبنون إمامة الفقيه العادل الكفوء.
- فقد حدّد الماوردي الشافعي شروطاً ينبغي اتّصاف الإمام أو الحاكم الأعلى بها، وهي: «العدالة، والعلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية، وتدبير المصالح»^(٤).
- وقال النّووي: «كونه عدلاً عالماً مجتهداً شجاعاً ذا رأي وكفاية»^(٥).

وقال القلقشندي في تحديد شروط الإمام: «العاشر: العدالة، فلا تنعقد إمامة الفاسق... لأنّ المراد من الإمام مراعاة النظر للمسلمين، والفاسق لم ينظر لنفسه في أمر دينه، فكيف ينظر في مصلحة غيره. الحادي عشر: الشجاعة والنجدة، فلا تنعقد إمامة الجبان. الثاني عشر: العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، فلا تنعقد إمامة غير العالم بذلك. الثالث عشر: صحّة الرأي والتدبّن، فلا تنعقد إمامة ضعيف الرأي»^(١).

وقيادة وحاكمية الفقيه العادل تنجسم مع روح الروايات التي تؤكد دوره الريادي في المجتمع الإسلامي، فقد روي عن رسول الله ' أنّه قال: - «الفقهاء أُمّناء الرسل»^(٢).

- «المتقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة»^(٣).

- وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للعلم: «يرفع الله به أقواماً، يجعلهم في الخير أئمة، يقتدى بهم، ترمق أعمالهم، وتقتبس آثارهم...»^(٤).

- وقال عليه السلام: «الملوك حكامٌ على الناس، والعلماء حكامٌ على الملوك»^(٥).

- وقال الإمام الحسين عليه السلام: «ذَلِكَ بَأَنَّ جَارِي الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ عَلَى أَيْدِي الْعُلَمَاءِ بِاللهِ الْأُمْنَاءِ عَلَى حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ»^(٦).

والرأي الذي تبناه الإمام الشهيد منسجماً مع روح الإسلام الهادفة إلى هداية الناس وقيادتها نحو المطلق سبحانه وتعالى، بتقرير مفاهيم وقيم الإسلام في واقع الحياة، ولا يستطيع القيام بهذه المسؤولية إلا من يكون عالماً بأسسها وقواعدها الثابتة، ومجسداً لها في سلوكه العملي، وهو الفقيه الجامع للشرائط، والمتعارف بين جميع الأمم على مختلف دياناتها أنّها لو خلّيت وإرادتها فإنّها ستختار من بينها من كان عارفاً بمفاهيمها وقيمها المتوارثة، ومن كان مجسداً لها في واقعه السلوكي.

وحاكمية الفقيه هي الحاكمية الوحيدة التي تجعل القوانين والتوجيهات

والأوامر والنواهي ذات قدسية خاصة في العقول والقلوب، فتستجيب الأمة للفقيه دون تردّد أو تراجع، وتندفع للاستجابة إلى أوامره عن قناعة، وتستسلم استسلاماً ذاتياً؛ لأنها تشعر بقدسية الأوامر والتوجيهات، وتشعر بأن الله تعالى هو الرقيب عليها قبل رقابة القانون؛ ولهذا لا تعارضه ما دام مجسّداً للمنهج الإلهي في واقعه السلوكي.

وتكون المعارضة إن وجدت ظاهرة استثنائية طارئة، تنطلق من الجهل وقلة الوعي، ومن المصالح الضيقة الذاتية، أو من التمرد على المفاهيم والقيم الإسلامية، أو عدم الإيمان بصلاحياتها وقدرتها على مواكبة حركة البشرية، أو نتيجة للارتباط بمناهج غير إسلامية.

من أساسيات المنهج الإسلامي الاعتماد على الأمة في إنجاح المسيرة التكاملية لحركة الإسلام الميدانية بالمشاركة في إقرار المفاهيم والقيم السامية في الواقع، وتحقيقها في صورة عملية ذات معالم واضحة وملموسة، تترجم فيها التصوّرات والنصوص إلى مشاعر وأوضاع وارتباطات وحركات وأعمال وأخلاق في جميع مجالات الحياة الإنسانية.

وهذه المسؤولية تكليف عام يشمل القائد والأمة، أو الحاكم والمحكومين، فلكلّ منهم دورٌ محدّد يساهم من خلاله في إنجاز المهمّات وإنجاح سير الأعمال. ومن هنا منح المنهج الإسلامي للأمة دوراً واضحاً في اختيار الحاكم الأصح من بين المؤهلين؛ وبهذا الدور تشعر الأمة بمساهمتها في البناء، وفي إرساء أركان ومقومات النظام والحكومة، وفي تحميل المسؤولية في تنفيذ البرامج والمشاريع، أو المساهمة في تقريرها. وقد أوكل الإمام الشهيد اختيار الحاكم الإسلامي للأمة على طبق الموازين والمعايير والشروط الثابتة، فقال: «وأما

المرجع، فهو معيّن تعييناً نوعياً، أي: أَنَّ الإسلام حدّد الشروط العامّة للمرجع، وترك أمر التعيين والتأكيد من انطباق الشروط إلى الأُمّة نفسها، ومن هنا كانت المرجعية كخطّ قراراً إلهياً، والمرجعية كتجسيدٍ في فردٍ معيّن قراراً من الأُمّة»^(١).

وهذه المسؤولية تكليفٌ عامٌّ يشمل القائد والأُمّة أو الحاكم والمحكومين، فلكلّ منهم دور محدد يساهم من خلاله في إنجاز المهام وإنجاح سير الأعمال.

ومن هنا منح المنهج الإسلامي للأُمّة دوراً واضحاً في اختيار الحاكم الأصالح من بين المؤهلين، وبهذا الدور تشعر الأُمّة بمساهمتها في البناء وفي إرساء أركان ومقومات النظام والحكومة، وفي تحمّل المسؤولية في تنفيذ البرامج والمشاريع، أو المساهمة في تقريرها، وقد أوكل الإمام الشهيد اختيار الحاكم الإسلامي للأُمّة على طبق الموازين والمعايير والشروط الثابتة فقال: «وأما المرجع، فهو معين تعييناً نوعياً، أي: أَنَّ الإسلام حدّد الشروط العامة للمرجع وترك أمر التعيين والتأكيد من انطباق الشروط إلى الأُمّة نفسها، ومن هنا كانت المرجعية كخطّ قراراً إلهياً، والمرجعية كتجسيدٍ في فردٍ معين قراراً من الأُمّة»^(٢).

وقال أيضاً: «وأما المرجعية، فهي عهد رباني إلى الخط لا إلى الشخص، أي: أَنَّ المرجع محدد تحديداً نوعياً لا شخصياً، وليس الشخص هو طرف التعاقد مع الله، بل المركز كمواصفات عامة»^(٣).

والطريق الأفضل للاختيار هو طريق البيعة الذي يعبر عن مساهمة الأُمّة في البناء الحكومي والاستشعار بأنّها جزء منه: «إنّها بالبيعة تحدّد مصيرها، وإنّ الإنسان حينما يبايع يساهم في البناء ويكون مسؤولاً عن الحفاظ عليه»^(٤).

والاختيار هو من مسؤولية الأُمّة: «إذ تقع على الأُمّة مسؤولية الاختيار الواعي له»^(٥).

وتساهم الأُمّة في البناء عن طريق مبدأ الشورى؛ حيث إنّ الشورى هي الفيصل في حال اختلاف الآراء والقرارات والمواقف السياسية، وهذا ما أشار

إليه الإمام الشهيد بالأخذ (بمبدأ الشورى، وبراى الأكرية عند الاختلاف)^(١). وعلى ضوء ما تقدّم نستطيع القول بأن للأمة حقّ الاعتراض ما دامت طرفاً في تشكيل الحكومة أو اختيار الحاكم، فلها حقّ الاعتراض إن خالف الحاكم القاعدة الفكرية التي يستند إليها، أو خالف بعض بنود الدستور، فتكون المعارضة وسيلة للإصلاح ووسيلة للبناء وإعادة الحاكم إلى جادة الصواب؛ للتقيّد بالقاعدة الفكرية الحاكمة عليه وعلى الأمة.

وبعد هذه المقدمة نتطرق إلى الموقف من الحكومة على اختلاف متبنياتها الفكرية ومواقفها العملية؛ حيث إنّ مسؤولية الأمة هي المراقبة للحكام وأجهزتهم التنفيذية.

يرى الإمام الشهيد أنّ الدولة على ثلاثة أنواع.

أولاً: «الدولة القائمة على قاعدة فكرية مضادة للإسلام، وهذه الدولة دولة كافرة؛ لأنّها لا تقوم على القاعدة الفكرية للإسلام، وهي بسبب تبنّيها لقاعدة فكرية مناقضة للإسلام تعدّ كلّ إمكاناتها للتبشير بتلك القاعدة ومحاربة كلّ ما يناقضها بما في ذلك الإسلام بعقيدته وأفكاره وتشريع. وحكم الإسلام في حقّ هذه الدولة: أنّه يجب على المسلمين أن يقضوا عليها، وأن ينقذوا الإسلام من خطرها إذا تمكنوا من ذلك بمختلف الطرق والأساليب التبشيرية والجهادية؛ لأنّ الإسلام في هذه الدولة - حتى بصفته عقيدة - موضع للهجوم وموضع للخطر، فتكون الحالة معها حالة جهاد لحماية بيضة الإسلام، غير أنّ وجوب جهاد هذا العدو لا يعني بطبيعة الحال القيام بأعمال تعرّض العاملين للخطر دون نتيجة إيجابية»^(٢).

ثانياً: الدولة التي لا تملك لنفسها قاعدة فكرية معينة، كما هو شأن

الحكومات القائمة على أساس إرادة حاكم وهواه، أو المسخرة لإرادة أمة أخرى ومصالحها، وهذه الدولة دولة كافرة وليست دولة إسلامية، وإن كان الحاكم فيها والمحكومون مسلمين جميعاً؛ لأنَّ الصفة الإسلامية للدولة لا تنبع من اعتناق الأشخاص الحاكمين للإسلام، ومعنى اعتناق الدولة للإسلام، ارتكازها على القاعدة الإسلامية واستمدادها من الإسلام، تشريعاتها ونظريتها للحياة والمجتمع...

والإسلام في هذه الدولة وإن كان لإيجابه منها حرباً مركزة على عقيدته وأفكاره إلا أنه حيث أقصى عن قاعدته الرئيسية أصبح يفقد ضمان الدولة بكُلِّ وجه من الوجوه، وأصبح وجوده في خطر.

«والحكم الشرعي في حق هذه الدولة أنها ليست دولة شرعية، ويجب على المسلمين هدمها وإبداها بدولة إسلامية، وكذلك فإنَّ وجوب إبداها لا يعني القيام بأعمال تعرّض العاملين للخطر دون احتمال نتيجة إيجابية، كما أنَّ الطرق التي تستعمل في سبيل هدمها وإبداها تقدّر من حيث درجة العنف والقوة طبقاً لمدى الخطر الذي يتهدّد الإسلام منها، وطبقاً لإمكانات العاملين واحتمال عود جهادهم بنتيجة على الإسلام»^(١).

ورأي الإمام الشهيد في الموقف من هذين النوعين من الدولة هو تبني الجهاد لتغييرها، والجهاد المقصود هو الجهاد الأعمّ أو الجهاد بمعناه المطلق الذي يشمل الجهاد السلمي أو السياسي والجهاد المسلّح، والجهاد السلمي أو السياسي مقدّم على غيره عن طريق المنابر الإعلامية السائدة المقروءة والمسموعة، وعن طريق التظاهرات والاعتصامات والعصيان المدني، فالظروف هي التي تحدّد الموقف.

ويراعى على ضوء ذلك مستوى الخطر الذي يهدّد الإسلام، فقد يكون التهديد منصباً على أمور غير أساسية، وقد يكون منصباً على أساسيات

الإسلام، فما دام حق التعبير وحق إبداء وجهات النظر قائماً فإن المعارضة السلمية أو السياسية هو الموقف العملي الذي ينبغي اتخاذه للمحافظة على الوجود الإسلامي، والمحافظة على حياة العاملين للإسلام.

ويراعى على ضوء ذلك مستوى الخطر الذي يهدد الإسلام، فقد يكون التهديد منصباً على أمور غير أساسية، وقد يكون منصباً على أساسيات الإسلام، فما دام حق التعبير وحق إبداء وجهات النظر قائماً فإن المعارضة السلمية أو السياسية هي الموقف العملي الذي ينبغي اتخاذه للمحافظة على الوجود الإسلامي والمحافظة على حياة العاملين للإسلام.

وفي جميع الأحوال والظروف ينبغي مراعاة المصلحة في اختيار نوع أو لون الجهاد، ومراعات النتائج الإيجابية من اتخاذ الموقف المعارض، فقد يكون الجهاد المسلح مؤدياً إلى نتائج سلبية على أساس وجود الإسلام ووجود العاملين، فالموقف هو التخلي عنه؛ لأنه لا يؤدي إلى نتائج إيجابية ولا ينسجم مع المصلحة الإسلامية العليا، فالإمام الشهيد يتبنى الجهاد السلمي أو السياسي، وهو الأصل الثابت، ويبقى الجهاد العسكري أو المسلح هو الاستثناء الذي ينبغي إرجاعه إلى الأصل حين يحقق نتائجه الإيجابية.

والظاهر من رأي الإمام الشهيد هو تجنب العنف قدر المستطاع ما دام لا يحقق نتائج إيجابية على مستوى الفكر والوجود الإسلامي ومستوى العاملين للإسلام.

ثالثاً: «الدولة الإسلامية، وهي الدولة التي تقوم على أساس الإسلام وتستمد منه تشريعاتها، بمعنى أنها تعتمد الإسلام مصدرها التشريعي، وتعتمد المفاهيم الإسلامية منظارها الذي تنظر به إلى الكون والحياة والمجتمع. وهي على أنحاء ثلاثة:

النحو الأول: أن تكون جميع التشريعات التي تقوم بها الدولة مستمدة من

القاعدة الفكرية بحيث إنَّ سير الدولة التشريعي والتنفيذي يكون منسجماً ومتفقاً مع متطلبات الإسلام وأحكامه وبصورة مضمونة دون أيّ قصور أو تقصير، وهذا إنَّما يتأتَّى فيما إذا كانت السلطة الحاكمة معصومة من الخطأ والهوى كالسلطة الحاكمة أيام النبي ' وأمير المؤمنين عليه السلام.

وحكم الإسلام بحقَّ الدولة من هذا النوع أنَّه يجب إطاعتها ولا يجوز التخلف عن أوامرها وقراراتها التي تصدرها بصفقتها سلطة حاكمة بحالٍ من الأحوال^(١).

وهذا النوع من الدولة لا وجود له في مرحلتنا الراهنة، وحكم الإسلام في مثل هذه الدولة هو وجوب الطاعة والاستسلام المطلق للأوامر والنواهي، وعلى ضوء ذلك فتكون معارضتها غير مشروعة، نعم تجوز المعارضة لبعض الولاة أو المسؤولين المقصّرين معارضة سلمية تستند إلى مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

النحو الثاني: «أن تكون التشريعات والتنفيذات متعارضة مع الإسلام تعارضاً ناشئاً من عدم اطلاع السلطة الحاكمة على حقيقة الحكم الشرعي أو طبيعة الموقف، وحكم الإسلام بحقَّ الدولة من هذا النوع.

١. أنَّه يجب على العارف من المسلمين أن يشرح للدولة ما تجهله من أحكام الإسلام أداء لوجوب تعليم أحكام الإسلام لمن يجهلها خاصة السلطة الحاكمة.

٢. كما يجب على المسلمين إطاعة هذه السلطة في كُـلِّ الحقوق والمجالات التي تشملها صلاحياتها الشرعية.

٣. وإذا أصرت السلطة الحاكمة على وجهة نظرها الخاطئة عن حسن نية، ولم يمكن لمن يختلف معها في وجهة نظرها أن يثبت لها رأيه، فإنَّ كانت القضية من القضايا التي يجب توحيد الرأي كالجهاد والضرائب وأمثالها، وجب على المخالف إطاعة أمر الدولة وإنَّ كان معتقداً خطأها. وإنَّ لم تكن القضية مما يجب

فيه توحيد الرأي كان للمخالف أن يطبق في مجاله الخاص اجتهاده المخالف لاجتهاد الدولة»^(١).

فالإمام الشهيد يرى طاعة مثل هذه الدولة في المجالات المتعلقة بمصلحة الإسلام ومصلحة المسلمين العليا، فلا يجوز التخلف عن طاعة الأوامر والنواهي ما دامت منسجمة مع الموازين والمعايير والقيم الإسلامية. ومعارضة مثل هذه الدولة تستند إلى مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي معارضة تصحيحية نقدية لإرشاد مسؤوليها إلى الرأي الأصوب والموقف الأصوب، وإعادتهم إلى الثوابت الإسلامية. ويتم ذلك عن طريق قنوات الاتصال المتنوعة، أو عن طريق الإعلام المقروء أو المسموع، ويجذب أن يستثمر منبر صلاة الجمعة لهذه المهمة.

ويمكن التعبير عن المعارضة بالموقف الصامت، وهو اتخاذ الموقف المناسب للثوابت في الأمور التفصيلية أو الجزئية المخالفة القاصرة أو المقصرة إذا لم تكن من الأمور التي ينبغي وحدة الصف تجاهها.

فالموقف المعارض هو موقفٌ إصلاحيٌّ ترميميٌّ لا يترقى إلى هدم الحكومة أو تبديلها بغيرها، وخصوصاً إذا كانت الحكومة مراعية للثوابت الإسلامية ومراعية لحق الأمة في التعبير عن الرأي والنقد البناء، فيمكن من خلال صناديق الاقتراع تبديل الجهاز الحاكم، وهو أفضل وسيلة سلمية لتجسيد المعارضة في الواقع.

النحو الثالث: «أن تشذ الحكومة في تصرفاتها التشريعية أو التنفيذية، فتخالف القاعدة الإسلامية الأساسية عن عمدٍ مستندة في ذلك إلى هوى خاص أو رأي مرتجل، وحكم الإسلام في هذه الدولة:

١. أنه يجب على المسلمين عزل السلطة الحاكمة واستبدالها بغيرها؛ لأنّ العدالة من شروط الحكم في الإسلام، وهي تزول بانحراف الحاكم المقصود عن

الإسلام، فتصبح سلطة غير شرعية، ويشترط في ذلك أن يتوصّل المسلمون إلى عزل السلطة الحاكمة بغير الحرب الداخلية.

٢. وإذا لم يتمكن المسلمون من عزل الجهاز الحاكم وجب عليهم رده عن المعصية طبقاً لأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشريعة المقدسة.

٣. إذا استمرت السلطة المنحرفة في الحكم فإن سلطتها تكون غير شرعية ولا يجب على المسلمين إطاعة أوامرها وقراراتها فيما يجب فيه إطاعة ولي الأمر إلا في الحدود التي تتوقف عليها مصلحة الإسلام العليا، كما إذا داهم الدولة خطر مهدد وغزو كافر؛ فيجب في هذه الحالة أن يقف المسلمون إلى صفّها بالرغم من انحرافها وتنفيذ أوامرها بتخليص الإسلام والأمة من الغزو والخطر^(١).

فالإمام الشهيد يرى أنّ الدولة التي تستند على الإسلام كقاعدة فكرية أو تبني الدستور الإسلامي تعتبر دولة إسلامية، غاية الأمر يكون الجهاز الحكومي المتمثل بالحاكم الأعلى ومؤسساته التنفيذية مخالف لهذه القاعدة الفكرية في السيرة العملية، فالحكم فيها هو وجوب العمل لتبديل هذه السلطة وتبديل الحاكم؛ لأنّه غير مستوفي للشروط اللازمة التي يجب اتصاف الحاكم بها، ووجوب العزل مشروط بعدم إراقة الدماء في حرب داخلية بين العاملين للإسلام وبين السلطة القائمة التي تمتلك مصادر القوة الإعلامية والعسكرية والمالية.

فواجب العاملين ردع الحاكم وأجهزته عن المواقف المنحرفة بشتى الوسائل المتاحة، وطبقاً لدرجة انحرافه عن القاعدة الفكرية التي يتبنّاها على المستوى النظري، ولا يجب طاعة القرارات الصادرة من الحاكم إلا بحدود المصلحة الإسلامية العليا، كالدفاع عن الدولة في حال تعرضها للغزو.

وعدم الطاعة قاعدة إسلامية ثابتة، وخصوصاً في الأمور غير المشروعة أو

في الأمور التي يخالف فيها الحاكم والسلطة الحاكمة الثوابت الإسلامية، كما ورد عن رسول الله ' أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف»^(١).

وقال أيضاً: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٢).

وقال أيضاً: «من أَرْضَى سلطاناً بما أسخط الله تعالى خرج من دين الإسلام»^(٣).

والرأي الذي تبناه الإمام الشهيد قد تسالم عليه الكثير من فقهاء السنة. قال الزمخشري: «والمراد بأولي الأمر منكم أمراء الحق؛ لأنَّ أمراء الجور لا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنَّما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهم في إثارة العدل واختيار الحق»^(٤). وقال البروسوي: «إنَّما أمراء الجور بمعزل من استحقاق العطف على الله والرسول في وجوب الطاعة»^(٥).

وقال بدر الدين العيني: «وجوب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والأخبار الواردة بالسمع والطاعة للأمة ما لم يكن خلافاً لأمر الله تعالى ورسوله، فإذا كان خلاف ذلك فغير جائز لأحد أن يطيع أحداً في معصية الله ومعصية رسوله، ونحن ذلك قالت عامة السلف»^(٦).

وأكد النووي على ذلك قائلاً: «تجب طاعة الإمام في أمره ونهيه ما لم يخالف حكم الشرع»^(٧).

وذهب جمع من فقهاء السنة إلى جواز تبديل الحاكم بالقوة العسكرية أو حمل السلاح لردعه عن الانحراف.

قال ابن حزم الظاهري: «... فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق، ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع»^(٨).

وذهب الجرجاني إلى جواز خلعه بالقوة والخروج بالسيف فقال: «وللأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجبه، مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين... وإن أدى خلعه إلى الفتنة احتمال أدنى المضرتين»^(١).

وذهب الجويني إلى ذلك كما حكى عنه التفتازاني: «وإذا أجاز والي الوقت فظهر ظلمه وغشمه ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعه بالقول، فلاهل الحل والعقد التواطؤ على رده ولو بشهر السلاح ونصب الحروب»^(٢).

وخلاصة القول: إن المعارضة للحاكم المنحرف - سواء كان يتبنى الإسلام قاعدة فكرية للدولة أو لا يتبناه - هي أمر مشروع، بل هي واجب شرعي لإصلاح الواقع المنحرف أو تبديله بشتى الوسائل، ابتداء بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وانتهاء باستخدام القوة العسكرية المشروطة بمراعاة المصلحة الإسلامية العليا؛ مصلحة الإسلام كقاعدة فكرية ومصلحة الوجود والكيان الإسلامي ومصلحة المواطنين وخصوصاً العاملين للإسلام.

والإمام الشهيد يتبنى المعارضة السلمية أو المعارضة المسلحة بشرط تحقيق النتائج الإيجابية في شتى الجوانب والمجالات بعد مراعاة الربح والخسارة في كل موقف يتخذه العاملون.

على ضوء متبنيات الإمام الشهيد تعتبر حكومة صدام حسين حكومة غير إسلامية؛ لأنها لا تستند إلى الإسلام كقاعدة فكرية، بل تستند إلى الأهواء والرغبات المزاجية لرأس النظام، وما تمليه عليه تصورات الضيقة من مفاهيم وأفكار وقرارات ومواقف، فقد خالف القاعدة الإسلامية في مبنياته الفكرية وممارساته العملية، وتفرد بالسلطة وأصبح الحاكم المطلق الذي لا يستمع إلى

رأي أو نصيحة، وتبنى الإرهاب كوسيلة لقمع مخالفه، فصادر الحريات العامة ولم يسمح بأيّة ثقافة غير ثقافة الحزب الواحد أو ثقافة الحاكم الواحد.

وفي مثل هذه الظروف لم يلتجئ الإمام الشهيد إلى المعارضة العلنية بتبني الجهاد أو المعارضة المسلحة إلا بعد أن عجزت المعارضة السلمية أو السياسية من تحقيق أهدافها، فقد بيّن في أحد خطاباته حقيقة النظام الذي صادر أبسط حقوق المواطنين، وطالب باسم الشعب بإصلاح الواقع القائم.

فقال: «... أسقطوا الأذان من الإذاعة فصرنا، أسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصرنا، وطوقوا شعائر الإمام الحسين (عليه السلام)، ومنعوا القسم الأعظم منها فصرنا. وحاصروا المساجد وملؤوها أمناءً وغيوناً فصرنا، وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصرنا. إني أطلب باسمكم جميعاً، أطلب بإطلاق حرية الشعائر الدينية وشعائر الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، وأطلب باسمكم جميعاً بإعادة الأذان وصلاة الجمعة والشعائر الإسلامية إلى الإذاعة. وأطلب باسمكم جميعاً بإيقاف حملات الإكراه على الانتماء إلى حزب البعث على كل المستويات. وأطلب باسم كرامة الإنسان بالإفراج عن المعتقلين بصورة تعسفية، وإيقاف الاعتقال الكيفي الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء، وأخيراً أطلب باسمكم جميعاً باسم القيم التي تمثلونها بفسح المجال للشعب ليأرس بصورة حقيقية حقّه في تسير شؤون البلاد؛ وذلك عن طريق إجراء انتخاب حرّ يثبت عنه مجلس يمثل الأمة تمثيلاً صادقاً» (١).

فقد طالب بأبسط الحقوق التي ينبغي أن يتمتع بها الشعب بما ينسجم مع متبنياته الفكرية، وهي بدورها لا تشكل خطراً على أساس النظام القائم، بل تكون مقدمة لإصلاحه وتعميق الثقة المتبادلة بينه وبين مواطنيه، فيشعرون بأنّ النظام حريص على مراعاة حقوقهم، ويسعى إلى تحقيقها بصورة واضحة المعالم، فلا يبقى مجال للتقاطع والتدابير، وتتجدد قوّة النظام، إلا أنّ النظام لم يدرك هذه

الحقيقة فتجادى في ممارساته التعسفية، ولم يراع أبسط حقوق المواطنة. وحينما واجه النظام هذه المطالب بحملة إرهابية قمعية بقي الإمام الشهيد يتجنب المعارضة أو المواجهة المسلحة؛ للحيلولة دون إراقة الدماء، وقد بقي على موقفه هذا في جميع مراحل المواجهة السلمية أو السياسية مع النظام، وكان حريصاً على عدم زج جميع الطاقات في المعارضة أو المواجهة المسلحة.

كان الإمام الشهيد دقيقاً في تناول كُل موقف وكُل حركة، وكان ذا بعدٍ واسعٍ في التحليل العميق لمجريات الأحداث من حيث الأسباب والنتائج والعوامل المتعددة الفاعلة في الموقف والمسيرة للأحداث، فهدفه الحقيقي إصلاح الواقع بتغيير ذهنية الأمة إلى ذهنية إسلامية، وسلوكها إلى سلوك إسلامي. وما السلطة إلا وسيلة لإتمام هذا الإصلاح أو عرقلة حركته، وقد كانت السلطة القائمة على رأس العقبات والعراقيل للحيلولة دون تحقيق الهدف في معالم منظورة ملموسة. وبما أنَّ السلطة كانت مهيمنة على مقدرات الشعب، ولا تتردد بقمع أي صوت يجهر بالإصلاح، فقد اتخذ الإمام الشهيد أسلوب الموازنة بين المواجهة بكلتا نوعيها: السلمية والمسلحة بحدود ضيقة لم يزج فيها جميع الطاقات.

وقد أدرك خطورة المواجهة العلنية وإن كانت سلمية: وبعد تسعة أيام متتالية من وصول الوفود^(١) إلى النجف الأشرف أمر السيد الصدر بعد التشاور بإيقافها؛ لأنَّ الآلاف التي شاركت في الوفود من مختلف مناطق العراق ومدنه استطاعت التعبير عن موقف الشعب والتفافه حول المرجعية الدينية ورفضه للسلطة الجائرة.

كما كان هناك حرص على عدم كشف كافة الأوساط الموالية والمؤيدة؛ إذ أنَّ

السلطة كانت تراقب الوفود بدقة، وتقتفي آثارها تمهيداً لحملة شرسة شنتها...^(١).

وفي مقابل إيقاف المسيرات السلمية كان الإمام الشهيد يتبنى المواجهة المسلحة المحدودة، والتي تركز على اختيار مجاميع خاصة مهمتها اغتيال رئيس النظام، وقد نقل الشيخ محمد رضا النعماني هذه الحقيقة حيث يقول: «قام رضوان الله عليه بتشكيل خلايا فدائية ترتبط به بصورة غير مباشرة مهمتها اغتيال الطاغية المجرم صدام التكريتي، وكان المباشر لهذا العمل المرحوم الشيخ عبد الأمير محسن الساعدي، والمرحوم الشيخ جليل مال الله، والمرحوم الشيخ قاسم ضيف، وبعض الأخوة الأعزاء، وهؤلاء يقومون باختيار الشباب المضحين الانتحاريين وتوزيعهم على المناطق التي يتردد عليها الطاغية، متربصين به الفرصة المناسبة على أساس خطة موضوعة. وتمكن في الفترة الأخيرة من حياته من إرسال أحد الأطباء لينظم إلى الكادر الطبي الخاص برئاسة الجمهورية لينفذ المهمة السابقة»^(٢).

وبقي الإمام الشهيد على موقفه المتوازن، فلم يعمل على زج الطاقات الفاعلة في مواجهة مكشوفة مع أجهزة النظام وأتباعه على المستويين، بل سعى إلى تضيق الدائرة، وخصوصاً في مجال المواجهة المسلحة، وجعلها في ميدان محدود للحيلولة دون إراقة دماء العاملين الناشطين؛ ولذا أصرّ على اختيار أسلوب الخلايا وأساليب التنظيم السري كما ورد في تصريحات المقربين إليه.

وكان تأكيد الشهيد الصدر على العمل المسلح ينبع من اعتقاده الجازم باستحالة العمل السلمي، ولم يكن منبثقاً عن رؤية متشددة تلتزم العنف كأسلوب من أساليب استلام السلطة، وقد نقل عنه بعض مريديه أنه كان يرى فشل الأساليب المكشوفة من قبيل التظاهرات والمسيرات؛ للطابع الدموي للسلطة؛ ولذلك أصرّ على اختيار أسلوب الخلايا وأساليب التنظيم السري^(٣).

وكان الإمام الشهيد يدرك خطورة النظام على الوجود الإسلامي الذي يستدعي عدم السكوت وكان يقول: «إذا سكتنا فسوف تقضي السلطة على الوجود الإسلامي في العراق»^(١).

وكان يدرك أنَّ ظروف النظام وظروف الشعب العراقي لم تكن مهيئة لتحرك جماهيري واسع؛ لأنَّ الشعب غير مستعد لمواجهة تحسم الموقف لصالحه؛ لضعف الإمكانيات وقلة العاملين، وانفراد الإمام الشهيد بتبني العمل السياسي من بين المراجع، وعدم وجود مؤازرة حقيقية له؛ ولهذا قرّر بنفسه الاستمرار في المواجهة؛ لأنَّ طبيعة النظام الدموي لا تسمح له بالبقاء حياً إلى مرحلة أخرى، فكان يعلم بالمصير الذي يواجهه ويواجه العاملين، ولهذا قرّر المواجهة حتى الشهادة، وهو تقييم واقعي للظروف والأحداث، وتقييم واقعي للمصلحة العليا في تلك الظروف.

ويبدو «أنَّ تحرُّش الشهيد الصدر بالسلطة لم يكن وقع صدى الروح الاستشهادية الممتدة والمتجذرة في النفوس، وإنَّ كان ذلك حاضراً إلى حدٍّ ما إلاَّ أنَّه يرجع إلى حساب مفاده أنَّ السلطة لا بدَّ ستبتطش بالإسلاميين، وهو على رأسهم، فلماذا لا يكون القرار والمبادرة بمبادرتهم فتحفظ الكرامة - على أقلَّ تقدير - في الوجدان الشعبي؟! كما أنَّه بدأ يفكر على مدى المستقبل ومدى إمكانية بناء حصانة ذاتية للشعب العراقي تجاه الطغيان».

وبالفعل كان لشهادته الدور الأكبر في فضح النظام الذي يتمشّد بالحرية، وتحريك الضمائر الحية التي تجلّت في توسع دائرة المعارضة والمواجهة للنظام وإضعافه من الداخل مما سهل سقوطه.

وشاء الله تعالى أن يكون سقوطه في اليوم الذي استشهد فيه الإمام الشهيد؛ ليكون ثمرة من ثمار دمائه الزكية.

الهوامش:

- (١) الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة: ٢٣، دار الكتاب الإسلامي، قم، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
- (٢) المصدر نفسه: ١٩.
- (٣) المصدر نفسه: ٢٢.
- (٤) المصدر نفسه: ١٤٩.
- (٥) الماوردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانية: ٦، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ١٤٠٦هـ.
- (٦) النّوّي، أبو زكريا، روضة الطالبين ٧: ٢٦٢، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- (٧) القلقشندي، مآثر الأناقة في معالم الخلافة ١: ٢٦، نشر: عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- (٨) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ١: ٢١٦، كتاب العلم، باب: ٦، حديث: ٣٢، الطّبعة الثالثة ١٤٠٣، دار إحياء الثّراث، بيروت.
- (٩) شيخ الطائفة الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ٢٢٥، المجلس الثامن، نشر: دار الثقافة، قم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- (١٠) بحار الأنوار ١: ١٦٦، مرجع سابق.
- (١١) ابن أبي الحديد المعتزلي الشّافعي، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٠٤، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مصوّرة عن الطّبعة الثّانية ١٣٨٥ لدار إحياء الكتب العربيّة، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النّجفي ١٤٠٤.
- (١٢) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرّسول: ٢٣٨، تصحيح وتعليق على أكبر الغفّاري، الطّبعة الثّالثة ١٤٠٤، مؤسسة النّشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين، قم.
- (١٣) الإسلام يقود الحياة: ١٢٨، مرجع سابق.
- (١٤) المصدر نفسه.
- (١٥) المصدر نفسه: ١٢٩.
- (١٦) المصدر نفسه: ١٤٢.

- (١٧) الإسلام يقود الحياة: ١٤٩.
- (١٨) الإسلام يقود الحياة: ١٥٠.
- (١٩) ثقافة الدعوة الإسلامية ١: ١٣٤ منشورات الدعوة الإسلامية، ١٤٠١ هـ.
- (٢٠) ثقافة الدعوة الإسلامية ١: ١٣٤، ١٣٥.
- (٢١) ثقافة الدعوة الإسلامية ١: ١٣٦.
- (٢٢) ثقافة الدعوة الإسلامية ١: ١٣٦، ١٣٧.
- (٢٣) ثقافة الدعوة الإسلامية ١: ١٣٧.
- (٢٤) صحيح البخاري ٩: ٧٨، محمد إسماعيل البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣١٣ هـ.
- (٢٥) مسند أحمد بن حنبل ١: ١٣١، أحمد بن محمد بن حنبل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٤ هـ.
- (٢٦) مستدرك الوسائل ٢: ٣٦٤، حسين النوري الطبرسي، طهران، ١٣٨٢ هـ.
- (٢٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ١٧٥، ابن حزم الظاهري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
- (٢٨) الكشف ١: ٢٨٨، محمد بن عمر الزمخشري، نشر البلاغة، قم، ١٤١٥ هـ.
- (٢٩) روح البيان ٢: ٢٨٨، إسماعيل حقي الروسوي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٥ م.
- (٣٠) عمدة القاري ٢٤: ٤٤، بدر الدين العيني، دار الفكر بيروت، ١٣٩٩ هـ.
- (٣١) روضة الطالبين ٧: ٢٦٧، أبو زكريا النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- (٣٢) شرح المواقف ٨: ٢٥٣.
- (٣٣) شرح المقاصد: ٢٣٣، ٢٣٤، سعد الدين التفتازاني، منشورات الرضي، قم، ١٤٠٩ هـ.
- (٣٤) سنوات المحنة وأيام الحصار: ٢٧٤، محمد رضا النعماني، المطبعة العلمية، قم، ١٤١٧ هـ.
- (٣٥) الوفود التي جاءت لمبايعته على الطاعة.
- (٣٦) حزب الدعوة الإسلامية ٤: ٢٤٠، حسن شبر، مطبعة شريعت، قم / ١٤٢٧ هـ.
- (٣٧) محمد باقر الصدر: ٢١٤، محمد الحسيني، مطبعة شريعت، قم، ١٤٢٨ هـ.
- (٣٨) سنوات المحنة وأيام الحصار: ٢٦٣.
- (٣٩) سنوات المحنة وأيام الحصار: ٢٦٣.

الخاتمة عند الممات بين الفوز والخسران نظرة في المنجيات والمهلكات

□ الشيخ يوسف موسى رضا (*)

الأعمال في ميزان الناس فوزاً وخسراناً هي ما يبدو فيها من حسن وقبح وخير وشرّ وصلاح وفساد، فتبعاً للوصف الذي يحمله صاحبه ظاهراً يحكمون عليه.

ولكن في ميزان الله: الأعمال في خواتيمها، فهناك حيث يودّع الإنسان الحياة يكون الفوز أو الخسران، والجنة أو النار، فما قيمة من أفنى عمره في غرس بستانه بالأشجار والثمار والورود، حتى إذا آن الحصاد اقتدحت شرارة في صيف لاهب فأشعلت البستان ناراً حتى صار رميماً كأن لم يغن بالأمس.

ورد في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر × قال: «قال رسول الله ﷺ: من قال: سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في

(*) باحث إسلامي/ لبنان.

الجنة، ومن قال: الحمد لله، غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة، ومن قال: الله أكبر، غرس الله له بها شجرة في الجنة، فقال رجل من قريش: يا رسول الله، إن شجرنا في الجنة لكثير، فقال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أن الله عز وجل يقول: {يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد: ٣٣] ^(١).

والأخبار التي تحدتت عن أن المعيار في الأعمال هي في خواتيمها كثيرة جداً في كتب الفريقين، نذكر بعضاً منها فيما يلي:

عن أمالي الصدوق: بإسناده عن داود بن سليمان، عن الرضا ×، عن آبائه ^، قال: «قال أمير المؤمنين ×: الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم، والعلم كله حجة إلا ما عمل به، والعمل كله رياء إلا ما كان مخلصاً، والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختتم له» ^(١).

وعن أمالي الصدوق أيضاً: عن غياث بن إبراهيم، عن الصادق، عن آبائه ^ قال: «قال رسول الله ﷺ: من أحسن فيما بقي من عمره لم يؤخذ بما مضى من ذنبه، ومن أساء فيما بقي من عمره أخذ بالأول والآخر» ^(١).

أقول: المحسن فيما بقي هو التارك المنتهي عن مساوئ ما مضى، وهذه التوبة. قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: ٣٨].

وعن أمالي الصدوق: عن الصادق × قال: «قال رسول الله ﷺ: خير الأمور خيرها عاقبة» ^(١).

وروي عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: إن رجلاً من أعظم المسلمين غناءً عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى الرجل من أهل النار فليُنظر إلى هذا، فاتبعه رجل من القوم

وهو على تلك الحال من أشدّ الناس على المشركين حتى جرح، فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثديه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبيّ ' مسرعاً، فقال: أشهد أنّك رسول الله، فقال: وما ذاك؟ قال: قلت لفلان: من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فليُنظر إليه، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين، فعرفت أنّه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت، فقتل نفسه، فقال النبيّ ' عند ذلك: إنّ العبد ليعمل عمل أهل النار وإنّه من أهل الجنّة، ويعمل عمل أهل الجنّة وإنّه من أهل النار، وإنّها الأعمال بالخواتيم^(١).

وحدّث أحمد بن سهل الأزديّ العابد، قال: سمعت أبا فروة الأنصاريّ - وكان من السائحين - يقول: قال عيسى ابن مريم: يا معشر الخواريين بحقّ أقول لكم: إنّ الناس يقولون: إنّ البناء بأساسه، وأنا لا أقول لكم كذلك، قالوا: فماذا تقول يا روح الله؟ قال: بحقّ أقول لكم: إنّ آخر حجر يضعه العامل هو الأساس. قال أبو فروة: إنّما أراد خاتمة الأمر^(٢).

قال تعالى: {يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢].

وبما أنّ المعيار في الأعمال هو في خواتيمها كما تقدّم في الأخبار المذكورة آنفاً، فالهواجس من سوء العاقبة شديدة جدّاً لم يُستثنَ منها أحد، حتى الأنبياء بما فيهم نبينا الأعظم محمّد ' الذي أمنت هواجسه بعد الآية الكريمة: {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير: ٢٠].

روي أنه ' قال لجبرئيل لما نزل عليه بقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: ١٠٧]، هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى سوء العاقبة، فأمنت إن شاء الله بقوله تعالى: { ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ } [مطاع ثم أمين] [التكوير: ٢٩-٣١] ^(١).

وقال تعالى حكاية عن لسان نبي الله يوسف ×: { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } فَأُطِرَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [يوسف: ١٠١].

وأما المؤمنون الذين جدّوا في هذا الدنيا بالأعمال الصالحات والأفعال الخيرات، يبقى يروا دهم بالرغم من كلّ ذلك الخوف من سوء العاقبة حتى عند سكرات الموت، قال رسول الله ' : لا يزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة لا يتيقن الوصول إلى رضوان الله حتى يكون وقت نزوح روحه وظهور ملك الموت له، وذلك أنّ ملك الموت يرد على المؤمن وهو في شدة علته، وعظيم ضيق صدره، لما يخلّفه من أمواله، ولما هو عليه من اضطراب أحواله في معامليه وعياله، وقد بقيت في نفسه حسراتها، فانقطع دون أمانيه فلم ينلها. فيقول له ملك الموت: مالك تجرع غصصك؟ فيقول: لا اضطراب أحوالي واقتطاعك لي دون آمالي. فيقول له ملك الموت: وهل يحزن عاقل من فقد درهم زائف واعتياض ألف ألف ضعف الدنيا؟ فيقول: لا. فيقول ملك الموت: انظر فوقك. فينظر فيرى درجات الجنان وقصورها التي تقصر دونها الأماني. فيقول ملك الموت: تلك منازلك ونعمك وأموالك وأهلك وعيالك ومن كان من أهلك

هنا وذريّتك صالحاً فهم هناك معك، أترضى بهم بدلاً عما هنالك؟ فيقول: بلى والله. ثم يقول: انظر، فينظر محمّداً وعليّاً والطيبين من آلها في أعلى عليّين. فيقول: أو تراهم هؤلاء ساداتك وأئمّتك هم هناك جلساؤك وأناسك أفما ترضى بهم بدلاً عما تفارق هاهنا؟ فيقول: بلى وربّي، فذلك ما قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [فصلت: ٣٠]، فأما ما أمامكم من الأهوال فقد كفيتها، {وَلَا تَحْزَنُوا} على ما تخلفونه من الذراري والعيال، فهذا الذي شاهدتموه في الجنان بدلاً منه {وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}، هذه منازلكم وهؤلاء ساداتكم وأناسكم وجلساؤكم^(١).

وانطلاقاً من هذه الهواجس من سوء العاقبة تتركز الأدعية بشكل أساسي على طلب التوفيق لحسن العاقبة آناء الليل وأطراف النهار وفي قنوات الصلوات وتعقيباتها.

نقل الشيخ محسن قرائي قائلاً: كنت أدعو الله تعالى عند ضريح الإمام الرضا × فورد على ذهني فكرة فقمّت لتنفيذها حالاً، حيث وزّعت نظرة حولي فإذا ببعض الأفاضل في حال العبادة، فقمّت إلى الأوّل وقلت له: إذا أخبرك أحد بأنّ الله يستجيب منك طلباً واحداً فماذا تطلب؟ قال العالم: أطلب حسن العاقبة، ثمّ قمت إلى عالم آخر وطرحت عليه السؤال نفسه فأجابني نفس الجواب الذي قال به الأوّل، ثمّ قمت إلى عالم ثالث وطرحت عليه السؤال، فأجاب بما أجاب به الأوّلان من دون أن يعلم بما أجاب به صاحبه^(٢).

وكان المرحوم الشيخ مهدي النراقي يتلو في سجود الركعة الأخيرة من

صلاته: اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً، فقليل له: إنَّك في السبعين من عمرك ومَن تُعرف بالإيمان والتقوى، لست بحاجة إلى هذا الدعاء؛ لأنَّ عاقبتك ستكون حسنة، فقال + : إنني أخشى أن أكون مَن نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثاً^(١).

ولما تُمثِّل خاتمة الإنسان في حياته من رسم للمصير الأبدي للإنسان تبعاً لمكانه في العالم الآخر حيث الموازين والمحكمة الإلهية، نجد القرآن الكريم في كثير من آياته يحثُّ على النظر في عاقبة الأمم السابقة والأقوام الخالية إمعاناً منه في الاتعاظ من أحوالهم وما كانت عليه مصائرهم في التكذيب والإفساد والإجرام والظلم كي يقارب الناظر بعمله الحسن الذي عملوه ويجانب السوء الذي اقترفوه.

قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ مِّنْ اَهْلِ الْقُرَىۤ اَفَلَمْ يَسِيرُوْا فِي الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْۚ وَلَدَارُ الْاٰخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا اَفْلا تَعْقِلُوْنَ } [يوسف: ١٠٩]. وقال تعالى: { اَوَلَمْ يَسِيرُوْا فِي الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْۚ كَانُوْا اَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَّاَنَارُوا الْاَرْضَ وَعَمَرُوْهَا اَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوْهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰتِۖ فَمَا كَانُ اللّٰهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوْا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ } [الروم: ٩].

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة المكذَّبين، قال تعالى: { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌۭ فَيَسِيرُوْا فِي الْاَرْضِ فَانظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِيْنَ } [آل عمران: ١٣٧]، وقال

تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: { فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } [الزخرف: ٢٥].

:

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة المجرمين قال تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [النمل: ٦٩]. وقال تعالى حكاية عن إهلاكه لقوم لوط: { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [الأعراف: ٨٤].

:

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة المفسدين، قال تعالى حكايةً عن فساد فرعون: { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [الأعراف: ١٠٣]، وقال تعالى مخاطباً قوم شعيب للاعتبار من الأمم السالفة: { وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ ۖ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ۖ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [الأعراف: ٨٦]، وقال تعالى حكاية عن نكران آل فرعون الآيات التسع التي جاءهم بها نبي الله موسى: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [النمل: ١٤].

:

وعن الدعوة إلى النظر في عاقبة الظالمين، قال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٣٩]، وقال تعالى حكايةً عن هلاك فرعون: {فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٤٠].

لم يكتفِ الإسلام بالدعوة إلى النظر في عاقبة الأمم السابقة من أجل الاتعاظ من مصائرهم بل بيّن على المستوى العملي ما ينفع في الخاتمة الحسنة عند الموت، وما يضرّ بها من الأعمال والأفعال، ونظراً لأهميّة التعرّف على ما يوجب الفوز أو الخسران في الخاتمة نعرض لكلّ منهما فيما يلي:

موجبات الخسران عند الخاتمة:

عندما نتأمّل في النصوص الدينيّة نجد الكثير من السلوكيّات والموبقات، ليس فقط أنّها تزيد بوزرها في ميزان الأعمال الثقال من السيّئات، بل بالإضافة إلى ذلك، تلقي بظلالها التبعة حتى على خاتمة فاعلها في الحياة؛ لما لها من دور كبير في إيجاب الخسران عند الخاتمة.

والذنوب بشكل عامّ توجب سوء الخاتمة؛ لما لها من أثر في قسوة القلب، كما في الخبر عن الكافي بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر الباقر × قال: ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، فإذا غطّي البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله عزّ وجل: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤].^(١)

ولكن هناك من الذنوب والآثام الخاصّة ما توجب سوء الخاتمة بشكل تتلاشى معها الآمال في النجاة.

وحتى لا يتوهّم القارئ الكريم نلفت النظر إلى أنّ مرادنا من إيجاب الخسران ليس الاصطلاح الفلسفيّ الذي يعني عدم تخلّف المعلول عن العلّة، بل مرادنا من ذلك: أنّ الغالب في هذه الآفات السلوكيّة التي سوف نعرضها وغيرها تختتم على صاحبها الخسران وتنزله العواقب السيّئة، خصوصاً إذا أهمل علاجها والعمل على إصلاحها. ونبيّن الأبرز من هذه الموجبات فيما يلي:

الموجب الأوّل: آفة الحسد:

عن رسول الله ^(١): 'الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب'. والمراد من الحسد: تمنّي زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم ممّا له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها عنه، ولكن تريد لنفسك مثلها، فهو غبطة ^(٢). وآفة الحسد من أشدّها فتكاً في دين الناس وإيمانهم، كما أنّها من أشدّها إيجاباً لسوء العاقبة والخسران عند الخاتمة، فكثير من الناس قضى عمره بالإيمان والتقوى، حتى إذا ابتلي بالحسد أحرق كلّ حسناته، ورمى به إلى النيران، والشواهد على ذلك كثيرة ليس أوّلها مصير قابيل ابن نبيّ الله آدم، الذي في نهاية المطاف دفعه الحسد إلى أن يختم حياته بقتل أخيه هابيل، كما حكى ذلك الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم ^(٣)، بل ختم الحسد بالخسران على حياة الكثيرين من البشر بعد قابيل وإلى يومنا هذا، ونظراً إلى البناء على الاختصار في هذه الصفحات، سوف أكتفي بشاهد واحد من وحي تاريخ الغيبة الصغرى في أواسط القرن الثالث الهجريّ، يعبرّ لنا كيف أنّ آفة الحسد لم ينجُ من جرّها إلى الوبال ^(٤) حتى كبار القوم ومن هم في الأمّة من الأعلام.

عبرة في عاقبة السلمغانيّ:

محمد بن علي بن أبي عزافر الشلمغاني المعروف، الذي كان من أعلام الشيعة وألف كتباً في التشيع، ولكنه لمنافسة جرت بينه وبين الحسين بن روح النوبختي عليه السلام - النائب الثالث للإمام المهدي عليه السلام - خرج عن طوره، وأخذ يدعي دعاوى غير صحيحة، وحكم الإمام الحجة عليه السلام في توقيع من توقعاته المقدسة بضلالة وانحرافه، وأعلن عن ذلك أيضاً سفيره الحسين بن روح النوبختي.

ويروي بعض العلماء رواية تقول: سأل رجل الحسين بن روح عليه السلام فقال له: ما تقول في كتب محمد بن علي الشلمغاني؟ ومحمد بن علي الشلمغاني لم يكن رجلاً من السوق، أو رجلاً من العاديين، إنما كان عالماً من علماء الطائفة، كان وجهاً من وجوه المذهب، وكان قد صدرت عنه تصريحات ضالة وانحرافات، فوقف منه الإمام × ونوابه موقفاً صارماً، وكان كثير التأليف، كانت كتبه تملأ المكتبات الإسلامية، فكانت مشكلة للشيعة في ذلك الزمن: رجل يملك قدسية كهذه، وعلماً كهذا، وفضيلة كهذه، ينحرف بهذا الشكل، يصعب على كثير من الأذهان أن تتقبل هذه الفكرة، فهذا طلبوا من الحسين بن روح النوبختي أن يسأل الإمام × عن هذا الموضوع. فخرج التوقيع بتحريم قراءة كتبه، وأنها كتب ضلال، حينئذ سألوه: ما نصنع وبيوتنا مليئة من كتبه؟ يعني ما من بيت إلا وفيه كتاب من كتب ابن أبي عزافر. قال: أقول لكم كما قال الإمام العسكري سلام الله عليه في بني فضال - وبنو فضال بيت من البيوت العلمية الشيعية، ولكنهم ابتلوا بأنهم صاروا واقفية من الشيعة المنحرفين -: «خذوا بما رووا وذروا ما رأوا»^(١).

الموجب الثاني: آفة الغرور:

قال تعالى: { يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقُورُ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوُا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا

يَغْرَنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ} [لقمان: ٣٣]، عُرِفَ الغرور بسكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير: إما في العاجل، أو في الآجل، عن شبهة فاسدة فهو مغرور^(١).

والغرور بهذا المعنى يعتبر من الموجبات التي تصل بصاحبها إلى العواقب السيئة؛ لأنه يعمي عن رؤية الحق، بتوهم أنه على حق، فيستمر بسلوكه المنحرف حتى يصير على طول الأيام جزءاً من منظومته الفكرية والعقدية، وهذا أصعب ما يكون؛ لأنه يبعد فرص الهداية له. والأشخاص الذين حرفهم الغرور وختم على حياتهم بالخسران كثيرون جداً في التاريخ، نكتفي بعرض شاهد واحد من القرآن الكريم فيه العبرة والعظة.

عبرة في عاقبة طالوت:

طالوت من حيث النسب هو من سلالة النبيين، فهو من أسباط بنيامين ابن نبي الله يعقوب، وترى في أسرة فقيرة، فقيل: كان دُبَاغاً، وقيل: كان نجاراً، وقيل: كان من رعاة الحمير. وكان عظيم الجسم، جميلاً، حسن المنظر، ومن الشجعان والأبطال. كان متبحراً في بعض العلوم، حسن السياسة. وبهاتين الصفتين: البدنية والروحية، اصطفاه طالوت ملكاً على بني إسرائيل عن طريق نبي الله شموئيل بن هلقانا، فهو لم يكن معروفاً لدى بني إسرائيل، وإنما التقى بالنبي شموئيل صدفةً، وأقام عنده عدة أيام فاستحسن النبي أخلاقه وإيمانه فعينه ملكاً على بني إسرائيل بالرغم من اعتراضهم عليه.

قال الله تعالى حكايةً عن هذا الاصطفاء: { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٤٧]، وفعلاً أثبت طالوت قيادة ناجحة وشن حروباً عدة على

العمالة في فلسطين، وانتصر فيها، خصوصاً في حربه مع جالوت التي هزم فيها شرّ هزيمة، بالرغم من قلة العدد مع طالوت وكثرته مع جالوت، كما أنّ نبيّ الله داود كان في عسكر طالوت، وهو الذي قتل جالوت. وقد حكى الله في كتابه عن هذه الحرب وانتصار طالوت على جالوت في قوله: { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا أَمْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة: ٢٤٩-٢٥١].

والعبرة في المقام: أنّ طالوت بدأت حياته مشرقة وأعطاه الله من نعمه وحكمه على بني إسرائيل ملكاً حتى حكم قرابة الأربعين عاماً، ولكن في نهاية حياته استولى عليه الغرور والكبرياء فانحرف عن جادة الحق حتى بلغ من انحرافه أنّه اخذ يقتل العباد والمؤمنين والكهنة، وانتهى به الانحراف بأن أعلن عداؤه وخصومته لنبيّ الله داود × فأخذ يحيك المؤمرات للقضاء عليه بمحاولة قتله ولكنّه لم يفلح. ولما فسد، غضب الله عليه، وعاقبه عن طريق هزيمته واندحار عساكره في حربه مع الفلسطينيين، ممّا أدّى إلى مقتله ومقتل ثلاثة من أولاده. وقيل: هلك منتحراً، وبعد هلاكه انتقل الحكم والملك إلى نبيّ الله داود × وحمل اليه إكليله وسواره (١).

الموجب الثالث: آفة الطمع بالملك والحكم

آفة الطمع بالملك مرض نفسيّ مزمن يبدأ في القلب نكتة سوداء، ولكن سرعان ما تتوسّع شيئاً فشيئاً حتى تقضي بسوادها على صفحة القلب ومعها يختفي كلّ ومضة نور فيه، وبالتالي: تتلاشى الآمال في عودة أسير الطمع بالملك إلى الحرّية المكلّلة بالهدى، وهذا ما سوف يوجب له الهلاك والخسران عند الممات، وهذا ما نطق به أحد العلماء بقوله:

لكنّ حبّ الملك داء مهلك وكم بهذا الداء قدما هلكوا^(١)

وفي الأخبار، وُصف حبّ الملك بأنّه عقيم؛ لأنّه يعقم صاحبه عن الهدى والرشاد، وبه مُنع أصحاب الحقّ من حقوقهم^(٢)، كما به قتل الأخ أخاه^(٣). وقُلّ من الناس من وقع فيه وقام منه، وكُتِبَ التاريخ - بما فيه التاريخ الإسلاميّ، منذ الصدر الأوّل للإسلام وحتى عصرنا الحاضر - محشوّه بكمّ هائل من الذين سقطت عظمتهم ونزعت هيبتهم وباؤوا بالخسران والوبال لما جنحت نفوسهم إلى الملك وتطلّعت همهم إلى الحكم.

ولا يتفاجأ القارئ الكريم أنّ تاريخنا الإسلاميّ حفظ لنا كيف أنّ حبّ الملك ختم على بعض من هم من كبار الصحابة بالعاقبة الوخيمة والخاتمة الأليمة، بما فيها من ميتة جاهلية بعد أن أنكروا إمام زمانهم، حتى انقلبوا عليه وجردوا سيوفهم لقتاله، وفيما يلي عبرة من الأوّلين ومن هم في عداد السابقين من المهاجرين.

عبرة في مصير طلحة والزبير:

طلحة والزبير كانا من السابقين إلى الإسلام ومن المهاجرين ومن المقاتلين الشجعان بين يدي رسول الله ﷺ في أكثر حروبه ومن الستّة الذين عيّنهم عمر بن الخطّاب في الشورى، ويدّعي العامة أنّهما من العشرة المبشّرين بالجنة. ولكن في لحظة من لحظات الشيطان، وفي زمن إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وبعد أن بايعاه بالخلافة، استولى على قلوبهما حبّ الملك والطمع بالحكم،

ولو في إمارة في العراق كالبصرة أو الكوفة، ثم استحكم هذا الحبّ للملك استحكماً قادهما إلى الخروج على أمير المؤمنين، وتجييش الجيوش ضد خليفة المسلمين وإمام الزمان في البصرة ومعهما عائشة (أم المؤمنين).

وهناك اصطفت الجيوش للحرب، والشيطان من ورائهما يوسوس لهما ليقعد بهما عن الصراط المستقيم، وهو يأتيهما من بين أيديهما ومن خلفهما وعن أيانها وعن شمائلهما، وفي المقابل: هما له منصتان ولوسواسه مذعنان. وفي غمرة هذا الإذعان حاول أمير المؤمنين عليّ × أن يقطع وسواس الشيطان عنهما ويردّهما إلى رشدهما، ولو من باب الإبلاغ في الحجّة.

قال ابن قتيبة: فكلم عليّ طلحة والزبير قبل القتال، فقال لهما: استحلّفا عائشة بحق الله وبحقّ رسوله على أربع خصال أن تصدق فيها: هل تعلم رجلاً من قريش أولى منّي بالله ورسوله، وإسلامي قبل كافّة الناس أجمعين، وكفايتي رسول الله كفّار العرب بسيفي ورمحي، وعلى براءتي من دم عثمان، وعلى أنّي لم أستكره أحداً على أنّي لم أكن أحسن قولاً في عثمان منكما. فأجابه طلحة جواباً غليظاً، ورقّ له الزبير.

ثم رجع عليّ إلى أصحابه فقالوا: يا أمير المؤمنين، بم كلمت الرجلين؟ فقال عليّ: إن شأنهما لمختلف، أمّا الزبير فقاده اللّجاج، ولن يقاتلكم، وأمّا طلحة فسألته عن الحقّ فأجابني بالباطل، ولقيته باليقين، ولقيني بالشكّ، فوالله ما نفعه حقّي، ولا ضرّني باطله، وهو مقتول غداً في الرعيّل الأوّل.

قال: ثم خرج عليّ على بغلة رسول الله ' الشهباء بين الصّفين، وهو حاسر، فقال: أين الزبير؟ فخرج إليه، حتى إذا كانا بين الصّفين اعتنق كلّ واحد منهما صاحبه وبكيا، ثم قال عليّ: يا عبد الله ما جاء بك ها هنا؟

قال: جئت أطلب دم عثمان.

قال عليّ: تطلب دم عثمان، قتل الله من قتل عثمان، أنشدك الله يا زبير، هل تعلم أنّك مررت بي وأنت مع رسول الله '، وهو متكئ على يدك فسلم عليّ رسول الله '، وضحك إلي ثم التفّت إليك، فقال لك: يا زبير، إنّك تقاتل عليّاً وأنت له ظالم، قال: اللهم نعم.

قال عليّ: فعلام تقاتلني؟ قال الزبير: نسيتهما والله، ولو ذكرتها ما خرجت إليك، ولا قاتلتك فانصرف عليّ إلى أصحابه، فقالوا: يا أمير المؤمنين مررت إلى رجل في سلاحه وأنت حاسر، قال عليّ: أتدرون من الرجل؟ قالوا: لا. قال: ذلك الزبير ابن صفيّة عمّة رسول الله '. أما إنّّه قد أعطى الله عهداً أنّه لا يقاتلكم، إنّّي ذكرت له حديثاً قاله رسول الله '، فقال: لو ذكرته ما أتيتك. فقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين، ما كنّا نخشى في هذا الحرب غيره. ولا نتقي سواه، إنّّه لفارس رسول الله ' وحواريّه، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب، فإذا قد كفناه الله فلا نعدّ من سواه إلّا صرعى حول الهودج (١).

وقال ابن قتيبة: ذكروا أنّ عليّاً نادى طلحة بعد انصراف الزبير، فقال له: يا أبا محمّد ما جاء بك؟ قال: أطلب دم عثمان. قال عليّ: قتل الله من قتله. قال طلحة: فخلّ بيننا وبين من قتل عثمان، أما تعلم أنّ رسول الله ' قال: إنّما يحلّ دم المؤمن في أربع خصال: زانٍ فيرجم، أو محارب لله، أو مرتدّ عن الإسلام، أو مؤمن يقتل مؤمناً عمداً. فهل تعلم أنّ عثمان أتى شيئاً من ذلك؟ فقال عليّ: لا.

قال طلحة: فأنت أمرت بقتله.

قال عليّ: اللهم لا.

قال طلحة: فاعتزل هذا الأمر، ونجعله شورى بين المسلمين، فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن رضوا غيرك كنت رجلاً من المسلمين.

قال عليّ: أو لم تبايعني يا أبا محمد طائعاً غير مكره؟ فما كنت لأترك بيعتي.

قال طلحة: بايعتك والسيف على عنقي.

قال: ألم تعلم أنّي ما أكرهت أحداً على البيعة، ولو كنت مكرهاً أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد ابن مسلمة، أبوا البيعة، واعتزلوا، فتركتهم.

قال طلحة: كنّا في الشورى ستّة، فمات اثنان وقد كرهناك، ونحن ثلاثة.

قال عليّ: إنّما كان لكما ألا ترضيا قبل الرضا وقبل البيعة. وأمّا الآن فليس لكما غير ما رضيتما به، إلّا أن تخرجا مما بويعت عليه بحدث، فإن كنت أحدث حدثاً فسمّوه لي. وأخرجتم أمّكم عائشة، وتركتم نساءكم، فهذا أعظم الحدث منكم، أرضاً هذا لرسول الله أن تهتكوا سترأضربه عليها وتخرجوها منه؟

فقال طلحة: إنّما جاءت للإصلاح.

قال عليّ: هي لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج، أيّها الشيخ اقبل النصح وارض بالتوبة مع العار قبل أن يكون العار والنار^(١).

ولكن سرعان ما رجع الزبير عن رشده، خصوصاً بعد أن استفزّه ولده عبدالله بالجن^(٢)، وقاتل حتى قُتل. وبعد مقتله، نظر الإمام X إلى رأسه وسيفه، فهزّ السيف وقال: سيف طالما قاتل بين يدي النبي '، ولكن الحين ومصارع السوء، ثمّ تفرّس في وجهه وقال X: لقد كان لك بالنبي ' صحبة، ومنه قرابة، ولكن دخل الشيطان منخرك، فأوردك هذا المورد.

وأما طلحة، فقل: أصابه مروان بن الحكم بسهم في رجله أثناء المعركة، فهرب مجروحاً إلى البصرة ودمه ينزف، إلى أن هلك ودفن بها في قنطرة قرّة^(٣).

الموجب الرابع: ركوب الفتن في أيام الفتن وأزمانها

بما أنَّ الفتنة هي التي يعمى فيها وجه الحق من الباطل، فإنَّ ركوبها يوقع صاحبها في المتاهات والضلالات والدخول فيها قد يكون سهلاً ولكنَّ الخروج منها صعب، وغالباً ما تؤدِّي الفتنة إلى الهلكة.

ورد عن النعمان بن بشير قال: صحبنا النبيَّ ﷺ وسمعناه يقول: إنَّ بين يدي الساعة فتناً كأنَّها كقطع اللَّيل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمناً ثمَّ يمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ثمَّ يصبح كافراً، يبيع أقوام خلاقهم بعرض من الدنيا يسير، أو بعرض الدنيا^(١).

ولأجل النجاة من المصير إلى هذا الخسران حثَّ النصوص الدينيَّة على الابتعاد عن الفتن ما أمكن. فعن أبي عبدالله الصادق × قال: لا تقتحموا ما استقبلتم من فور الفتنة، وأميطوا عن سننها، وخلّوا قصد السبيل لها^(٢).

هناك نصوص تدعو الإنسان في زمن الفتن إلى أن يكون كولد الناقة الذكر الذي يستكمل السنة الثانية ويدخل في الثالثة لأنَّ مثل هذا لا ضرع له كي يجلب كما لا يصلح ظهره للركوب لعدم نضجه، وهذا ما أشار اليه أمير المؤمنين في قوله × في نهج البلاغة: «كن في الفتنة كابن اللَّبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب»^(٣).

وعن أيام الفتن وأزمانها قال ابن أبي الحديد المعتزلي:

أيام الفتنة هي أيام الخصومة والحرب بين رئيسين ضالِّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة، كفتنة عبد الملك وابن الزبير، وفتنة مروان والضحَّاك، وفتنة الحجاج وابن الأشعث، ونحو ذلك، فأما إذا كان أحدهما صاحب حقِّ فليست أيام فتنة، كالجمل وصفين ونحوهما، بل يجب الجهاد مع صاحب الحقِّ وسلَّ السيف والنهي عن المنكر وبذل النفس في إعزاز الدين وإظهار الحقِّ، قال ×: أخل نفسك أيام الفتنة، وكن ضعيفاً مغموراً بين الناس، لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك، ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء^(٤).

الموجب الخامس: أن يكفر الإنسان بالنعم الإلهية التي أنعمها عليه:

قال تعالى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل: ١١٢]، هذا مثل لمن لم يشكر نعمة الله عليه { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً }، لا تضطرّ إلى هجرة إجبارية، بل تعيش في أمن وأمان، { مُّطْمَئِنَّةً }، ومضافاً إلى ذلك { يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ }، ولكنّ حالها قد تبدّل في النهاية { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } . وإضافة لاستكمال نعم الله المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقرّ به حالهم في الدنيا، ويدام لهم ذلك في الآخرة، فُبُعْثَ بين ظهرائهم رسل وأنبياء، وأرسلت إليهم التعاليم السماوية، { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ } [النحل: ١١٣]، فكانت النتيجة: { فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ }^(١).

وإنّما جاءت هذه النتيجة (الهلاك والخسران) تبعاً لكفران النعم الذي كان بمثابة المقدّمة.

عبرة في كفران النعم

ذكر المفسّرون في بيان أسباب نزول الآية المتقدّمة أعلاه أقوالاً عدّة، ووردت الأخبار بصيغ عدّة، نصّ بعضها على أنّ هذه الآية تحكي عن قصّة حدثت لجمع من بني إسرائيل في منطقة ما، وأنّهم ابتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم الله، فيما روت الأخبار الباقية الحادثة بصيغ أخرى، من دون الإشارة إلى هوية المعنّين بالآية، وفيما يلي عرض لبعض هذه الأخبار بهدف العظة والعبرة:

الخبر الأول: روي في تفسير العياشي عن حفص بن سالم عن أبي عبد الله × قال: إِنَّ قَوْمًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوْتَى لَهُمْ مِنْ طَعَامِهِمْ حَتَّى جَعَلُوا مِنْهُ تَمَائِيلَ بِمَدَنٍ كَانَتْ فِي بِلَادِهِمْ يَسْتَنْجُونَ بِهَا، فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ بِهِمْ حَتَّى اضْطَرُّوا إِلَى التَّمَائِيلِ يَبْعُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل: ١١٢] (١).

الخبر الثاني: القمي في تفسيره قال: نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له الثلثان [الثلاثاء]، وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير، فكانوا يستنجون بالعجين، ويقولون هو ألين لنا، فكفروا بأنعم الله واستنجوا [واستخفوا] بنعمة الله، فحبس الله عنهم الثلثان، فجدبوا حتى أحوجهم الله إلى أكل ما كانوا يستنجون به، حتى كانوا يتقاسمون عليه (٢).

الخبر الثالث: عن زيد الشحام عن أبي عبد الله × قال: كان أبي يكره أن يمسح يده في المنديل وفيه شيء من الطعام تعظيماً له، إِلَّا أَنْ يَمْصَّهَا، أَوْ يَكُونَ إِلَى جَانِبِهِ صَبِيٍّ فَيَمْصَّهَا، قَالَ: فَإِنِّي أَجِدُ الْيَسِيرَ يَقَعُ مِنَ الْخَوَانِ، فَأَتَفَقَّدُهُ، فَيُضْحِكُ الْخَادِمَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ أَهْلَ قَرْيَةٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ اللَّهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ حَتَّى طَغَوْا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَوْ عَمَدْنَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا النَّقْيِ (٣) فَجَعَلْنَاهُ نَسْتَنْجِي بِهِ كَانَ أَلَيْنَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَجَارَةِ. قَالَ ×: فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ عَلَى أَرْضِهِمْ دَوَابَّ أَصْغَرَ مِنَ الْجَرَادِ، فَلَمْ تَدَعْ لَهُمْ شَيْئًا خَلَقَهُ اللَّهُ إِلَّا أَكَلَتْهُ، مِنْ شَجَرٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَبَلَغَ بِهِمُ الْجُهْدُ إِلَى أَنْ أَقْبَلُوا عَلَى الَّذِي كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِهِ، فَأَكَلُوهُ، وَهِيَ الْقَرْيَةُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً } إِلَى قَوْلِهِ: { بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } (٤).

الموجب السادس: أن يحيف المرء بالوصية:

قال الراغب: الحيف: الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين^(١).
ورد عن النبي ﷺ ' أنه قال: إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة، فيحيف في وصيته، فيختم له بعمل أهل النار، وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بعمل أهل الجنة (فيدخل الجنة)، ثم قرأ: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [الطلاق: ١]^(٢).

الموجب السابع: عقوق الوالدين:

العقوق ضد البرِّ، والبرُّ هو الإحسان، وبرَّ الوالدين في القرآن الكريم غالباً ما يقرن بعبادة الله جلَّ وعلا. قال تعالى: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء: ٣٦].

والأخبار التي تتحدّث عن برِّ الوالدين هي بالعشرات، وأشهر من نار على علم، وكذا الحديث عن عقوق الوالدين، وأنّه مانع من العاقبة الحسنة، وأنَّ العاق في النار. ورد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ' «الجنة دار الأسخياء، والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة بخيل ولا عاق والديه ولا مان بها أعطاه»^(٣).

وعن أبي جعفر قال ×: «قال رسول الله ﷺ: ' أيها الناس، احذروا البغي، إلى أن قال: وإياكم والعقوق، فإنَّ الجنة يوجد ريحها من مسيرة مائة عام، وما يجدها عاق ولا قاطع رحم»^(٤).

عبرة في العاق لوالديه:

في المجالس، بإسناده عن سعيد بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله × يقول: إنَّ رسول الله ﷺ حضر شاباً عند وفاته، فقال له: قل لا إله إلا الله، قال: فاعتقل لسانه مراراً، فقال لامرأة عند رأسه: هل لهذا أم؟ قالت: نعم، أنا أمّه،

فاعتقل لسانه مراراً، فقال لامرأة عند رأسه: هل لهذا أم؟ قالت: نعم، أنا أمّه،

قال: أفساخطة أنتِ عليه؟ قالت: نعم ما كلمته منذ ست حجج، قال لها: ارضي عنه! قالت: رضي الله عنه برضاك يا رسول الله، فقال له رسول الله: 'قل لا إله إلا الله، قال: فقالها، فقال النبي: 'ما ترى؟ فقال: أرى رجلاً أسود قبيح المنظر وسخ الثياب متنن الرياح، قد وليني الساعة يأخذ بكظمي^(١)، فقال له النبي: 'قل: يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير اقبل مني اليسير واعف عني الكثير، إنك أنت الغفور الرحيم، فقالها الشاب، فقال له النبي: 'انظر ما ترى؟ قال: أرى رجلاً أبيض اللون حسن الوجه، طيب الرائحة، حسن الثياب، قد وليني، وأرى الأسود قد تولّى عني، قال: أعد، فأعاد، قال: ما ترى؟ قال: لست أرى الأسود، وأرى الأبيض قد وليني، ثم طفى على تلك الحال^(٢).

الموجب الأول: الالتصاق بالتقوى وملازمتها:

التقوى هي الاقتداء بالنبي، والمتقي من يجعل بينه وبين ما يخاف منه وقاية تقيه منه، ومنه: اتقوا النار ولو بشق تمر، فأصل التقوى: الخوف من الله بملاحظة جلال الله وعظمته وقبح مخالفته وشدة عقوبته^(٣).

ومن يحافظ على تقوائته لله فذلك من موجبات الاطمئنان لحسن الخاتمة، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً: ' {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: ١٣٢]، وقال تعالى على لسان نبيه موسى: { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: { تِلْكَ الْأَرْضُ الَّتِي بَعَلْنَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص: ٨٣].

عبرة في الاعتقاد بأن العاقبة للمتقين:

عن أبي عبد الله X قال: كان في بني إسرائيل رجل يكثر أن يقول: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، فغاض إبليس ذلك، فبعث إليه شيطاناً فقال: قل: العاقبة للأغنياء، فجاءه، فقال ذلك، فتحاكما إلى أول من يطلع عليهما على قطع يد الذي يحكم عليه، فلقيا شخصاً فأخبراه بحالهما، فقال: العاقبة للأغنياء، فقطع يده، فرجع وهو يحمد الله ويقول: العاقبة للمتقين، فقال له: تعود أيضاً؟ فقال: نعم، على يدي الأخرى، فخرجا، فطلع الآخر فحكم عليه أيضاً، فقطعت يده الأخرى، وعاد أيضاً يحمد الله ويقول: العاقبة للمتقين، فقال له: تحاكمني على ضرب العنق؟ فقال: نعم، فخرجا فرأيا مثلاً، فوقفنا عليه، فقال: إنني كنت حاكمت هذا، وقصاً عليه قصتهما. قال: فمسح يديه فعادتا، ثم ضرب عنق ذلك الخبيث، وقال: هكذا العاقبة للمتقين^(١).

الموجب الثاني: الاعتقاد بأن الفوز توفيق من الله

هناك من الناس من يحمل في نفسه اعتقاداً باطلاً، وهو أن عملي بما هو يدخلني الجنة، ولا علاقة لتوفيق الله بذلك، وهذا اعتقاد باطل لا يضمن الجنة والفوز عند الخاتمة.

ورد عن أنس أن رسول الله ' قال: لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد حتى تنظروا بما يختم له، فإن العامل يعمل زماناً من عمره، أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة، ثم يتحول، فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار، ثم يتحول، فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته، قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه^(٢).

ونظر أمير المؤمنين × إلى رجل أثر الخوف عليه، فقال: ما بالك؟ قال: إنني أخاف الله، فقال: يا عبد الله خف ذنوبك، وخف عدل الله عليك في مظالم عباده، وأطعه فيما كلفك، ولا تعصه فيما يصلحك، ثم لا تخف الله بعد ذلك، فإنه لا يظلم أحداً، ولا يعذبه فوق استحقاقه أبداً، إلا أن تخاف سوء العاقبة بأن تغير أو تبدل، فإن أردت أن يؤمنك الله سوء العاقبة، فاعلم أن ما تأتيه من خير فبفضل الله وتوفيقه، وما تأتيه من سوء فبإمهال الله وإنظاره إياك وحلمه وعفوه عنك^(١).

الموجب الثالث: السعي في قضاء حوائج الإخوان:

عن عليّ ابن يقطين قال: استأذنت مولاي أبا إبراهيم موسى بن جعفر × في خدمة القوم فيما لا يثلم ديني، فقال: لا، ولا نقطة قلم، إلا باعزاز مؤمن، وفكّه من أسرهِ، ثم قال ×: إن خواتيم أعمالكم قضاء حوائج إخوانكم، والإحسان إليهم ما قدرتم، وإلا، لم يقبل منكم عمل، حنّوا على إخوانكم وارحموهم تلحقوا بنا^(٢).

الموجب الرابع: التعظيم لحقّ الله:

ورد أنّ الإمام الصادق × كتب إلى بعض الناس: إن أردت أن يُجتم بخير عملك حتى تقبض وأنت في أعظم الأعمال فعظم الله حقّه أن لا تبدل نعماءه في معاصيه، وأن تغترّ بحلمه عنك^(٣).

الموجب الخامس: اتباع الهدى:

قال تعالى في خطابه لبني آدم:

{قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨].

قال ابن عربي في تفسيره: والهدى هو الشرع، فمن تبعه أمن سوء العقابة، فلم يخف ممّا يأتي من العقاب والفناء، وتسلى عن الشهوات واللذات، فلم يحزن على ما فاته من حطام الدنيا ونعيمها؛ لاكتحال بصيرته بنور المتابعة، واهتدائه إلى ما لا يقاس بلذات الدنيا من الأذواق الروحانيّة والفتوحات السريّة، والمشاهدات القلبيّة والعلوم العقليّة والمواجيد النفسيّة^(١).

المواظبة على قراءة الأذكار

ورد في المأثور جملة من الأدعية التي إن واطب العبد على قراءتها أمن سوء العقابة عند الموت، وخصوصاً الأدعية التي تحفظ من العديلة. والمراد من العديلة: العدول إلى الباطل عن الحقّ، وهو بأن يحضر الشيطان عند المحتضر ويوسوس في صدره ويجعله يشكّ في دينه فيستلّ الإيّا من فؤاده^(٢).

قال الصادق ×: ما من أحد يحضره الموت إلّا وكلّ به إبليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشكّكه في دينه حتى يخرج نفسه، فإذا حضرتم موتاكم فلقنّوهم شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله حتى يموتوا^(٣).

ومن الأدعية التي تُعين على الحفظ من العديلة:

قال في المستدرك - نقلاً عن أحد العلماء -: فإذا أراد الإنسان أن يسلم من هذه العديلة فليستحضر أدلّة الإيمان والأصول الخمس بالأدلّة القطعيّة، ويصفي خاطره ويقول: اللّهم يا أرحم الراحمين، إنّي قد أودعتك يقيني هذا وثبات ديني، وأنت خير مستودع، وقد أمرتنا بحفظ الودائع، فردّه عليّ وقت حضور موتي، ثمّ يخزي الشيطان ويتعوّذ منه بالرحمن، ويودّع ذلك الله تعالى، ويسأله أن يرده عليه وقت حضور موته، وعند ذلك يسلم من العديلة عند الموت قطعاً^(٤).

وروى الشيخ الطوسي & عن محمّد بن سليمان الديلميّ قال: سألت أبا عبد الله ×، فقلت له: جعلت فداك أن شيعتك تقول إنّ الإيمان مستقرّ

ومستودع، فعلمني شيئاً إذا أنا قلته استكملتُ الإيمان، قال ×: قل في دبر كل صلاة فريضة: رضيت بالله رباً وبمحمد نبياً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً، وبالكعبة قبلَةً، وبعلي ولياً وإماماً، وبالحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة بن الحسن صلوات الله عليهم أئمةً، اللهم إني رضيتُ بهم أئمةً، فارضني لهم، إنك على كل شيء قدير () .

المداومة على هذا الذكر الشريف:

{ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَلْوَهَابُ } [آل عمران: ٨] () .

المواظبة على تسبيح الزهراء بعد كل فريضة:

روى صالح بن عقبة، عن أبي جعفر × قال: ما عبد الله بشيء أفضل من تسبيح الزهراء ÷، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله ÷ فاطمة ÷. وكان يقول: تسبيح فاطمة ÷ في كل يوم دبر كل صلاة أحب إلي من صلاة ألف ركعة () .

وروى محمد بن عذافر قال: دخلت مع أبي علي أبي عبد الله ×، فسأله عن تسبيح فاطمة ÷ فقال: الله أكبر، حتى عدّ أربعاً وثلاثين مرة، ثم قال: الحمد لله، حتى بلغ سبعاً وستين، ثم قال: سبحان الله، حتى بلغ مائة يحصيها مائة بيده جملة واحدة.

الموجب السادس: المواظبة على مواقيت الصلوات:

ورد عن الهيثم ابن واقد، عن رجل، عن أبي عبد الله × في حديث: أن ملك الموت يتصفح الناس في كل يوم خمس مرات عند مواقيت الصلاة، فإن

كان ممن يواظب عليها عند موافقتها لقنه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، ونحى عنه ملك الموت إبليس (١).

وفي نهاية المطاف، أقول:

قد حاولت في هذه العجالة قدر المستطاع الغوص في جواهر النصوص الدينية، متصيّداً منها كلّ ما له علاقة بارتباطه بالخاتمة عند الممات، ولا ندعي في ذلك كمال الغرض، فما قدّمناه ما هو سوى استقراء ناقص.

كما نذكر القارئ الكريم أنّ ما تقدّم من موجبات للفوز أو الخسران عند الخاتمة ليس هو علة تامّة في ضمان حسن العاقبة، وإنّما هو من قبيل الداعي الذي يدعو إلى خاتمة حسنة ومن شأنها أن تتخلّف بسوء اختيار الإنسان.

من هنا، لا يستغني الإنسان عن الدعاء الدائم إلى الله سبحانه وتعالى في أن يجنّبه معاصيه ويقربّه من مراضيه ما يحفظ به خاتمة حسنة في نيل الدرجات العلى والمكان الأسمى بمجاورة النبيّ وآله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وخير الدعاء ما جاء في المأثور:

«يا من ختم النبوة بمحمّدٍ ، اختتم لي في يومي هذا بخير، وشهري بخير، وستي بخير، وعمري بخير» (٢).

«اللهمّ مقلّب القلوب والأبصار، ثبت قلبي على دينك ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنّك أنت الوهاب، وأجرني من النار برحمتك، اللهمّ امدد لي في عمري، وأوسع عليّ في رزقي، وانشر عليّ رحمتك، وإن كنتُ عندك في أمّ الكتاب شقيّاً فاجعلني سعيداً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب» (٣).

وورد في رواية عليّ بن النعمان عنهم ^٨:

«من قال هذا القول كان مع محمد وآل محمد ، إذا قام من قبل أن يستفتح الصلاة: اللهم إني أتوجه إليك بمحمد وآل محمد وأقدمهم بين يدي صلاتي، وأتقرب بهم إليك، فاجعلني بهم وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، أنت مننت عليّ بمعرفتهم فاختم لي بطاعتهم ومعرفتهم وولايتهم، فإتّما السعادة، اختم لي بها، إنك على كلّ شيء قدير»^(١).

* * *

الهوامش:

- (١) الحرّ العاملي، محمد حسن، وسائل الشيعة ٤: ١٢٠٦، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار ٦٧: ٢٤٢، ط مؤسسة الوفاء، بيروت.
- (٣) النمازي الشاهرودي، الشيخ علي، مستدرك سفينة البحار ٧: ٢٩٥، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم.
- (٤) ن. م.
- (٥) البخاري، صحيح البخاري ٧: ٢١٢-٢١٣، نشر دار الفكر للطباعة والنشر.
- (٦) الصدوق، معاني الأخبار: ص ٣٤٨، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم.
- (٧) المدني الشيرازي، علي خان، رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين ١×: ٤٥٩، ط مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم.
- (٨) الحلي، حسن بن سليمان، المحتضر: ص ٥٢-٥٣.
- (٩) المهدي البحراني، عبد العظيم، قصص وخواطر: ص ٥٢٥، ط دفتر نشر نويد اسلام، قم.
- (١٠) ن. م. ص ٧٠٩.
- (١١) الكليني، الكافي ٢: ٢٧٣، ط دار الكتاب الإسلامي، طهران.
- (١٢) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات ٢: ٥، ط النعمان، النجف الأشرف.
- (١٣) ن. م. ص ٤.
- (١٤) قال تعالى: {وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ يَالْحَقُّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} (٢١) لَيْنٌ بَسَطَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْلَبَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ

يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْنُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَعْجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ {المائدة: ٢٧-٣١}.

(١٥) الويال: سوء العاقبة، ومرعى وبيل: يتأذى به بعد أكله. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط ٤: ٥.

(١٦) فاضل المالكي، الغيبة الصغرى والسفراء الأربعة: ص ٤٦-٤٨، مركز الأبحاث العقائدية، قم.

(١٧) التراقي، محمد مهدي، جامع السعادات ٢: ١٦٣.

(١٨) شبستري، عبدالحسين، أعلام القرآن: ص ٥٣٠-٥٣١، ط دفتر تبليغات، قم المقدسة.

(١٩) الأصفهاني، محمد حسين، الأنوار القدسية: ص ٧٨، ط مؤسسة المعارف الإسلامية، قم.

(٢٠) أعني بذلك: أهل البيت فقد أقصوا عن حقوقهم في الخلافة من حقوقهم لأفة الشره بحب الملك، وقد اعترف خصومهم بذلك، يروى في خبر طويل: أنَّ هارون الرشيد كان قد استقبل الإمام موسى بن جعفر الكاظم ببالغ الحفاوة والاحترام إلى درجة أنه لما دخل استقبله على الباب، ولما جلس أجلسه مكانه ولما خرج شيّعه إلى أن غاب عنه، وكان ذلك في محضر ولده المأمون الذي لفت انتباهه هذا الصنيع من أبيه بالوقت الذي لم يره من قبل يصنع مثله مع أحد فسأله عن الشخص من هو؟ قال: هذا إمام الناس وحجته على خلقه وخليفته على عبادته، فقلت: يا أمير المؤمنين، أليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق والله يا بني أنه لاحق بمقام رسول الله 'مئى ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك فإن الملك عقيم. راجع: الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا ٢: ٨٥-٨٦.

(٢١) كما قتل المأمون أخاه الأمين، وكلاهما من أولاد هارون الرشيد.

(٢٢) الدينوري، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١: ٦٧-٦٨، تحقيق الزيني، ط مؤسسة الحلبي وشركاه.

(٢٣) ن.م. ١: ٧٠.

(٢٤) كان أمير المؤمنين × يقول: ما زال الزبير منّا أهل البيت حتى شبّ ابنه عبدالله، انظر: المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢: ١٦٧، ط دار إحياء الكتب - عيسى الحلبي وشركاه.

- (٢٥) شبستري، عبدالحسين، أعلام القرآن: ص ٥٣٦.
- (٢٦) الإمام أحمد بن حنبل، مسنده ٤: ٢٧٢-٢٧٣، ط دار صادر، بيروت.
- (٢٧) النجفي، الشيخ هادي، موسوعة أحاديث أهل البيت ^٨ : ٢٩٤، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٢٨) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١٨: ٨٢-٨٣.
- (٢٩) ن. م.
- (٣٠) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٨: ٣٤٥.
- (٣١) الحويني، عبدعلي بن جمعة، تفسير نور الثقلين ٣: ٩٢، ط مؤسسة إسماعيليان، قم.
- (٣٢) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي ١: ٣٩٢، ط مؤسسة دار الكتاب، قم المقدسة.
- (٣٣) النقي، يفتح النون وكسر القاف وتشديد الباء: الخبز المعمول من الباب الدقيق، انظر: تفسير نور الثقلين ٣: ٩٢.
- (٣٤) الحويني، نور الثقلين ٣: ٩٢.
- (٣٥) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة (حيف): ص ٢٦٦، ط دار القلم، دمشق (الدار الشامية) - بيروت.
- (٣٦) الراوندي، قطب الدين، الدعوات: ص ٢٣٤-٢٣٥، ط مطبعة أمير، قم.
- (٣٧) البروجردي، السيد حسين، جامع أحاديث الشيعة ١٣: ٦٠١.
- (٣٨) ن. م.: ١٦: ٢٦٣.
- (٣٩) الحلق ومخرج النفس.
- (٤٠) المجلسي، بحار الأنوار ٧٨: ٢٣٢-٢٣٣.
- (٤١) المازندراني، المولى محمد صالح، شرح أصول الكافي ٨: ٢٣٦، ط إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٤٢) النمازي، مستدرک سفينة البحار ٧: ٢٩٦.
- (٤٣) الإمام أحمد بن حنبل، مسنده ٣: ١٢٠.
- (٤٤) المجلسي، بحار الأنوار ٧٦: ٣٩٢.
- (٤٥) ن. م. ٧٢: ٣٧٩.
- (٤٦) البروجردي، جامع أحاديث الشيعة ١٣: ٣٤٦.
- (٤٧) ابن عربي، تفسير ابن عربي ١: ٤٩-٥٠، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٤٨) القمي، الشيخ عباس، مفاتيح الجنان: ص ١٤٩، ط الدار الإسلامية، بيروت.
- (٤٩) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٣.

- (٥٠) النمازي، مستدرك سفينة البحار ٧: ١٢٢.
- (٥١) القمّي، الشيخ عبّاس، منازل الآخرة والمطالب الفاخرة: ص ١١٦، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين، قم.
- (٥٢) ن. م. ص ١١٨.
- (٥٣) المحقّق الحليّ، نجم الدين جعفر بن الحسن، المعتبر ٢: ٢٤٨ - ٢٤٩، ط مدرسة الإمام أمير المؤمنين، قم.
- (٥٤) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ٢: ٤٥٥.
- (٥٥) الشيخ الطوسي، محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد: ص ٨٣، ط مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت.
- (٥٦) المصدر نفسه.
- (٥٧) النراقي، الشيخ مهدي، مستند الشيعة ٥: ٣٧٢، ط مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، قم.

وانتهت الحرب السادسة

□ د. أحمد راسم النفيس (*)

تيمناً بالرقم (٦)، وبانتهاء الشهر السادس من حرب صعدة السادسة، قرّر من أشعلوها إيقافها واللّجوء إلى خيار التفاوض والسلم، حيث اكتشفوا - مؤخراً - أنّ (كلّنا إخوة)، ولكن بعد خراب ما تبقى من البصرة!! هذا هو شأن العرب المعاصرين في غزواتهم الفاشلة أخلاقياً، حتى ولو نجحت عسكرياً!!

قبل أن تبدأ هذه الجولة بعدّة أشهر، نشرت مجموعة الأزمات الدوليّة تقريراً حدّرت فيه من اندلاع القتال مرّة أخرى في الحرب التي بدأت - حسب التقرير -: على شكل عمليّة للشرطة لاعتقال عضو البرلمان السابق حسين بدر الدين الحوثي. وعلى مدى خمس جولات تضاعفت عدّة مرات، وأصبحت أكثر تعقيداً واتّساعاً. مع تراكم المظالم والإساءات وارتفاع عدد الضحايا، مجتذبة عدداً أكبر من اللاعبين، بما في ذلك القبائل، وأعداداً متزايدة من سكّان صعدة، وباتت تغطّي منطقة تتّسع باستمرار، ويشارك فيها لاعبون أجانب على خلفيّة

(*) كاتب وباحث في الفكر الديني والسياسي/ مصر.

حربٍ إقليميّة باردة.

بدأت هذه الحرب عام ٢٠٠٤ كصراع محليّ لا دور لأيّ طرفٍ إقليميٍّ فيه، إلّا أنّه سرعان ما اتّسع وامتدّ، كما ذكر التقرير، والأهمّ من هذا: أن حالة الشيزوفرينيا السياسيّة العربيّة شجّعت كثيراً من الأطراف على قبول فكرة التدخل الإيراني، واعتبارها حقيقةً لا تقبل التشكيك، ومن ثمّ كانت هذه الكارثة السادسة ذات الشهور الستّ.

الطريف في الأمر: أنّ النظام اليمنيّ كان قد اختار لهذه العمليّة اسم (الأرض المحروقة)، وكأنّ الأرض لم تُحرق قبل ذلك، حيث يقول التقرير الصادر في مايو ٢٠٠٩:

«إذا كان التاريخ قد ترك ندوباً، فإنّ الحرب قد نكأت الجراح، حيث جرى تدمير قرىّ بأكملها، وتخريب البنى التحتيّة، بسبب القصف الجويّ والعنف العشوائيّ الذي يمارسه الجيش والسلطة، ممّا أدّى إلى زيادة المظالم التي يشعر بها الهاشميّون بشكلٍ عامّ، ودعاة إحياء الزيدية بشكلٍ خاصّ، والمدنيّون إجمالاً في جميع المحافظات الشماليّة».

طبعاً.. كان هذا الكلام متعلّقاً بالجولات السابقة.

أمّا عن الجرائم التي ارتكبت ضدّ المدنيّين في الجولة السادسة من قبل الطيران الحربيّ التابع لدولتين، والذي لم يتوقّف عن قصف المدنيّين الأبرياء في مخيّماتهم، وتدمير البيوت فوق رؤوس قاطنيها، فهي - بلا شكّ - أضعاف تلك التي ذكرها التقرير المشار إليه.

توقّفت هذه الجولة من القتال بعد أن أدرك أطرافها استحالة حسمها عسكريّاً في نفس الوقت الذي رُفع فيه الغطاء الدوليّ عنها، حيث أعلنت الولايات المتّحدة:

أتمّ (ترحب بوقف إطلاق النار بين الحكومة اليمنيّة والمتمرّدين الحوثيين)؛

وأنها (تفهم أن لجنة وساطة تمثل جميع الأطراف تراقب الآن الامتثال لشروط وقف النار والشروع في عملية مصالحة وإعادة بناء تشتد الحاجة إليها لوضع نهاية دائمة لهذا الصراع) ..

فكان أن «اكتشفت» الحكومتان: اليمنية والسعودية، أننا (كلنا إخوة)!! وسارعنا للقبول بالمبادرات التي أطلقها الطرف الحوثي من أجل إيقاف الحرب.

والطريف في الأمر - أيضاً -: أن انتهاء الحرب جرى بوساطة قبليّة يمنية، ولو كان لإيران دور في هذه الحرب، لجرت الوساطة في طهران، وليس بين جبال صعدة والرياض.

وأما الأطراف من هذا: فهو أن اتفاق وقف القتال منقول بصورة حرفيّة من حزمة الاقتراحات المدرجة في تقرير مجموعة الأزمات، ومن بينها: الضغط على الطرفين لإنهاء الصراع، والمشاركة في جهود الوساطة والموافقة على تشكيل لجنة للتوسط وإعادة الإعمار، تتكوّن من مسؤولين حكوميين وممثلين عن المتمرّدين واللّاعين الدوليين، (مثل الحكومات المانحة والمنظّمات الدوليّة)؛ والمساعدة في تأمين العودة الآمنة لأولئك الذين أدّت الحرب إلى نزوحهم؛ وإجراء مسح بالأضرار في المناطق المتأثرة بالحرب بمساعدة خبراءٍ وطنيين ودوليين مستقلّين؛ لتيسير توزيع التعويضات وإعادة البناء.

وليس خافياً: أن قبول الحكومة اليمنية بمشاركة ممثلين عن الحوثيين في لجنة وقف إطلاق النار وإعادة الإعمار (حسب توصية التقرير) يعدّ اعترافاً سياسياً بمن كان يجري وصفهم حتى اللحظة الأخيرة بالمتمرّدين!!

ولذا، فنحن لا نفهم: لماذا لم يوفر هؤلاء على أنفسهم وجيوشهم وشعوبهم كلّ هذا الدمار، ويأخذوا بهذه التوصيات قبل خراب الدنيا؟!

لقد استجاب العرب لفتوى الإدارة الأمريكيّة القائلة: «إذا التقى المسلمان

بسيّفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، التي ركلها شيوخ المضيرة بأقدامهم، كما سارعوا لتطبيق مقترحات مجموعة الأزمات، في حين غابت الجامعة العربيّة، وتوارت عن الأنظار، باعتبار أنّ الأمر لا يعنيه من قريبٍ ولا من بعيد!!

إنّ هذا يرتّب حتميّة إعادة النظر في حيثيّات وجود الجامعة العربيّة، وعشرات الهيئات التي تضمّ شيوخاً يُفتون حسب طلب وهوى من يعطيهم المال، حيث بدا واضحاً أنّ فتاوى الحرب والسلام تصدر: إمّا من واشنطن أو جنيف، ولكن ليس من تلك الهيئات المكتنّزة بالبشر، رغم عجزها عن القيام بأيّ دورٍ سياسيٍّ أو دينيٍّ أو أخلاقيٍّ!!

رغم اقتناعنا بأنّ السبب الحقيقيّ لاندلاع هذه الحرب هو يمنيّ داخليّ من جهة، ومن جهةٍ أخرى يتعلّق برغبة النظام السعوديّ في إلغاء كلّ وجودٍ فكريٍّ أو مذهبيٍّ يختلف معه في دائرة لا يقلّ قطرها عن ألف ميل، إلّا أنّ هذه الحرب الغبيّة قدّمت خدماتٍ جليّةً لخصوم النظام السعوديّ في الجزيرة العربيّة وفي مجمل الإقليم.

بدا واضحاً: أنّ التسليح الهائل للجيش السعوديّ لم يُجدِ نفعا في حسم الصراع مع مجموعةٍ قليلة العدد والتسليح، تقاتل بأسلوب حرب العصابات، فما بالك لو تورّط هذا الجيش في مواجهاتٍ كبرى، من ذلك النوع الذي تريد الإدارة الأمريكيّة جرّ المنطقة إليه!!

الأمر الثاني يتعلّق بطبيعة العلاقات الإسلاميّة - الإسلاميّة، ومحاولة محو الآخر المختلف، عبر استخدام وسائل الدعاية، وتوزيع الرشاوى الماليّة على رؤساء القبائل ورؤساء الجماعات الموالية، ممّا تسبّب في حدوث ردّ فعل مضادّ، قاد إلى ضياع أغلب هذه المكاسب الوهميّة، وهو ما ينطبق على مجتمعاتٍ أخرى،

من بينها: مصر.

ولأنّ العرب لا يستفيدون من تجاربهم المريعة، ولا يفكّرون في إصلاح مجتمعاتهم، فنحن نتوقّع أن تندلع الحرب مرّةً أخرى (ليس في صعدة أو اليمن)، ولكنّ نتائج الجولة القادمة ستغيّر خريطة المنطقة!!.

* * *

كل حصار وأنتم بخير

هموم الصحافة العربية في عيونٍ ساخرة

وصلنا هذا المقال إلى بريد المجلة من دون أن نعرف كاتبه الأصلي؛ لذا نضعه أمام قرائنا الأعزاء، ولينظروا إلى ما قيل، ولا يهتموا بمعرفة القائل...

دخل سعيد الصحفي الشاب على رئيس تحرير المجلة التي يعمل بها منذ أشهر قليلة بعد أن استدعته سكرتيرة الرئيس، دخل سعيد فاستقبله رئيس التحرير بحفاوة قائلًا:

- عزيزي سعيد أهلاً وسهلاً لقد أثبتت خلال الفترة القصيرة التي قضيتها هنا أنك صحفي جاد ومجتهد.

- شكراً لك سيدي.

- ومكافأة لك فقد قرّرتُ أن أدعك تكتب الموضوع الرئيسي لهذا العدد وهو عن حصار غزة.

- شكراً لك سيدي، وهذا بصراحةٍ موضوع يهمني جداً أن أكتب عنه، لما

لغزة من معزة خاصة في قلب كل مسلم يتألم لحصارها الظالم.

- نعم، نعم، معك حقّ.

- سأبدأ على الفور يا سيدي، وسيكون مقالاً مدوياً إن شاء الله.

- بارك الله فيك، ولكن قبل البدء هناك ملاحظة صغيرة جداً.

- ما هي سيدي؟

- أنت تعرف أنّ مجلّتنا ليست مدعومة من أشخاص كبار في الدولة.

- القصد؟

- القصد أنّ مقالك لا يجب أن يتعرّض لبعض الحكومات العربيّة التي

تشارك في حصار غزة بشكل فاعل وتفتخر بذلك، الله يرضى عليك لا نريد مشاكل مع المخابرات والأجهزة الأمنيّة، وننتهم بالإساءة للعلاقات العربيّة الأخويّة.

- حسناً سيدي! سأراعي ذلك في مقالي، مع أنّي أرى أنّ العلاقات العربيّة لا

يستطيع أحد أن يزيد لها سوءاً!!.

- بارك الله بك، هناك موضوع صغير آخر.

- ما هو سيدي؟

- أنت تعرف أنّ مجلّتنا توزّع في دول أوروبية وأمريكا ولا نريد أن ننتهم

بدعم الإرهاب، وتمنع مجلّتنا من التوزيع؛ لذا لا تتطرق إلى المقاومة وحقّ الشعب الفلسطينيّ في محاربة الاحتلال، لا نريد مشاكل الله يرضى عليك.

- حسناً يا سيدي! مع أنّي لا أفهم كيف يكون دفاع شعب أعزل عن نفسه

مقابل جيش جرّار إرهاباً!!.

- الله يحسن إليك، وأيضاً لا نريد أن نتطرق إلى الأثرياء العرب وصرّفهم

للملايين من الدولارات على ألعاب نارية، وعلى المطربات والراقصات بينما أهل غزة يموتون من الجوع، أنت تعرف أنّ مصدر دخل المجلّة هو من

إعلانات هؤلاء، إذا زعلوا منّا فلن نرى إعلاناً واحداً، وسنموت من الجوع.

كظم سعيد غيظه وقال:

- حسناً يا سيّدي! هل من أوامر أخرى؟

- لا يأمر عليك ظالم يا ابني، ولكن لا أريد أن أوصيك، لا تتطرق إلى أطفال غزة وهم يموتون جوعاً ومرضاً بينما أجهزة الإعلام العربية مشغولة بمسابقة ملكة جمال الأغنام، وأجهزة الإعلام الغربية مشغولة بكلب عثر عليه الجيش الأمريكي في العراق، وتطالب بمنحه حقّ اللجوء السياسي في أمريكا، لا نريد أن تزعل منّا منظمات الرفق بالحيوان.

- سبحان الله، وماذا بعد؟!

- أنت متأكّد؟ لا شيء بعد؟ لا نريد أن يزعل منّا أحد لا سمح الله!!.

- ما دمت قد ذكرت ذلك، وبما أنّ حوار الأديان على قدم وساق هذه الأيام فلا نريد أن نتهم بتعطيل هذا الحوار، فأرجو عدم ذكر شيء عن اليهود واضطهادهم للفلسطينيين وإهانتهم لمقدّسات المسلمين، حسناً؟
- حسناً سيّدي.

خرج سعيد غاضباً من رئيس التحرير الذي كلّفه بكتابة مقال عن غزة بهذا الشكل. وفي اليوم التالي، سلّم سعيد المقال إلى رئيس التحرير، وكان كالتالي:

يعيش سكان غزة أجمل أيامهم بعد أن قرّروا اتباع نصائح الأطباء في الوصول إلى نمط الحياة الصحية القائم على ترك كل أنواع الطعام التي تساعد على ارتفاع نسبة الكوليسترول والضغط والوزن، وكذلك التخلص من أهمّ مسببات التلوّث، وهي: مشتقّات النفط والبنزين واللّجوء إلى رياضة المشي

المفيدة للجسم والعقل، خصوصاً لكبار السنّ والمعاقين والمرضى والنساء الحوامل.

أما المستشفيات والعلاج، فقد ثبت بما لا يقبل الشكّ بأنّ الدواء التقليدي يسبّب الأمراض ويعطّل جهاز المناعة لدى الجسم، ومن الأفضل اللّجوء إلى طرق العلاج القديمة بالأعشاب؛ ولذا فإنّ أهالي غزة رجالاً ونساء وأطفالاً يتوجهون بجزيل الشكر إلى الحكومات التي تشارك في حصار غزة؛ لما يوفره لهم من أسلوب عيش صحيّ وسليم بعيداً عن مغريات الحضارة الضارّة بالصحة.

كما يسألون الله أن أن يوفّر لكلّ من شارك في هذا الحصار المفيد والجميل من الحكومات العربية الفرصة لعيش هذه التجربة الجميلة هو وعائلته وأولاده. وكذلك يتقدمون بجزيل شكرهم وخالص اعتذارهم للحكومة الإسرائيلية عن اضطرارها لتجنيد آلاف الجنود للتأكد من عدم وصول المواد الضارة الآتية الذكر إلى منطقة غزة الصحية. وكلّ حصار وأنتم بخير...

* * *

□ إعداد: هيئة التحرير

ﷺ

:

المشاركين في المؤتمر، والتي جاء فيها:
لقد كشف العدو عن صورته البشعة،
ليس من خلال إحراق المسجد
الأقصى فحسب، بل من خلال الغزو
الشرس للقدس في الحرب الأولى،
وحرب الستة أيام المهينة لاحتلال
القدس، ليقوم بعد ذلك بإزالة معالمها
الإسلامية عبر تغيير الهوية الفلسطينية
وإرغام الفلسطينيين على التعامل
بالعملة الإسرائيلية بدلاً من العملة
الفلسطينية، وتهويد المجتمع المدني في
القدس الشريف..

ورأى الشيخ أختري: أن ما يجري
اليوم من تركيز على قبة الصخرة،
وهي جزء من المسجد الأقصى، بدلاً
من التركيز على المسجد الأقصى
ككل، هو لعبة صهيونية جديدة يجري
تنفيذ جانب منها، عن قصد أو غير

شارك الأمين العام للمجمع
العالمي لأهل البيت ^٨ حجة
الإسلام والمسلمين الشيخ محمد
حسن أختري في المؤتمر السابع الذي
أقامته مؤسسة القدس الدولية في
العاصمة اللبنانية بيروت بتاريخ
١٣/١/٢٠١٠، وقد ضمّ هذا المؤتمر
شخصيات إسلامية وعربية بارزة من
علماء الدين والباحثين وأهل الفكر
والسياسة. وكان سماحة الشيخ
أختري رحمته والذي حضر هذا
المؤتمر بصفته ممثلاً للجمهورية
الإسلامية الإيرانية - قد ألقى كلمة

قصد، عبر بعض الإعلام العربيّ والإسلاميّ، ويُراد بها صرف أنظار الأجيال الإسلاميّة الصاعدة عن قضية القدس والمسجد الأقصى.

وتساءل الأمين العامّ للمجمع: كيف يمكن الجلوس إلى طاولة المفاوضات مع عدوّ شرّس يستهدف ضرب الأصول والقواعد الإسلاميّة الكريمة، التي جسّدها الإسلام التقدّميّ الأصيل في كتاب الله سبحانه وتعالى وفي السنّة النبويّة الشريفة.

ثمّ ذكر الشيخ أخترى الحاضرين بتلك الخطوات الشجاعة التي اتّخذها مفجّر الثورة الإسلاميّة في إيران الإمام الخمينيّ تجاه القدس والأقصى والقضيّة الفلسطينيّة من الدعوة الحثيثة إلى لزوم قتال الصهاينة ودحر الاحتلال وإزالة الكيان الإسرائيليّ الغاصب عن خارطة العالم، وتحرير المسجد الأقصى من دنس الغزاة الصهاينة، وقد استجاب لدعوته هذه الشعب الإيرانيّ المسلم الذي ما انفكّ

عن تقديم الدعم، بمختلف أشكاله، للفلسطينيّين المحاصرين في غزّة وغيرها، واستجاب معه أيضاً كافّة شعوب العالم الحرّة، كما يتجلّى ذلك واضحاً من خلال إحياء يوم القدس العالميّ الذي كان الإمام الراحل قد دعا إليه آخر كلّ جمعة من شهر رمضان من كلّ عام.

وفي ختام هذه الكلمة، رأى الشيخ أخترى أنّ أحد الأساليب التي ينبغي أن تستمرّ، تتمثّل في أن يبادر المسلمون كافّة، وعلى مختلف مستوياتهم، إلى دعم القضية الفلسطينيّة مادّيّاً ومعنويّاً، والتصديّ لاعتداءات العدو الصهيونيّ وهجماته، عبر إقامة اجتماعاتٍ دفاعاً عن المقاومة والشعب الفلسطينيّ، وكذلك اتّخاذ إجراءات قانونيّة وحقوقيّة، والاستمرار في مطالبة المنظّمات الحقوقية في أعمال أنظمتها الحقوقية والسياسيّة للضغط على «إسرائيل» لوقف اعتداءاتها، والدفاع

عن القدس بصفتها مدينةً إسلاميّةً
وقبله المسلمين الأولى...

* * *

(٢) دراسة احتياجات القراء
وتقييمها، وترتيب المقالات على
حسب الأهميّة، وعلى وفق الدولة
واللغة التي تخاطبها كلّ مجلّة.

(٣) التعريف بأهل البيت ^٨،
والاهتمام بعرض تاريخ الشيعة
وعلومهم وعقائدهم وفقهم، في
مختلف المستويات، بدءاً بالأطفال
والناشئين، مروراً بالشباب ووصولاً
إلى ذوي الاختصاص.

علماً بأنّ المجلّات التي تصدر
حالياً تحت إشراف المجمع العالمي
هي ٨ مجلات، يُعنى بالإشراف عليها
مباشرةً: معاونيّة الشؤون الثقافيّة
ومستشاريّة الشؤون الدوليّة
للمجمع، وهذه المجلّات هي:

١. رسالة الثقلين، الثقلين، باللغة
العربيّة (مجلّة تخصّصيّة، وهي مجلّتنا
التي بين يدي القارئ الكريم).
٢. رسالة الثقلين، باللغة
الإنجليزيّة (مجلّة تخصّصيّة).
٣. الثقلين، باللغة الإسبانيّة (مجلّة
تخصّصيّة).

عُقد مؤخّراً في مبنى المجمع
العالمي لأهل البيت ^٨ اجتماعُ ضمَّ
رؤساء تحرير المجلّات التي يُصدرها
المجمع بمختلف اللّغات وبمشاركة
وكيل الشؤون الثقافيّة للمجمع
وعددٍ من مسؤولي الطباعة والنشر.
وقد نقّش في هذا الاجتماع العديد
من المواضيع التي ينبغي للمجلّات
الصادرة عن المجمع الاهتمام بها،
ومنها:

- (١) الاهتمام بمسألة الوحدة
الإسلاميّة، التركيز على المشتركات
التي تجمع بين المسلمين في مجالات
التوحيد والنبوة والآخرة والعدالة
والولاية والقيادة.

٤. الكوثر، باللغة الإسبانية (للسيدات والأسرة).
 ٥. جوتي (نور) باللغة البنغالية.
 ٦. القبله، باللغة التركية.
 ٧. الملائكة الصغار، باللغة الإسبانية (للأطفال).
 ٨. كوثر، باللغة الفارسية (خاصة للأفغان).
- العناوين التي تضمّنها هذا الكتاب:
- «معالم الأزمة، أزمة الخلاف وأزمة الحوار وأزمة العقل»، «وقفات مع ابن تيمية»، «المتطرفون، حنابلة العصر»، «أزمة النقل؛ قذائف الحنابلة»، «أصل التسمية، تسمية الشيعة وتسمية السنة».

* * *

* * *

:

٨:

قام المجمع العالمي لأهل البيت ^٨ بطباعة كتاب (الحق والحقيقة بين الشيعة والسنة)، لمؤلفه الكاتب والمفكر المصري الشهير الأستاذ «صالح الورداني». طُبِعَ هذا الكتاب باللغة العربية في ٢٤٣ صفحة. وهو يُعالج عدداً من المسائل المهمة والحساسة على الساحة الإسلامية المعاصرة، من أهم وأبرز

تقوم الحكومة السعودية بممارسة عددٍ من الضغوط تجاه مواطنيها من المسلمين الشيعة القاطنين فيها، ومن جملة هذه الضغوط: عدم اعتناء المحاكم في هذا البلد تجاه شهادة الشيعة، ومنعهم من القيام بأعمالهم العبادية لأسبابٍ مختلفة، وإغلاق جمعياتهم الثقافية والحسينيات. ووفقاً لما أفادته وكالة أهل البيت ^٨ للأنباء «أبنا» فإنّ التقرير السنويّ عن

حقوق الإنسان الذي نشرته وزارة الخارجية الأمريكية يُثبت أنّ المسلمين الشيعة في السعودية يعانون من تمييز قانوني واجتماعي واقتصادي وسياسي مجحف.

وجاء في هذا التقرير:

أنّه على الرغم من أنّه لا يوجد أيّ قانون يمنع الأقليات الدينية من المشاركة السياسية في هذا البلد، إلّا أنّ هناك من يقوم بأداء دور الضغط لإبعاد الشيعة نهائياً عن مراكز اتّخاذ القرار والمشاركة السياسيّة في هذا البلد.

ويشير التقرير إلى أنّ قضية اعتقال وحبس رموز الشيعة وقادتهم في هذا البلد بات أمراً شائعاً جداً.

فمتى تتحوّل بلداننا الإسلاميّة إلى بلدانٍ إسلاميّة حقّاً، يتجسّد فيها الإسلام الحنيف الذي هو رحمة للعالمين؟! *

٨

:

قام الأمين العامّ للمجمع العالميّ لأهل البيت ^٨ مع وفدٍ مرافق له بإجراء زيارةٍ رسميّةٍ إلى جمهوريّة آذربيجان؛ وذلك لغرض التداول في أوضاع المسلمين، والشيعة على وجه الخصوص، ممّن يقطنون هذه الجمهوريّة..

وبعد انتهاء مراسم الاستقبال التي أُقيمت من قبل المسؤولين، شارك حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّد حسن أختري والوفد المرافق له في حفل المولد النبويّ الشريف على صاحبه وآله آلاف التحية والثناء، وميلاد الإمام الصادق × الذي أُقيم في العاصمة «باكو»، وقد ألقى سماحة الشيخ أختري في هذا الحفل كلمةً بهذه المناسبة العطرة، تحدّث فيها عن خصال النبيّ الأعظم ' وعظيم أخلاقه السامية، ثمّ ساق الكلام بعد

ذلك للحدّث عن الطرق الكفيلة بتقوية أو اصرّ علاقات التعاون والمحبة فيما بين المسلمين.

* * *

طوال حياتي، ولم أجد لها إجاباتٍ مطلقاً في المسيحية، ثمّ أضاف: إنّ سويسرا اليوم في حاجةٍ ماسّةٍ إلى مزيدٍ من المساجد، وليس جديراً بها أن تجبر المسلمين على أداء الشعائر الدينية في الأزقة الخلفية».

* * *

:

أشهر السياسيّ السويسريّ «دانييل سترايش» إسلامه، وهو عضو سابق بحزب الشعب، قاد في الخامس من أيلول من العام ٢٠٠٧ حملة تهدف إلى منع بناء المآذن في بلاده، وقد أثار إعلان سترايش إسلامه مؤخراً عاصفةً كبيرةً فيها على الساحة السياسيّة، وبخاصّة: لدى أولئك الذين أيّدوا منع بناء المآذن. وعن سبب اعتناقه للإسلام، فقد نقلت مصادر إعلاميّة سويسريّة عن سترايش قوله:

«لقد أجابني الإسلام عن التساؤلات التي طالما شُغلت بها

)
^ :
:(
قام المجمع العالمي لأهل البيت ^ - المعاونة الثقافية، بنشر وطباعة كتاب (الحجّ في مدرسة أهل البيت: معالمه - آفاقه)، لمؤلّفه: ساحة السيّد منذر الحكيم، في ٢٢٤ صفحة، الذي تولّى فيه المؤلّف بلغةٍ عصريّةٍ مهمّة معالجة العناوين الرئيسيّة التالية، وهي: الحجّ فريضة إسلاميّة كُبرى، الشعائر الإلهيّة في الذكر الحكيم، معالم الحجّ وشعائره في القرآن الكريم، معالم الحجّ في مدرسة

أهل البيت ^٨، الحجّ في نصوص أهل البيت ^٨، والحجّ في سيرة أهل البيت ^٨. وفي الكتاب أيضاً استعراض لتاريخ الحجّ، وفلسفته في القرآن الكريم، وتركيز على مستوى اهتمام أهل البيت بهذه الشريعة الإلهية بالقول والعمل، وإشارة إلى مضاعفات ترك الحجّ، مضافاً إلى عرضٍ لتفاصيل حجّ الأئمة من أهل البيت ^٨.

* * *

ألقى حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد حسن أختري، الأمين العامّ للمجمع العالميّ لأهل البيت ^٨، كلمته في المؤتمر الثالث والعشرين للوحدة الإسلامية المنعقد في طهران.

ومّا جاء في كلمته: من الواضح لكلّ أحد أنّ عالم الحلقة مبنيّ على التعدّد، وكذلك، فإنّ تعدّد المذاهب في جميع الأديان هو حقيقة لا شكّ فيها، ولكنّ القضية المهمة هي: كيف تنسجم الوحدة الإسلامية مع التعدّدية في المجتمعات الإسلامية، فوجود المذاهب لا ينبغي أن يصبح مصدراً للنزاع والصراع؛ لأنّ هذا لا يصبّ إلاّ في مصلحة الأعداء.

وأكدّ سماحته على أنّ وحدة المسلمين ضرورة لا يمكن التنازل عنها، وإن كان هناك على الدوام جماعات تسعى لبثّ الفارقة بين المسلمين، وهنا يتحمّل علماء الإسلام الجزء الأكبر من المسؤولية في تفعيل الوحدة بمؤلّفاتهم ودروسهم، وأن يجعلوها أساساً لعملهم. وأشار سماحته إلى تأكيد القرآن الكريم على الوحدة والانسجام في الأمة الإسلامية.

الصهيونيّ إعادته إلى الحياة من جديد. يقع هذا الكنيس على بعد أمتارٍ فقط من المسجد الأقصى (الذي باركنا حوله)، والذي يحلم الصهاينة بإزالته من الوجود كلياً، ويخطّطون لهدمه وتقويض أركانه، طمعاً ببناء هيكلٍ مزعوم تقول أساطيرهم:

إنّه كان مشيداً في مكانٍ ما من المسجد الأقصى! جاء افتتاح هذا الكنيس في البلدة القديمة عشية ١٦ مارس ٢٠١٠، وهو موعد له خصوصيّة زمنيّة في أساطيرهم أيضاً، إذ يزعم صهاينة متطرّفون أنّه الزمان الذي وُعدوا فيه بهدم الأقصى.

وفي الردود المناقضة لهذه الانتهاكات الصارخة، نفت منظمة «يهود ضدّ الصهيونيّة»، وهي أشهر المنظّمات اليهوديّة الأمريكيّة التي تناهض قيام دولة «إسرائيل»، نفت أيّ وجودٍ لهذه النبوءة المزعومة في التوراة، مؤكّدة أنّها بموقفها هذا إنّما تعبّر عن قناعات اليهود الحقيقيّين في

كما أوضح أنّ بعض الدول من أعضاء مؤتمر الدول الإسلاميّة وبعض المفتين يصرون على بثّ الاختلافات والتفرقة، وهنا يأتي الدور المحوريّ لعلماء الدين وأصحاب الفتوى ليتصدّوا لمثيري الفتن والتفرقة والتكفيريين.

وفي ختام الكلمة، أشار حجة الإسلام والمسلمين الشيخ أختري إلى أنّ «ميثاق التعايش» الذي وقّعه جمع من علماء السنّة والشيعة في السعوديّة يعدّ أمراً إيجابياً للغاية، ويجب أن يتمّ تنميته، مؤكّداً على أنّ الشيعة والسنّة يجب أن يتحدوا ضدّ الذين يفتنون بإراقة الدماء والقتل والتكفير.

* * *

:

«الخرابة» اسم على مسمّى، فهو كنيس قديم خرب، يحاول الكيان

الولايات المتحدة وأوروبا، لا الإسرائيليين الذين يقيمون دولتهم على أرضٍ عربيّةٍ محتلّة، ويخفون مطامعهم السياسيّة تحت عباءتهم اليهوديّة.

ويرى المتحدث الرسمي باسم هذه المنظّمة «راباي ديفيد ويليس»، وهو حاخام يهوديّ أمريكيّ الجنسيّة، أنّ ما يجري الترويج له حول نبوءة بناء الهيكل الثالث بعد افتتاح كنيس الخراب، وهدم المسجد الأقصى، ما هو إلّا كلام سخيف، وليس له أيّ قبول أو مصداقيّة في أوساط المجتمع اليهوديّ المتدينّ الذي لا يُعنى بالأهداف السياسيّة.

* * *

: :

جاء هذا الكتاب - وهو من تأليف الشيخ يحيى الدوخي، ونشر المجمع

العالميّ لأهل البيت ^٨ - ليسلّط الضوء بأسلوبٍ شيقٍ وحوارٍ تقريبيّ هادئٍ على مفردة مهمّة، لطالما دار الخلاف فيها بين السنّة والشيعة، وهي مسألة عدالة جميع الصحابة، وللأسف، نجد أنّ هناك من وظّفها لإثارة الأحقاد والعصبيّات المذهبيّة وتعبئة أهل السنّة على مذهب الإماميّة الإثني عشريّة، ليخلقوا بذلك الحواجز النفسيّة والنعرات الطائفيّة بين المسلمين؛ بحجّة أنّ هناك من يسبّ الصحابة، وهي تُهم جزافيّة لا نصيب لها من الواقع. ولكن مهما فعلوا، فإنّ الحقيقة لا يمكن أن تغيب أو تُشوّه بسبك العبارات ونظمها، فمسألة الصحابة ووجوب اتّباعهم للنبيّ الأكرم ' لا بدّ أن نخضعها للقانون الإلهيّ الربّانيّ وهو (التقوى والعمل الصالح)، فهذه هي المرجعيّة الربّانيّة لهذا الأمر المهمّ.

وقد جاء هذا الكتاب - والذي ورّعه مؤلّفه على فصول خمسة -

ليفكّك بين مرجعيّتين ومدرستين، بل
بين ثلاثة مدارس في الحقيقة: بين
المدرسة السنّيّة والمدرسة الشيعيّة من
جهة، واللّتان تشتركان - في حقيقة
الأمر - في نقاط كثيرة، حتى أنّ دائرة
الخلاف تكاد تنحسر بينهما، وبين
المدرسة السلفيّة الوهابيّة من جهةٍ
أُخرى، والكلام في هذا الكتاب
منصبّ على هذا الفكر بشكلٍ خاصّ.

* * *

قسمة الاشتراك

رسالة الثقلين
مجلة اسلامية جامعة

/

()

()

□ □ □ :

أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:
.....



.....

)

:

□

:

(

/

()

:

عليه السلام.

()

:

□

.()

:

:

□

□

رسالة الثقلين /



The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 16, No . 64, Winter 2010